جعفر الخليلي

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض
الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

الجزء الرابع

هكذا عرفتهم

خواطر عن أنفس أقفاذ عاشروا بعض
الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشروا لأنفسهم

مكتبة الجواد العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني

هكذا عرفتهم

الجزء الرابع

خواطر عن اناس افذاذ عاشوا بعض الوقت
لغيرهم اكثر مما عاشوا لانفسهم

تأليف
جعفر الخليلي

دار التعارف ـ بغداد

هدية
مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
إلى مكتبة الجواد العامة

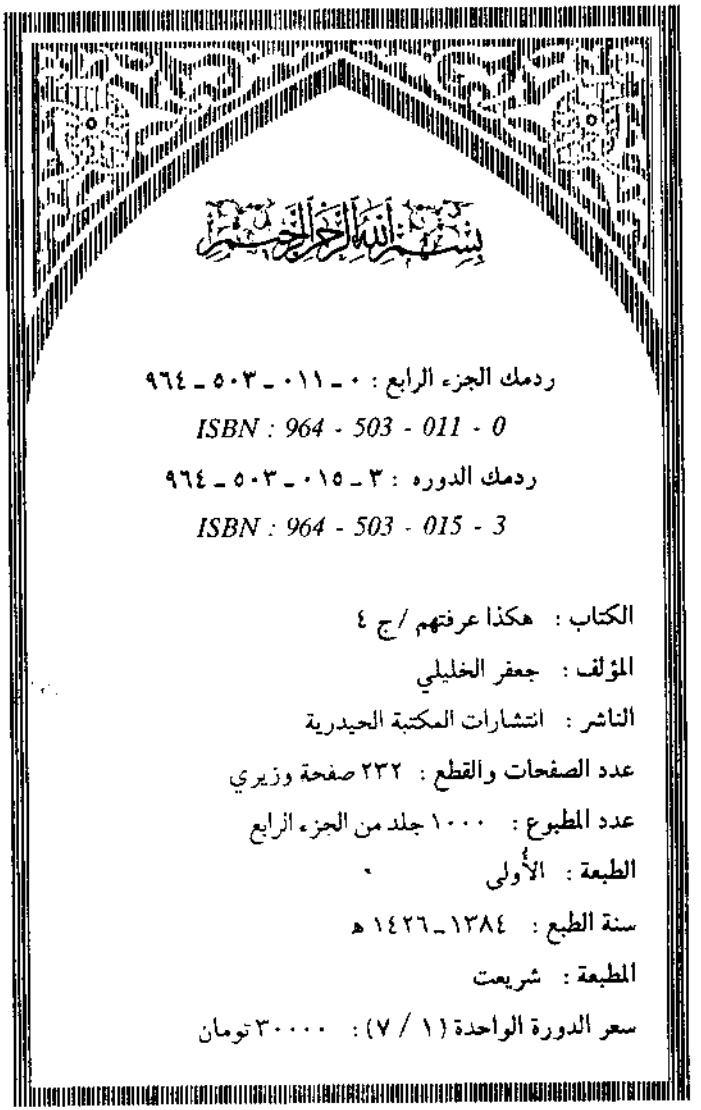

بسم الله الرحمن الرحيم

ردمك الجزء الرابع : ٠ ـ ٠١١ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤

ISBN : 964 - 503 - 011 - 0

ردمك الدوره : ٣ ـ ٠١٥ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤

ISBN : 964 - 503 - 015 - 3

الكتاب : هكذا عرفتهم / ج ٤

المؤلف : جعفر الخليلي

الناشر : انتشارات المكتبة الحيدرية

عدد الصفحات والقطع : ٢٣٢ صفحة وزيري

عدد المطبوع : ١٠٠٠ جلد من الجزء الرابع

الطبعة : الأولى

سنة الطبع : ١٣٨٤ ـ ١٤٢٦ هـ

المطبعة : شريعت

سعر الدورة الواحدة (١ / ٧) : ٣٠٠٠٠ تومان

كيف عرفت

يوسف يعقوب مسكوني

في الثلاثينات وأنا أزاول الصحافة في النجف كنت أتردد على بغداد بين حين وآخر لتجهيز الجريدة والمطبعة بما يلزمهما من ورق ، وحبر ، وغراء ، وغير ذلك ، وكنت اهتبل هذه الفرصة فأزور رهطاً من الاصدقاء ، على قدر الامكان ، أما عبد الستار القرغولي فكان من المحتم علي أن أزوره أول من أزور لما كان يربطني به من وشائج المودة التي كان مبعثها الزمالة يوم كنت مدرساً في وزارة المعارف ، وكان مبعثها الشعر والادب .

وذات مرة وأنا أزور القرغولي في مدرسته ، ألح علي بأن نتناول الغداء معاً بمطعم (شمس) ، ومطعم شمس يومذاك أوسع المطاعم شهرة في طهي الطعام ، وكان يقع فيمايقابل جامع الحيدرخانة بشارع الرشيد ، ولما كان الوقت ظهراً ولم يكن هناك ما يستدعي الاعتذار أجبت الطلب وخرجنا من المدرسة متجهين الى المطعم المذكور ، وفي الطريق استوقف القرغولي شاباً وردي اللون أشقر الشعر ضحوك الوجه ، معتدل القامة ، وكان يريد عبور الشارع ، استوقفه ، وقال له الى اين ؟

— تعال لأعرفك بفلان — وفلان هذا يعنيني أنا —

ثم قال لي — هذا يوسف افندي مسكوني ومن زملائنا المعلمين .

ثم قال القرغولي لمسكوني — : اننا مصممان على أن نتناول الغداء بمطعم شمس على حسابك فماذا تقول ؟

فما رأيت وجهاً أكثر بشاشة من وجهه ولا ترحيباً أصدق لهجة من ترحيبه ، ومضينا معاً الى المطعم ، وحاول هناك أن يدفع الحساب ولكن القرغولي لم يدعه وأقسم له اننا كنا مازحين ، ثم افترقنا بعد ذلك .

ولست أذكر كم مرّ على تلك المعرفة يوم التقيت يوسف افندي مسكوني — مرة ثانية ببغداد — وكانت صفة (الافندي) يوم ذاك تقوم مقام الاستاذ في هذا اليوم — فاستوقفته أسأل عن أحواله وهو يرحّب بي ويبشّ ، وأدركت من هذا الترحيب والبشاشة التي كانت كما يبدو طبيعية أصيلة في مسكوني عند التقائه بمن يلتقي عرفهم أم لم يعرفهم ، لقد أدركت انه لم يعرفني ، وانه نسي اللقاء الأول فقلت له أنا فلان وقد سبق لي أن تشرفت بك عن طريق القرغولي وتناولنا الغداء بمطعم (شمس) معاً ، فقال كمن كان يتذكر ذلك .

— نعم .. نعم . وأين تسكنون اليوم ؟؟

فعلمت انه لم يعرفني تماماً ، وانه قد نسي المطعم وتناولنا الغداء فيه ، والتقيت القرغولي وقصصت عليه القصة ، فقال هذا رجل عجيب اذا ذهل أو نسي ولكنه على خلاف ذلك في اداء وظيفته كمعلم ، ولعله من أخلص المعلمين ، ومن أكثرهم تفانياً لمهمته ، وحين تم لي بعد ذلك الاتصال بمسكوني ، وتوثقت بيننا الصداقة ، والمعرفة تيقنت مما قال القرغولي حين رأيت هذا الرجل الذاهل ولكن قلما تسرب الذهول الى ما وضع من كتب وتراجم ، وان الفرق لكبير بين مسكوني في مجتمعه ، واختلاطه بالناس ، وبينه وبين المتصدي للبحث في موضوع من المواضيع التاريخية ، والتعليق عليها أو سرد تراجم بعض المغمورين من رجال العلم والادب .

ثم اشتدت معرفة مسكوني والتعرف الي عن طريق جريدة (الراعي) التي كنت أصدرها أولاً ثم (الهاتف) بعد ذلك ، وكان يحتفظ ببعض الاعداد التي تتناول التراجم أو بعض المواضيع الادبية ليتخذ منها مراجع للبحث على ما قال لي ذلك عدة مرات .

وصرت في كثير من الاوقات عند زيارتي لبغداد أسأل عن (مسكوني) الذي

رأيت الوداعة متجسمة فيه ، ماثلة في كل تصرفاته ، وان انساناً كهذا لا يمكن أن يتجاهله من يريد أن يرى الانسانية شاخصة أمامه بالكثير من معانيها ، ملموسة بيديه بالكثير من فضائلها .

ومرّ زمن عرفت فيه ان (مسكوني) قد تزوج ، وأن زوجته من الموصل ، ولقد قيل يومذاك سواء على سبيل الدعابة أو الحقيقة أن صديقاً قد اتخذ من مسكوني واسطة ليخطب له السيدة (كلمبا) من أهلها ، وكان مسكوني نفسه يومذاك يبحث عن زوجة له فنسي أنه وسيط ليخطب لصديقه السيدة (كلمبا) فزار أهلها ، وكرر الزيارة ، وخطبها لنفسه ! ! وحصل عتاب بينه وبين صديقه فأقسم مسكوني إن كان يذكر ذلك وأن كل ما جرى في خاطره هو أنه ذهب ليخطب لنفسه وقد رأى السيدة ، فأعجبه منها كل ما يعجب الخاطبين من المخطوبة من جمال ، وأدب ، وأخلاق .

وقد برهنت التجربة أن السيدة (كلمبا) كانت كما توقع وأكثر ، فهي فضلاً عن كونها سيدة بيت تحسن القيام بواجب البيت من حيث اعداده للسكن ، ولاستقبال الزوار فقد كانت مربية فاضلة أنجبت له ستة بنين وبنتاً واحدة ، أورثهم ابواهما يوسف مسكوني والسيدة كلمبا الشيء الكثير من مزاياهما وفضائلهما أنا أجزم لو لم تكن السيدة ام زهير (كلمبا) لما استطاع (مسكوني) أن يحافظ على نفسه لما جبل عليه من اللامبالاة ، والذهول ، بل لولا السيدة كلمبا لما توفق الاولاد كل هذا التوفيق فالكبار كلهم جامعيون وهم اما حائزون على شهادة الدكتوراه أو في طريقهم اليها ، وقلما شوهد سبعة أخوة يتحلون بمثل ما يتحلى به أولاد مسكوني من الاخلاق العالية .

وفتحت السيدة (كلمبا) بيتها للزائرين ، وأصبح لمسكوني صالون يضم عدداً غير قليل من أهل العلم ، والادب ببغداد ، وكثيراً ما تمتعت في أوقات الفراغ بمجلس يوسف مسكوني الذي كان يجري فيه الشيء الكثير من البحوث الادبية والاجتماعية وتدور فيه النكت عن ذهول مسكوني وشرود ذهنه ، بعضها كان واقعياً ، والآخر منحولاً يروى بقصد التفكهة ، وكان الراوية الاكبر رشيد

الدبوني ، ورشيد الدبوني فضلاً عما تربطه بمسكوني من الروابط الادبية والصداقة ، فقد عملا معاً في وزارة المعارف (التربية اليوم) وفي غرفة واحدة ، فاذا ضم المجلس رشيداً فلا تسل عن مدى ما تبلغ النكات والنوادر عن مسكوني ، وما لبث لطفي مسكوني — الدكتور لطفي اليوم — أن زاحم الدبوني بجمعه النكات والنوادر عن أبيه حتى اذا سافر لدراسة الدكتوراه الى لندن نابت عنه أخته السيدة أمل مسكوني ، وبدأت تجمع عن أبيها الشوارد . وهكذا كانت السيدة كلمبا وأولادها والسيد مسكوني قد جعلوا بيتهم جنة لزائريهم ، وديوانا قلما يحاكيه ديوان لما كانت تتخلله من مناقشات أدبية ، وبحوث تنتهي في الغالب بعشاء لذيذ على مائدة مسكوني ، بل الصحيح على مائدة السيدة كلمبا ، وكان الذي يساعد مسكوني على البحث والمناقشة هو وجود المكتبة الواسعة التي يمتلكها يوسف مسكوني ، والتي كان قد أنفق كل عمره في جمعها ولاسيما المخطوطات النفيسة منها والتي كان يعول عليهـــا مسكوني فيما يحقق ، ويعلق على ما طبع له من الآثار أمثال :

١ — سبط بن الجوزي .

٢ — من عبقريات نساء القرن التاسع عشر عند العرب .

٣ — شخصيات عربية باسم (شخصيات القدر)

٤ — نصارى كسكر وواسط قبل الاسلام .

٥ — الالحان والتراتيل الآرامية والعربية في كنائس البلاد العربية .

ونشر بالمشاركة مع الدكتور مصطفى جواد رسائل في اللغة كتمام فصيح الكلام لابن فارس ، والحدود في النحو ، ومنازل الحروف .

وفي غير اللغة نشر رسالة في حوادث الجو للفيلسوف الكندي ، وعلّق على مخطوطة (كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل) للوشّاء ، ومدن العراق القديمة .

وكانت مكتبته تحتوي على ما يقارب عشرة آلاف نسخة بين مخطوطة ومطبوعة ، وقد اشتريت المخطوطات منها في حياته بألفي دينار بحثّ من زوجته وسداً للحاجة

التي الزمتهم مثل ذلك، والا فليس شيء أعزّ عند مسكوني من الكتاب، وبيعت المطبوعات على وزارة الثقافة والاعلام بعد مماته بخمسة آلاف دينار .

والغريب في أمر مسكوني انك لا ترى فيما خلّف من البحوث سواء التي اشترك فيها مع الدكتور مصطفى جواد والتي انفرد بها أي أثر لهذا الذهول الذي كان يتندّر به الاصدقاء ، ويرويه رشيد الدبوني ، ولطفي مسكوني ، وأمل مسكوني، وهو أمر يدعو الى الدهشة، فقد قرأت له جل ما كتب ان لم يكن كل ما كتب ، بل اني كثيراً ما طلبت اليه استخراج حساب التواريخ الهجرية بالميلادية وبالعكس لعدم وجود جدول عندي بهذه السنين ولإراحة نفسي من تطبيق القاعدة ، فكان ينقله الي سالماً وبدون أي اشتباه أو سهو .

ومن ذهوله انه حين انتقل من بيته القديم الى بيت الايجار الجديد ظل مدة طويلة ، وبين فترة وأخرى يقصد داره القديمة ناسياً انه قد انتقل من هذه الدار، وقد نزلها سكان آخرون ، فيطرق الباب ، فاذا فتح له الباب ، وعرف انه كان اهياً اعتذر لساكني الدار وقال انه مرّ بهم ليتفقّدهم ويسأل عنهم ، ولما كان مسكوني لا يعرف الكذب ولم يتعوده لسانه يعود فيختم عذره قائلا :

ــ ولكن الحق انه كان لم يزل يظن ان هذا البيت بيته ، وان رجليه لم تعتد المشي الى بيته الجديد ، ويتكرر هذا منه في كثير من المرّات حتى عرف سكان البيت منه هذا الذهول ، فاذا ما فتحوا له الباب ضحكوا ، وقالوا له تفضل ، وتناول عندنا فنجان قهوة قبل ذهابك الى بيتك .

ويا ليته كان يعود الى بيته رأساً في تلك الايام التي انتقل فيها الى بيته الجديد وانما كان يلج أحد بيوت الجيران ، حتى اذا وجد أن الاهل غير أهله ، وأن البيت ليس ببيته سأل الجيران :

ــ ولكن أين بيتي يا ترى ؟

فيدلّونه عليه ! !

وأشفق عليه أنا بعض الاحيان، أو أني أشك في صدق الحكاية التي تروى امامي عنه ، والتي يسردها رشيد الدبوني ، أو لطفي مسكوني ، أو أمل مسكوني ، وأنسبها أنا الى التهويش ، والتهريج ، من هؤلاء بقصد المزاح ، والملاطفة ، وأنكرها عليهم فيردّ علي هو – رحمه الله – بأن هذه الحكاية حقيقة واقعة ! !

وكان مرة يزورني في مكتبي بدار التعارف وقد بعث بأهل بيته الى بيتي ليظلوا بانتظاره حين ينتهي عملي ، ونعود معاً الى البيت ، وشاء أن يتصل بالسيدة أم زهير بالتلفون في بيتي ليخبرها بأنه سيجيء معي بعد نصف ساعة ، ثم طلب منها ان تسأل عن أحوالي وتبلغني تحياته ، فضحكت وقلت له :

– ألست أنا الى جانبك فكيف توصي السيدة ام زهير بأن تبلغني تحياتك ؟

قال – اعطفها على الكثير مما تعرف ، وضحك ....

* * *

وذات ليلة جاء حديث السيدة ام زهير ، وفضلها على البيت ، وتربية الاولاد ، ورعايتها لزوجها ، والمحافظة على صحته ، وفتح بيته للزوار من أهل الفضل ، والادب ، وحتى الغرباء ، من الذين يفدون لزيارة بغداد ، فنظم البعض فيها أبياتاً ضمنها الكثير من الدعابة والمزح ، وكان أن اقترح عليّ انااشارك في النظم وأدلي بدلوي مع المدلين فكانت هذه الارجوزة الموجهة الى السيدة ام زهير .

سيدتي الكريمة اللبيبة ... أمّ زهير زهرة الشبيبة
لولاك ما كان بنو مسكوني ... يحلون في النفوس والعيون
أنت التي ربّيتهم صغارا ... حتى بفضلك اغتدوا كبارا
أبوهم الندب الكريم (يوسف) ... لولاك كم كان بحال يوسف

عَلّمْتِه كيف يكون قـائما وقـاعداً ، ويقظاً ، ونائما
عَلّمتِه كيف يغـالب الزمن وكيف يخلو صدره من الاحـن
وكيف منك يـأخذ الاشـارة ويحبك الكلام والعبـارة
فأنت كالرّبـان في السفينة له فحيث شئت تنزلينـه
منـازل الفضل وأهـل العلم لولاك ما فـاز بأي سهـم
كم مرة ضـاع بوسط الشارع لهفي عليه من صديق ضائع
عـن بيته يسأل مـن يراه في أي حارة ترى ألقـاه
أضعتُ بيتي وأضعتُ نفسي وما دريت أي جنس جنسي
امّ زهير المرأة (الحبّـابـة) يا صورةً للطف والنجـابـه
لولاك مـا كان لـه كتاب وليس من مكتبة تهـاب
فهو مـدين لك في صحتـه اذ طالما باللطف قـد أغرقته
غيبي رعـاك الله – عنـه شهرا لا سمح الله يموت قهـرا
بك استقـام البيت واستنـارا يا خمرة ما ذاقها السكـارى
أمـا بنوك الغرّ فـالطبيبُ والفلكي والفتى الاريب [1]
لولا ك مـن يعرفهـم وإن همُ قد فاح مسك الطيّبـات منهمُ
ومـن سواك يكرم الضيوفـا ويملأ الموائد الصنوفـا
مرحّبـا بأجمل الترحيب ترحيبة الحبيب للحبيب
فيمتلي البيت سروراً وفـرح وتمرح النفس وتزداد مـرح
حيّـاك ربي قد حباك لطفا وصورة مشرقـة وعطفـا .

وما دام جاء مورد الشعر فلأذكر هنا ارجوزة أخرى نظمهـا

---

(١) ومن اولاد مسكوني الطبيب الدكتور زهير مسكوني ، ونبيل الذي يدرس الدكتوراه في الفلك ، والدكتور لطفي مسكوني دكتوراه في الكيمياء وقد اكتشف هو واحد العلماء بعض العقاقير التي افادت بعض عوارض السكر فائدة ملحوظة، والسيدة الجامعية أمل مسكوني .

ونحن مدعوون في بيت الدكتور علي كمال الاختصاصي بالامراض العصبية ، وذلك على سبيل الاقتراح بأن نقرأ شيئاً على مائدة العشاء واقترح الحاضرون بأن يكون هذا شعراً في الاستاذ يوسف مسكوني والسيدة كلنبه قرينته الفاضلة . فمسكت بالقلم ، وشرعت مسترسلاً فيما يمرّ بالخاطر ، ولم أدر ان سيكون لهذا الذي مرّ بالخاطر مروراً خاطفاً شأن بين الاصدقاء ، إذ ما لبث أن استنسخ وقرىء في مجالس أخرى غير مجلس الدكتور علي كمال .

أما الارجوزة التي نظمت في بيت الدكتور علي كمال وقرئت على مائدته فهي :

يا سيدي (يوسف) يـــا صديقي ... أعزّ انســـان مـــن المخلوق
قبلك ما عرفت حسن النيّـــة ... ولا طيوب النفس والسجيـــة
ولم أكن أعـــرف معنى الخير ... ولم أجد وزناً لشخصٍ غيري
ففيك قـــد عرفت طيب النفس ... وعنك قد أخذت أسمى درس
اذ انت فينـــا كالملاك الطـــاهر ... باطنك المستور مثل الظـــاهر
أنت مثـــــال الخلـــق الرزين ... انت من الابريز لا مـــن طين

* * *

يا سيدي ويا اخي : مسكوني ... يـــا ســـاكناً في القلب والعيون
لـــو كان ربي قـــد برائي مثلك ... وكان شكلي في حياتي : شكلك
وكـــــانت السيدة الجليلة ... – وهي شقيقتي – لي الحليلـــة
وهي التي تجلو صفـــاتي للورى ... ليعرف الطيبة مني ويرى :
كلُّ الذي لم يدر بعد من أنا ... ولم يجرّب بعد أبناء الدنـــا :
بدير سمعـــان دخلت شهرا ... استغفر الله – أقول دهـــرا
وكل ما كنت هنـــاك أفعل ... اني الى رب الورى أبتهل
أدعو كما الراهب يدعو ربّهْ ... إحفظ لنا يا ربنا : (كلنبـــه)

فهي وليس غيرهـــا الحبيبـــة ... مثال لطف ومثـــال طيبـــه
هي التي جاءت بنـــا الى هنـــا ... من كان لولاها لطفها يعرفنـــا
والله لولاهـــا لكنت في حذر ... من مدخلي بيت طبيب مشتهر
طبيب عقل . لا طبيب بدن ... الخالد الفن طوال الـــزمـــن
كم عالج العقول والاعصابـــا ... ومن بـــه مسّ شفي وطـــابا
ذاك (عليّ) وصفه (الكمـــال) ... حقا وجدناه . كما قـــد قـــالوا
كنت أخاف أن أؤمّ داره ... بل كنت أخشى أن أكون جاره
خشيـــة أن تـــوهمه الظنون ... بأنني مثل الألى : مجنون

لولاك يـــا سيدتي (كلنبه) ... ما كنت أحظى برضا الاحبة
ولم أكن أستصحب الالوفـــا ... وأن أكون بينهم معروفـــا

ولم يكن يوسف مسكوني في الدنيا وحده معروفاً بين اخوانه بالسهو والنسيان وانما كان هناك فطاحل من رجال العلم والادب روى التاريخ القديم والحديث عن سهوهم وذهولهم روايات لا تكاد تصدق وقد قرأت مرة أن أحد أساتذة الجامعة الرياضيين بباريس حينما كان يمشي في الطريق خطرت له معادلة رياضية أراد أن يجرّبها حالاً . وقبل أن تشرد من ذهنه . وكانت هنالك عربة واقفة بالقرب منه فمدّ يده الى جيبه وكانت فيه قطعة من الطباشير فأخرجها وبدأ يضع حروف المعادلة وأرقامها على الصفحة الخلفية من العربة كما لو كانت سبّورة . أو لوحة معدّة للكتابة . وشرح يحل الرموز المفروضة . واذ ذاك صعد شخص الى العربة وساق الحوذي عربته . أما الاستاذ فلم يكن منه الا أن استمر يركض خلف العربة لكي يواصل ترتيب المعادلة ويستخرج النتيجة . ولم يعرف كم ركض خلف العربة حتى وعى . ووقف ضاحكاً . من نفسه ! !

وليوسف مسكوني نفسه أبيات في زوجته كلنبه على أثر عملية جراحيةأجريت لها يقول فيها :

يا زهرة القلب والايـــام عـــابسة بحلو مبسمك الايـــام تبتسم
حملتمن مضض الاسقام أعنفها ونور وجهك بالالطاف يتسم
يكفيك(ام زهير) طول مصطبر على النوى ليت هذا الجرح يلتئم

* * *

ولقد قرأت عن سهو توفيق الحكيم الذي يقال انه كثيراً ما يسهو، لقد قرأت عنه زعماً بأنه فوجيء وهو يقرأ في كتاب من قبل صديق طالما كان يتندّر بأخبار ذهوله ، وذلك قبل أن يتزوج توفيق الحكيم بسنين طويلة ، لقد فاجأه الصديق باستغراب قائلاً :

– أنت هنا وتترك زوجتك خارجة من البيت تعمل ما تشاء ؟

فلم يكن من الحكيم – على ما تزعم الرواية – الا أن رمى بالكتاب جانبا وأسرع الى البيت يسأل الخادم عن زوجته متى خرجت وأين سارت وماذاقالت له؟!

فقال الخادم – : اية زوجة تعني يا سيدي ؟ وأنت لم تتزوج حتى الآن ؟

وهناك وعى توفيق الحكيم وذكر بأنه لم يتزوج لكي يسأل أين ذهبت زوجته؟ واعتقد أن هذه الرواية التي نقلتها الصحف هي من تلفيقات أهل الفكاهة .

ومن سهو يوسف مسكوني انه حينما جرى عقد ابنته أمل. جاءه العريس ببعض بطاقات الدعوة ليوجهها الى الاصدقاء الذين يخصون بيت العروس، فجلس يوسف مسكوني يكتب أسماء المدعوين، ويرمي بالبطاقات في صندوق البريد، وفي اليوم الثاني جاءت مسكوني بطاقة دعوة باسمه وموقعة بتوقيعه، وظهر انه كان قد

وجّه لنفسه بطاقة دعوة مثلما فعل مع المدعوين ، والقى بها في البريد وجاءته الدعوة موجهة منه اليه ! !

* * *

كان مسكوني من اكثر الملازمين لمجلس الاب انستاس الكرملي، وأكثر من يحضر مايجري من المناقشات الادبية واللغوية في ذلك المجلس الذي شده الى طائفة من أهل البحث والعلم أمثال الدكتور مصطفى جواد ، والشيخ كاظم الدجيلي وگورگيس عواد .

والى جانب البحوث التي كتبها يوسف مسكوني ، والى الثروة العلمية الكبرى التي تمثلت في مكتبته ، والى جانب ما قدم من خدمة في أثناء وظيفته كمدرس مخلص ، وكمترجم في وزارة المعارف ، وكمرب فاضل ، فقد كان يتمتع بشيء أسمى من هذا وأغلا ، وأثمن ما في الوجود من الذخائر ، لقد كان يتمتع بصفات أقرب الى صفات القديسين من حيث صفاء النفس ، وطهارة الضمير ، ومحبة الناس ، وكرم الخلق ، ويوم أبّنته في التلفزيون في ندوة شارك فيها الشاعر حافظ جميل ، والذي كان قد رثاه بقصيدة عصماء ، والاستاذ مير بصري ، ضبط لي المسجل الكلمة المرتجلة التي أنقلها هنا من شريط التلفزيون .

« أنا من الذين يعتقدون أن الانسان اذا توفاه الله ، ووفد على ربه انقطعت علاقته بالدنيا ، فلا يسره مدح المادحين ، ولا يضيره قدح القادحين ، فأنا اذا ما نعيت الصديق القديم الكريم والاستاذ الجليل يوسف يعقوب مسكوني ، فانما أنعى الفضيلة والأخلاق الكريمة ، وطهارة النفس . ومن المؤسف أن الاستاذ حافظ جميل قد سدّ علي الطريق بقصيدته التي أتى بها على وصف الصديق فلم يترك لي

شيئاً لأقوله بعد هذا .

ان علاقتي بالفقيد ترجع الى أربعين سنة من قبل ، وكان واسطة التعارف بيننا أديب له من المزايا ، والاخلاق ، والصفات النادرة ، كمثل ما لمسكوني الفقيدالى جانب الشعر والادب الذي كان يتحلى به ، ذلك هو المرحوم عبد الستار القرغولي الذي كان قد شدني اليه التعلق بهذه المزايا كما شدّني الى يوسف مسكوني فيما بعد ، وهي مزايا قلّ اليوم من يتمثل بها أو تتمثل به في دنيانا هذه التي طغت المادة فيها على كل شيء حتى تكالب الناس على البذخ والترف والاسراف وحتى قلّ هؤلاء الذين كانوا كهذا الفقيد الكبير من حيث الانسانية .

والفقيد الغالي لم يكن مسيحياً فحسب وإن كان قد مثّل المسيحية من حيث المحبة والصفاء ، وانما كان مسلماً ما دام من شروط المسلم أن يسلم الناس من يده ولسانه وقدوالله لم يسلم الناس من يد فقيدنا ولسانه فحسب وانما سلموا حتى من التفكير في الشر ، فلم يعاد مسكوني الناس ، حتى في قلبه ، ولم يضمر لأحد حقداً ، وليس من شك انه كان قديساً ومن أفاضل الناس .

وكثير من الناس من يزاول الادب فيجيده ، وكثير من يفهم العلم فيحسنه ويتقنه ، أما الذين يفهمون الانسانية ، ويفهمون مبادئها ، فانهم قليلون جداً وقد كان مسكوني من هذا القليل ».

مات مسكوني ، وبالرغم مني حضرت تشييعه فأنا من هذه الناحية قليل الصبر ، وهنالك في كنيسة السريان بكيته على قدر معرفتي لمحبته ، وطيبه ولطفه الذي خسرته الانسانية فقلّ عدد أمثاله بيننا .

ولد سنة ١٩٠٣ م وتوفي في ١١ / ٤ / ١٩٧١ تغمده الله برحماته الواسعة وعوض الانسانية بهذه الخسارة الفادحة .

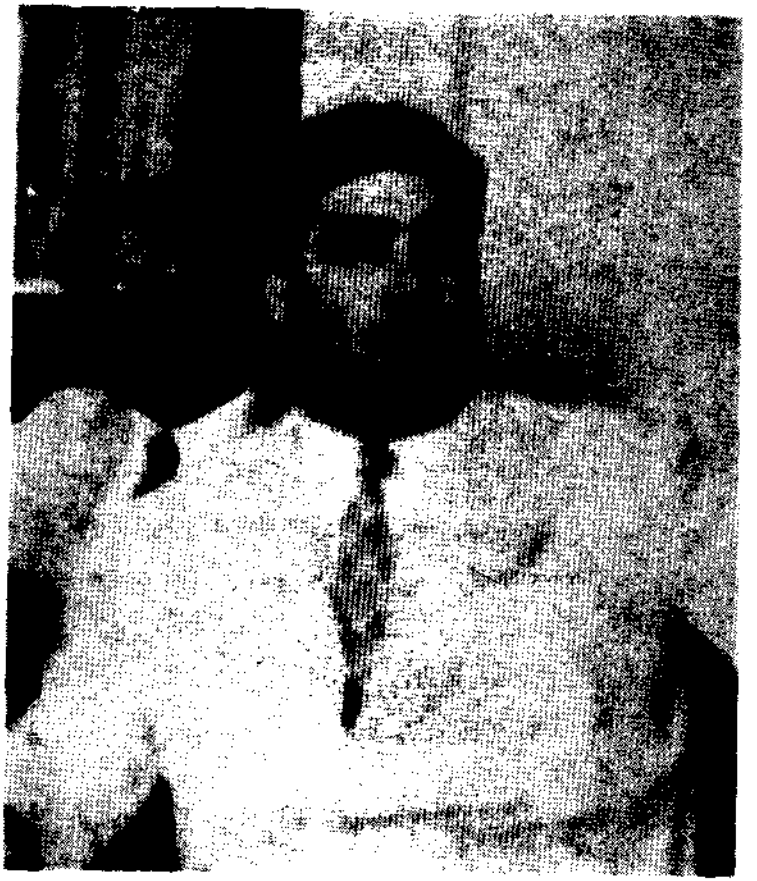

سعد عمر

كيف عرفت

سعد عمر

عرفت اسم سعد بعد معرفتي اسم أبيه : عمر الحاج علوان ، ولعلي عرفت عمه عثمان الحاج علوان عن كثب قبل غيره من أفراد هذه الأسرة حتى لقد كنت أحد الماشين في خطبة زوجته بطهران . ولكن اسم المحامي عمر كان ألمع الأسماء بين مشاهير مدينة كربلا السياسيين ، فقد كان محامياً نشطا ، وكان نائباً في البرلمان ، ومن الوطنيين المتطرفين في معاداة الانكليز لاحتلالهم العراق وجعله ضمن مستعمراتهم ، فضلاً عن كونه من سلالة كان لها في زعامة كربلا شأن مذكور ، وكانت تربط عمر بسعد صالح ، وصالح جبر روابط الزمالة في كلية الحقوق أولا ثم وحدة الاتجاه السياسي ، وعلى أني رأيت عمر في عدة مناسبات ولكن ذلك لم يكن كافياً حتى للتحدث اليه فضلاً عن التعرف به عن كثب .

ويموت عمر الحاج علوان نائب كربلاء قبل أوانه ، ويخلفه أبناؤه بالاسم دون أن يكون فيهم من يشار اليه كشخص له مكانة أو شأن ، ولم يكن ابنه (سعد) قد تم نضجه السياسي بعد ، بل لم تكن هناك علامات تدل على نبوغ هذا الشاب وبلوغه مرحلة أبيه وتجاوزه حدود تلك المرحلة ، ولكن كثيراً ما تكون الجمرة خبيثة تحت الرماد فتتكشف عن نار مشتعلة حالما يتم النفخ في موقدها ، ولقد تم النفخ في موقد سعد بتخرجه من كلية الحقوق محامياً ، وتمت ازالة الرماد عن الجمرة في ممارسته المحاماة كمحام يحافظ كثيراً على حقوق موكليه ، وعلى

مواعيد جلسات المحاكمة والاستقامة التي اشتهر بها . وعلى أنه لم يمر على ممارسته المحاماة الا زمن قصير فقد اشتهر عنه بأنه يمتنع عن قبول الدعاوي ما لم يؤمن ايمانا خالصاً بصحة الدعوى من حيث الحق والظليمة . وكثيراً ما رفض التوكل في دعاوى مريحة لتسرب الشك إلى نفسه في صحة الدعوى وحقيقتها . وما لبث ان اشتهر بهذا بين أنداده والجماعة التي اعتادت أن ترجع اليه في مشكلات دعاواها .

ومدينة النجف قريبة من كربلاء يصل اليها صوت كربلا أكثر من أية جهة اخرى لذلك عرفت أنا عن طريق هذا الصوت سعد عمر معرفة سماعية وازدادت هذه المعرفة رسوخاً حين تم انتخاب سعد نائباً عن لواء كربلا بدلاً من عمه عثمان الذي كان يرشح نفسه للانتخاب بعد وفاة أخيه (عمر) ، فلما لمع نجم سعد شغل هذا المكان واعتبر نائباً للشباب مثلما هو نائب للواء كربلا (محافظة كربلا اليوم) ولعله كان أصغر النواب سناً وهذا ما كان يتعين عند افتتاح المجلس وقبل الشروع بانتخاب مجلس الرياسة اذ يتقدم أكبر النواب سناً ليشغل وظيفة الرياسة الموقتة . وأصغرهم سنا ليتولى التقرير والكتابة قبل انتخاب المقررين .

إلى هنا ومعرفتي لسعد لم تتجاوز حدود السماع حتى كانت سنة ١٩٤٨ التي تم انتقالي وانتقال جريدتي (الهاتف) من النجف إلى بغداد فاتسعت بهذا الانتقال آفاق المعرفة بيني وبين الكثير ممن كنت أعرف وممن لم أكن أعرف ، وشدني إلى أكثرهم المزاج وتجانس الخلق أكثر من أي شيء آخر ، فعرفت سعداً ولا أذكر كيف عرفته لأول مرة عن كثب ، وأغلب الظن ان ذلك قد جرى في بيت سعد صالح . فقد كان سعد عمر يتردد على بيت سعد صالح ويزوره كما يتردد على بيت صالح جبر ويزوره . وكان حبل المودة بين سعد صالح وصالح جبر قد انقطع بل تحولت تلك المودة الصحيحة إلى عداء سياسي أولاً ثم إلى ما يشبه العداء الشخصي بحيث صار المرتادون لمجلس سعد صالح غير المرتادين لمجلس صالح جبر ، وضم كل مجلس طائفة معينة من الناس باستثناء سعد عمر

الذي يؤم المجلسين دون أن يتسرب الشك في نفوس الخصماء به بل بلغ من سمو الخلق بحيث يستطيع حضار كل مجلس أن يخوضوا كل المواضيع وبكامل حريتهم عن الفئة الثانية بمحضر من سعد عمر ، وقد يشترك سعد عمر في النقاش بما يعتقد ويرى فيخالف آراء الحاضرين ويدفع بما يعرف ولكن الجميع كانوا على علم بأن سعداً انما يعبر عن رأيه وأن ما يجري في كل مجلس لن يتسرب عن طريق سعد إلى المجلس الاخر ، وهي ثقة لم يبق أحد من عارفي سعد عمر الا وامتلأت نفسه بها .

وعند قيام حزب (الأمة) الذي أسسه صالح جبر كان سعد عمر من مؤيديه وأنصاره ، ولكن سعداً كثيراً ما برم وسئم من تصرف بعض المنتسبين لهذا الحزب واستغلال انتسابهم لمنافعهم الشخصية على ما كان يقول ، ولقد حدثني بمثل هذا غير مرة وحين سألته عن أسباب بقائه مندفعاً مع الحزب وهو غير راض عن بعض المنتسبين له قال :

ـ كم أود أن أكون مستقلاً في رأي غير خاضع لجماعة معينة ولكن أموراً كثيرة تفرض على الانسان أن يتجه اتجاها غير مقبول من نفسه وأحيانا غير معقول فلا تدعه يتصرف التصرف المنطقي المطلوب ومن هذا كان وصداقة ميلي إلى حزب (الأمة)، ذلك لأن لصالح جبر صلة صداقة عميقة بوالدي، الآباء يرثها الأبناء كما يقولون هذا فضلا عن مساعدته لي في ترشيح نفسي الانسان لدخول البرلمان نائباً ، وان مثل هذا ليتطلب ثمناً أقله الاتفاق مع الرأي ولو كان مكرها .

* * * *

وألّف علي جودة الأيوبي الوزارة سنة ١٩٤٩ على ما أذكر فدخلها سعد عمر وزيراً للشؤون الاجتماعية ، ولعله كان من أحرص الوزراء على فتح باب الوزارة في وجوه المراجعين من الناس ، ولعله كان من أكثر الوزراء حرصاً على تخطي (الروتين) الحكومي فكان يتعمده ولو أدى ذلك إلى مخالفة النظام حين يتراءى

له احقاق الحق في ذلك . وقد شكا لي ذات ليلة خطورة المحاباة في دوائر الدولة وقال : ان كل شيء قد يهون تلافيه ولكن الصعوبة كل الصعوبة في أن تضع حداً للتدخل من قبل المتنفذين وتقديم من لا يستحق التقديم على من يستحقه .

وفي سنة ١٩٥٠ تألفت الوزارة من قبل توفيق السويدي رئيساً فدخل سعد وزيراً للمعارف (وزارة التربية اليوم) وكان هناك الكثير من الأمور التي أخذت على وزارة المعارف سواء ما يتعلق بالمناهج الدراسية أو التعيين والاستخدام واختيار طلاب البعثات وإيفادهم إلى خارج العراق. ذلك لأن اللجان المعيّنة للنظر في مثل هذه الأمور كانت كثيراً ما تتهم بالمحاباة فتفضل المفضول على الفاضل في الاختيار . فعمد سعد إلى الغاء لجنة المقابلة التي بموجبها يتعين الموفدون وجعل اختيار طلاب البعثة مبنياً على ثلاثة أسس لا رابع لها في الاختيار . وقال :

— ان من حق العراقي التمتع بالبعثة اذا كان متفوقاً في درجات دروسه ، ولم يكن محكوماً عليه او مطعوناً بأخلاقه . وكان صحيح البنية ، وليس من حق أحد بعد هذا أن يعيق تقدم البعثة بحجة (المقابلة) أو أية حجة اخرى ، فكانت البعثة الدراسية في تلك السنة أول بعثة لم يكن للغمط فيها أثر ولا بعض أثر ، وأذكر ان طالباً كان قد استوفى هذه الشروط بأكمل ما يكون قد جاء أحد أصدقاء سعد عمر ليتشفع له كما كان الطلاب يفعلون ذلك في السنين السابقة فقال له هذا الصديق : ثق بأن هذا القدر الذي أقامه سعد عمر على هذه الاثافي الثلاث لن يستطيع أحد أن يزحزحه فلن تجد من يستطيع أن يغفل أمرك بعد اليوم ما دامت هذه الشروط الثلاثة متوفرة فيك فقال الطالب — على ما حدثني هذا هذا الوسيط — لقد قال الطالب .

— ولكني انا ابن فلان . وان فلاناً هذا كما تعرف أنت ويعرف الجميع من مشاهير اللصوص الذين يسطون على البيوت ليلاً ، والذي قضى قسطاً من عمره

في السجون ، فهل تظن أنهم سيؤخرون ابن فلان (وسمى له ابن أحد الذوات) ويقدمون عليه ابن الحرامي ؟

فأجابه الوسيط : وليكن ذلك فانما وضع هذا النظام فلازالة التفرقة لأي داع كان .

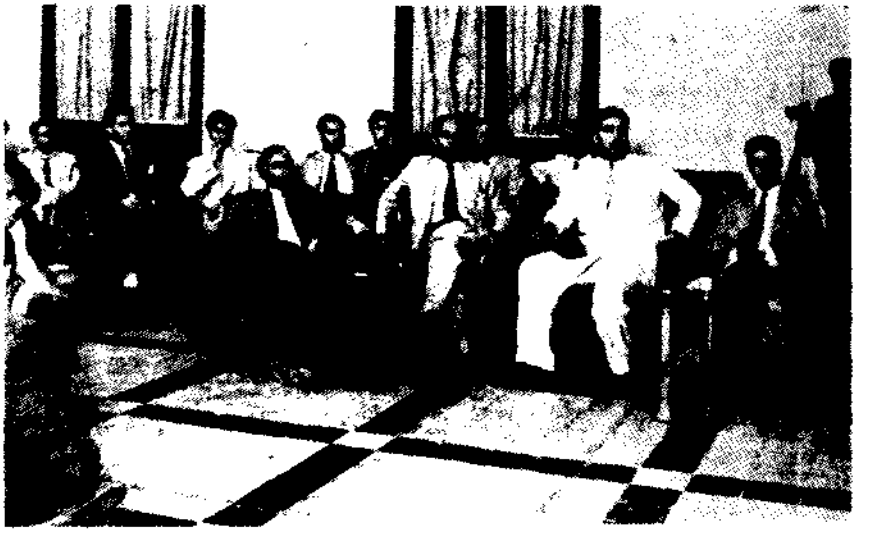

من اليسار ـ المؤلف ـ عبد الفتاح ابراهيم ـ سعد عمر ـ عبـــد الحميد كاظم وزير المعارف السابق وعميد دار المعلمين .

وقبل هذا الطالب ـ كما علمت ـ وكان في مقدمة المقبولين في البعثة ، وحدثني سعد عمر نفسه وكان مزهوا بعض الشيء ، بأنه قد وضع أسساً لن يستطيع وزير يأتي بعده أن يتجاهلها ليس في البعثة وحدها وانما في جهات أخرى ستضمن للمعارف بعد هذا سيراً يماشي الأهداف المطلوبة من الثقافة والتربية الحقة قليلاً ان لم يكن كثيراً .

وحين استقالت الوزارة وجاء خليل كنه وزيراً للمعارف عادت اللجان إلى سابق عهدها وصار لها وحدها الشأن الأكبر في اختيار طلاب البعثة .

وكان صالح جبر قد دخل وزارة السويدي وزيراً للداخلية ، وفي هذه السنة تم السماح بموافقة وزارة الداخلية لليهود بالهجرة من العراق ، وقد شاعت في ذلك الوقت شائعات كثيرة ملخصها أن رهطاً من حاشية صالح جبر بدأ يستغلّ هذا السماح لمصالحه الشخصية فكان يتقاضى من كل يهودي يريد الهجرة مبلغاً قدره ٣٠٠ دينار مقابل حصوله على موافقة وزير الداخلية .

وبلغت هذه الشائعة مسامع سعد عمر ، وسعد عمر هذا صديق حميم لصالح جبر فعزّ عليه أن يكون صالح جبر جسراً يعبر عليه العابرون في مثل هذه الامور الحقيرة لذلك قابل سعد عمر صالح جبر وأطلعه على ما يقول الناس عن حاشيته ، فأنكر صالح جبر أن يكون هذا الذي يقوله سعد قد حصل .

وقال لي سعد: اني ذكرت له أسماء الأشخاص الذين تلوك أسماءهم الأفواه ومن ضمنهم أصدقاء لي كان عزيزاً علي ذكر أسمائهم ولكن هذا ما كان شائعاً عنهم يومذاك وكانوا يقفون كل يوم بسياراتهم على أبواب وزارة الداخلية ، وقلت لصالح جبر فما شأن هؤلاء الواقفين على بابك إذن ؟

قال صالح جبر : انهم يقفون كما يقف النواب الآخرون متابعة لأشغال تخصهم او تخص مناطق انتخاباتهم .

وقال لي سعد : لقد قلت له: هكذا يقول الناس ان صدقاً وان كذبا ، فما اعتذارك من قول اذا قيلا ، ورحم الله من جبّ الغيبة عن نفسه .

قال سعد : وكنت أحسب ان النضج الخلقي والسياسي سيحمل صالح جبر أن يصرّ مقابلتي له في نفسه ولا يبيحها لأحد سواء اتخذ لنفسه الحيطة او لم يتخذ خصوصاً وان لي بين هؤلاء أصدقاء حميمين كما قلت فما هو موقفي معهم اذا علموا بأني أنا الذي وشيت بهم ؟ وحرضت صالح جبر عليهم ؟ ولكن ما مرّ على حديثي معه يومان حتى أعلن أولئك الحرب علي واتهموني بأني انما أردت بتحذيري ابعادهم عن صالح جبر فاضطررت ان أعترف لهم بما قلت وتقبلت نتيجة ذلك بكل جرأة وتحولت تلك الصداقة إلى عداء . وليت الأمر

قد وقف عند هذا الحد وانما شعرت بما يشبه التجهّم والاعراض من لدن صالح جبر ، فانقطعت عن مجلسه أياماً ، وفي هذه الأثناء فوجئت بعارض قلبي ألزمني الفراش ، وقد زارني الكثير من الأصدقاء والمعارف ، وتفقدني الكثير ممن كنت أعرف الا صالح جبر ، والا أولئك النفر الذين ذكرت لصالح جبر أسماءهم ، وكان صالح جبر يومذاك يغالي كثيراً في تفقد من يعرف ومن لا يعرف ، ويزور الأصحاب وغير الأصحاب في بيوتهم ليجمع حوله القلوب في مقابل نوري السعيد لأن الانشقاق السياسي بين صالح ونوري كان قد بدأ منذ ذلك التاريخ .

يقول سعد : لقد أحسست بأن صالح جبر يتعمد تجاهلي كما لو كنت شخصاً مهملاً لا شأن له في الحياة ، فكان لا بد لي أن أثأر لكرامتي بالانقطاع عن صالح جبر وحزبه ومجلسه فانقطعت .

وانتشر خبر انشقاق سعد عمر على صالح جبر وحزبه فراحت الاحزاب السياسية الاخرى تعرض عليه الانضمام اليها فلم يقبل ، وقد ذاكرني كامل الچادرچي مرة بصفتي صديقاً لسعد عمر بأن أحبب لسعد زيارته ، وكنت أكثر في تلك الأيام من زيارة كامل الچادرچي في بيته ، وكانت رابطتي به محدودة في نطاق لا يتجاوز حدود الادب والفن ولقد ظهر أثر هذا الاتصال فيما نشر كامل الچادرچي من مقالات أدبية في ملحق (الهاتف) الأدبي واشتراطه دخولي جمعية الصحافيين عضواً حين تم انتخابي وانتخابه عضوين في الجمعية وقد علق قبوله الدخول في العضوية التي تم انتخابه لهـــا على قبولي الدخول عضواً وكنت قد قدمت اعتذاري للجمعية عن القبول ، وهكذا تمت مزاملتي له مدة طويلة في جمعية الصحافيين العراقيين .

ونقلت لسعد رغبة الچادرچي وتمنياته ، فقال لي : أما زيارته فليس هنالك من مانع ، وأما الانتساب إلى حزبه فلا ، وأضاف قائلا : فأنا رجل أحب أن أكون بعيداً عن الاحزاب والتحزّب ، وأن أكون حراً في البرلمان أتقبل كل شيء أومن به وأرفض ما لا قناعة لي فيه ، والحق أنه ظل كذلك ولكن الكثير اعتبروه

من معارضي سياسة نوري السعيد وسياسة صالح جبر بصورة عامة ما حسن منها وما لم يحسن .

ولقد أخذت على سعد موقفاً لم أكتم مؤاخذتي حتى في جريدتي وهي أنه تناول ذات يوم الدكتور ضياء جعفر بالبرلمان – والدكتور ضياء جعفر كان غائبا حينذاك بلندن – فنسب له القيام – وهو وزير – بشركة وعمل تجاري في قضاء الصيرة ، وكان قد التبس على سعد الأمر بين ضياء جعفر الوزير الذي ليس له في هذه الشركة التي أشار اليها سعد في البرلمان يد بل ولا اصبع وبين أخيه محمد جواد جعفر وكان بين الاخوين ضياء ومحمد جواد شيء مستحكم من الاختلاف وسوء التفاهم ولكن هذا الاختلاف لم يحل بين محمد جواد جعفر وقول الحقيقة فقد انبرى إلى سعد يصحح له ما وقع فيه من خطأ ونشر هذا التصحيح في الهاتف ، ولما كنت أعلم أنا الاخر بما بين الاخوين ضياء ومحمد جواد من اختلاف وان محمد جواد هو الذي يزاول التجارة لا ضياء رددت على سعد في جريدتي رداً لينا وعاتبته على تسرعه في نسبة ما لم يقع من الدكتور ضياء جعفر الذي لم يكن يومذاك على صفاء مع سعد عمر . وقد اتضح لسعد عمر وقوعه في الخطأ ووعدني سعد بأن يصحح رأيه في البرلمان ويعترف بغفلته وتسرعه ، وكنت أعلم ان سعداً جريئ في قول الحق، ولكنه لم يفعل، أما هو فقد كان عذره أنه لم يجد المناسبة التي تتيح له التطرق إلى الموضوع مرة اخرى ليسحب كلمته معترفاً باشتباهه .

وتسنى له الاتصال بعد ذلك بكامل الچادرچي وآل هذا الاتصال إلى صداقة ومحبة ثم تحول بعد ذلك إلى جفاء او ما يشبه الكراهة بسبب الاتجاهات السياسية كما أظن ذلك لأني كنت قد انقطعت عن زيارة كامل الچادرچي في السنين الأخيرة ولم يتفق أن جرى حديث الچادرچي عند سعد لأسأله عن ذلك .

* * * *

ولسعد مزاج خاص ، وقد جعلت منه الصراحة عدواً للكثير من الأشياء وفي

نظر عارفيه، ومن ذلك كرههللرمزية والسريالية. وكانت هذه الاتجاهات من مزاجه مما تضاعف حبه لي أوافقته على الرأي أو لم أوافقه ؟ واتفق ذات يوم أن هاجم سعد السريالية وهو عند كامل الچادرچي وكان هناك باهر فائق وهو من محبي السريالية والذّابين عنها فردّ على سعد رداً عنيفاً لم يخل من مرارة وقال لسعد ان عداوتك للسريالية ناشئة من جهلك هذا الفن والا فليس هناك من العارفين من يجحد هذا العلم وقيمته ، وردّ سعد على باهر فائق ولكن رده لم يكن مجدياً فأصرها في نفسه وأضمر له الوقيعة .

من اليسار ـ المؤلف ـ سعد عمر ـ عبد الحميد كاظم أحد وزراء المعارف السابقين في مشية منسجمة

ولكامل الچادرچي ولع بالرسم الكلاسيكي أو الفن الواقعي يقتل بمزاولته أوقات فراغه فيرسم ما يخطر على باله من الصور والمناظر ثم يمسح ريشته بخرقة ما لبثت على مرور الايام أن عملت فيها الخطوط والنقط من مختلف الالوان التي تتركها الريشة عند المسح ما يحار القائل أن يقول في وصفها شيئاً .

وفي ذات يوم قال سعد لكامل الچادرچي: أريد منك أن تهب لي هذه الخرقة وتكتم أمرها عن باهر فائق فاني أنوي أن أثأر لنفسي منه ، واتفق سعد وكامل في نصب الشراك لباهر فائق، وأخذ سعد الخرقة وجاء بها الى مكوى كانت له به معرفة بسبب كي ملابسه عنده ، وطلب من المكوي أن يغسل له هذه الخرقة ثم ينشّيها بمادة النشاء ثم يكويها كيّاً جيداً ويقص له الزوائد من أطرافها حتى تبدو بشكل من الاشكال المربعة أو المستطيلة، وحين فعل هذا بعث به سعد الى الزجّاج ليعمل لها إطاراً فخماً من الخشب ثم جاء بها الى بيت كامل الچادرچي وقال له :

ــ والان فكل ما أبتغيه منك هو أن تعلق هذه اللوحة في غرفة الاستقبال حتى اذا صادف وجودي ووجود باهر فائق هنا ــ وكثيراً ما كان يحصل هذا ــ فمُرّ بحديثك على هذه اللوحة وانّ علي الباقي .

وحدث مثل هذا الاجتماع بين سعد وباهر بسهولة في بيت الچادرچي وتناول الحديث فيما تناول الرسم والرسامين السرياليين مرة أخرى فقال سعد :

ان هذه اللوحة ــ وأشار الى الخرقة المؤطّرة ــ كانت من المعروضات التي عرضت بمعرض دمشق الدولي وقد اشتراها صديق لي ظنني خطأً من هواة السريالية ولم يدر اني من الساخرين بها وأهداها لي، ولما كنت لم أفهمها فقد قدمتها بدوري للچادرچي فهي أجدر به مني لمعرفته بمذاهب المتفننين في الرسم .

فقال الچادرچي ــ ولكني أنا الاخر لم أفهم منها شيئاً ــ لقد قال ذلك بناء على ما تم الاتفاق بينه وبين سعد ــ

هنالك قام باهر فائق ، الى اللوحة وحدّق اليها بامعان متعمقاً ومذيباً كل حواسه فيها وهتف كمن ظفر بشيء ذي قيمة ــ على ما نقل لي سعد ــ وقال :
ــ انها قنبلة هوريشيما وهذه آثار تدميرها ! !

* * *

وانقطع عني سعد أياماً طويلة لا لشيء الا للانطواء الذي ركبه وحبّب اليه الابتعاد عن الناس لحد محدود فقلّ وجوده في غير غرفة المحامين وأمام المحاكم

محاميا، وقد عزّ على أصحابه أن يروا مجموعة من المواهب مجمدة لا حراك لها في وسط المجتمع ، وفي أحدى زياراته لي تناولت موضوع تصوفه وانطوائه على نفسه فوجدته متشائماً وكان يحاول أن يأتي بالبرهان على صحة رأيه في الحياة ، وكنت اظن أنه سيجابه الواقع ذات يوم فيصحح رأيه ويعود الى سالف عهده لأن سعداً منطقي ، واقعي ، في أقواله وأعماله كما أعرف ، ولكن سنين طويلة مرت وسعد كما هو لم يحد قيد شعرة عما كان قد صمم عليه من الانزواء فهو من المحكمة الى البيت ، ومن البيت الى بيوت عدد معين من الاصدقاء الذي يقطع أوقات فراغه بلعب الورق بعض الاحيان ، أقول بعض الأحيان لأن أكثر الاحيان يقتل فراغه بالمطالعة والقراءة .

لقد كان سعد كثير القراءة ، وقد انكب في السنين الأخيرة على كتابة مذكراته بحماس ووعدني أن يقرأني اياها في أول فرصة .

وتزوج سعد، وكنت أحسب أن هذا الزواج سيعيده الى حظيرة المجتمع عضواً لا تقف جهوده على ناحية واحدة وضمن حدود معينة ، ولكن سعداً ظل كما هو : قليل الاختلاط بالناس الا فيما يخص عمله بالمحاكم وبغرفة المحامين وببضعة أنفار من الناس اختارهم بناء على مزاج خاص وفلسفة معينة ، ولم ينجح في زواجه فطلّق زوجته بعد أن أنجب منها ابنة هي في العقد الثاني الان .

وكان يزورني في فترات تبعد بعض الاحيان وتقرب أحياناً أخرى فآنس به وباحاديثه وآرائه في حياة الناس وحياته نفسه على الرغم من نزوعه للانزواء المحدود، وكانت له آراء صائبة في مختلف الشؤون استمدها مما قرأ ويقرأ ، ويبدو لي انه اذا قرأ فانه يقرأ بامعان ، وقرائته اليومية في الغالب تتناول الصحف والمجلات ثم المذكرات والتراجم باللغة العربية، والانكليزية، وكتب الحقوق، التي تنزل حديثاً الى السوق ويفضل منها الانكليزية ، ولم يكن ميله الى الادب قليلاً ولكنه لم يعن منه الا بالنتاج الفخم من الشعر والنثر ، وكتـــابة المذكرات . زارني مرة وكان في مكتبي توفيق السمعاني صاحب جريدة الزمان المحتجبة وصبيح الغافقي الذي تربطه سعد مودة قديمة فذكّر السمعاني سعداً بما كان ينشر له في الزمان من مقالات

ويتابع أخباره يوم كان نائباً ووزيراً وقد أسف السمعاني لانقطاع سعد عن الكتابة فقال سعد : أما الكتابة فلم أنقطع عنها ولكنني انقطعت عن النشر ولكن لماذا لم تكتب أنت شيئاً يا توفيق ، فقال السمعاني :

ـ انني أعرف الشيء الكثير من تاريخ هذا البلد الاجتماعي والسياسي على الاخص ولربما سعيت للكتابة وسجلت ما وقفت عليه بنفسي من أمور قد لا تكون معروفة عند الآخرين .

وشجع سعد السمعاني على الكتابة وحثه باصرار ذاكراً له قيمة المذكرات العلمية في تاريخ المجتمع حين تعتمد هذه المذكرات الصدق والابتعاد عن الأنانية .

ثم دار الحديث حول أمور لم يوفق السمعاني ولا بعض التوفيق في تعليلها بل وحتى في روايتها وهي أمور كانت من البداهة بحيث لا تخفى حتى على الناشئين ! ! مما جعلت سعداً يغيّر رأيه في السمعاني الذي لم يكن قد خاض معه في حديث قبل هذا اليوم على ما يبدو .

وحين خرج سعد من مكتبي ووقفت عند الباب أودعه قال لي سعد : ـ قل للسمعاني : لا حاجة لأن تكتب لنا شيئاً ! !

* * *

ووصف لي سعد موقع بيته يوم كان يسكن (العيواضية) من بغداد قبل أن يبني بالمنصور وكان على موعد معي وهو يومذاك وزير للمعارف ولم يكن يساكنه في بيته هذا غير أمّه المريضة التي كان يعنى سعد بها من دون أخوته ، ورحت بمقتضى وصفه أجول بسيارة التكسي في الشوارع فلم أهتد الى البيت حتى اضطررت أن أصرف السيارة وأقوم بالبحث على قدمي مراعاة للاقتصاد .

وبعد ساعة وأنا أبحث وأسأل بسبب سوء الوصفة التي وصفها سعد لي اهتديت أخيراً الى البيت ، وكان الموقع مخالفاً كل المخالفة لوصفه فاحتججت عليه وآخذته مؤاخذة اختلط جدها بهزلها فقال سعد :

ـ لقد كان مثلي معك مثل ذلك الشرطي المصري (الكونستابل) حين توجه اليه شخص يسأله عن محل معين كان الشرطي يجهله ولكنه أبى أن يعترف له بجهله فقال له الشرطي : ـ ان عليك أن تركب الترامواي المرقم كذا والذي سيمرّ بعد قليل من هنا وسيحملك هذا الترام الى العتبة الخضراء ومن هناك عليك أن تنزل من هذا الترام لتركب الترام المرقم كذا ليحملك الى المحطة التي يجب أن تستقل فيها القطار لكي تصل الى مصر الجديدة وفي المحطة الرابعة بعد الجسر عليك أن تنزل وتأخذ الطريق الشمالي المرقم كذا وقبل نهاية هذا الطريق تُدر نصف دورة نحو اليمين وسر بضع خطوات وهناك ستعرف انك قد تُهت ، وحرك فاء الفعل بالضم ونطق بها (تُهت) على لغة المصريين . وقال سعد : والحمد لله على انني مع جهلي بحسن الوصف لم أدعك تتيه والدليل على ذلك اهتداؤك الى البيت .

* * * *

وفي أيامه الأخيرة كان يسعى للحصول على اجازة المحاماة في الكويت بناء على ما صار تحت يده من دعاوى تخص العراقيين هناك ، وفي شهر كانون الأول من سنة ٩٧٠ كنت مدعواً لزيارة الكويت من قبل الصديق السري الحاج زيد الكاظمي وقد استأذنته بالنزول في الفندق مبالغة في ضمان حريتي أكثر مما لو نزلت في بيته ، وفي أوتيل (فينيسيا) وجدت سعد عمر وهو الاخر قد حلّ فيه ليلاحق قضية الاجازة وليتفق مع أحد المحامين المجازين في الكويت بالدعاوى التي توكّل عنها سعد في العراق ، وكانت فرصة ثمينة ان نلتقي لنقضي أياماً وليالي معاً في مكان واحد .

وهناك في الفندق كان يحمل معه ما كتب من مذكرات ليلحق بها ما يجري على باله فدفع لي فصولاً منها لأقرأها قبل النوم ، ولقد قضيت مع هذه المذكرات

ليالي سعيدة . وأنا لأول مرة أقرأ مذكرات ليس فيها شيء اسمه : (أنا) المشتقة من الأنانية فهو لم يقل في مذكراته : أنا الذي قلت كذا وأنا الذي فعلت كذا ، وانما يقص عليك من أيام المدرسة مثلاً كيف كان الطلاب يتجمعون، وكيف كانوا يتظاهرون ؟ وكيف يقومون بتنفيذ خططهم . ومن هو المحرك والسبب في كل ما يحدث في البلد مما كان قد رآه . وهو يروي لك مثلا حادثة قتل عميد كلية الحقوق وجرح الدكتور محمود عزمي وانتحار الطالب الذي أقدم على اطلاق الرصاص على العميد المصري وما هي بواعث تلك الحركة وماذا خلفت في ميدان السياسة بين مصر والعراق — وقد كان سعد طالباً يومذاك في كلية الحقوق — وتمر في مذكراته بالكثير من الشؤون الاجتماعية والادبية التي كان سعد يعرف عنها شيئاً مصحوبة بعللها وبواعثها ونتائجها . وأحسب أن فائدة هذه المذكرات ستكون كبيرة اذا ما مثلت للطبع ذات يوم . ولا أدري أين بلغ منها وهل أتمها قبل وفاته أم بقيت حيث هي ؟

وكان فضل المصادفة التي جمعتني به كبيراً إذ لم يسبق على الرغم من كثرة ملتقانا ان طالت بنا المجالس كما طالت في الكويت ، فقد كان كلانا قليل المعرفة بالكويت وأهله وهذا ما كـــان يجعلنا نقضي أغلب أوقاتنا معاً سواء في الفندق أو في خارجه نهاراً وشطراً من الليل ، وقد علمت منه انه فووض بالتوكّل في دعوى تخص أحد العراقيين الذين كانوا يسكنون مدينة (حائل) وهو يهم بالسفر الى حائل لدرس القضية عن كثب ثم اقامة الدعوى لدى المحاكم السعودية اذا وجد في الدعوى ملمساً من الحق . ولكنه كان يشكو من العراقيل التي تصاحب من يتقدم بطلب السفر الى السعودية والحصول على التأشيرة اللازمة في غير أوقات الحج ، وأن عليه أن يتقدم بطلب السفر الى السفارة السعودية قبل مدة قد تطول على حصول الموافقة من مركز الحكومة في الرياض .

فقلت له : هناك في بغداد عراقي مولود بحائل وهو كثيراً ما سهل مهمة العراقيين في الحصول على التأشيرة من السفارة السعودية بسبب الدالة التي له على السفارة وهي الدالة التي اكتسبها باستقامته وشرفه التجاري المعروف في العراق وفي حائل فضلا عن كونه ينحدر من أسرة عريقة في النجف . فاذا ما عدنا الى بغداد سألنا عن هذا الرجل الباذل نفسه للمساعدة عسى أن تتسهل الأمور عن طريقه فتسافر الى (حائل) مجتازا عراقيل الروتين .

وفي بغداد زار سعد الوسيط وكان أن تم على يده اجتياز مشكلات الروتين بسهولة وسافر الى السعودية لدراسة قضية موكله قبل قبول التوكل فيها .

* * * *

وكان سعد يشكو اضطراباً وأوجاعاً تنتاب قلبه بين آونة وأخرى ، وذات ليلة ونحن على مائدة العشاء التي دعانا اليها الدكتور محمد مكية بمطعم فاروق بمناسبة مرور التاجر البحراني الوجيه صادق البحارنة ببغداد . قال لي سعد : اني أشعر باضطراب في قلبي فهل في وسعك أن تعدّ لي ضربات القلب عند الرسغ فمددت يدي وقبضت على نبضه ورحت أعد ضربات القلب فوجدتها ضعيفة وغير منتظمة تختفي أحياناً حتى تكاد لا تميزها وتظهر أحياناً أخرى كما لو كانت طبيعية ولكني لم أخبره بما أوحى لي نبضه بل بالعكس فقد ذكرت له بأني أعرف النبض جيداً لأنني منحدر من أسرة كان لها في التاريخ شأن في عالم الطب القديم ولها اليوم بعض الشأن في الطب الحديث لتخرج عدد كبير من أفرادها من كلية الطب ببغداد والجامعات في الخارج ، وأنا أؤكد لك أن ليس هناك شيء غير طبيعي ، فلم يناقشني سعد في هذا الادعاء ولم يقل لي أيجوز لأحد أن يدعي معرفة الطب لأن في أسرته بعض الاطباء ؟ بل قال لي وهو مبتهج : — الله يسمع منك .

وهي كلمة متعارفة تعني : حقّق الله ظنّك .

ولم تمر أيام قليلة بعد عودتنا من الكويت وعودته من السعودية حتى فوجئت بخبر نعيه في الصحف متوفىً بالعوارض القلبية .

وكان لهذا الخبر وقع أليم على نفسي فقد كان مزاجانا قريبين من بعضهما وكنت واجداً فيه الكثير مما لم أجده في غيره . وكنت أحس حين كنا نلتقي بأني واجد لديهما ينفّس عن نفسي كروبها . وكما هي عادتي في فراق الأحبة ظللت ماسكاً بيدي الجريدة والدموع تسيل من عيني متمثلاً سعداً في كل حركاته وسكناته ، رحمه الله لقد كانت فجيعتي به كبيرة وكانت وفاته في مايس ١٩٧١ مات وهو في ريعان الشباب . وذهب ولم تبق منه الا ذكرياته التي ستّرافقني الى الموت .

السيد عباس شبر

كيف عرفت

السيد عباس شبر

في أوائل الثلاثينات وأنا أصدر جريدة (الراعي) في النجف تلقيت في بريد البصرة قصيدة عامرة موقعة بتوقيع عباس شبر ؟ لقد كانت من أجود الشعر وأروعه ولكن صاحبها كان مجهولاً عندي برغم الشهرة التي تتمتع بها أسرته ، وعجبت كيف يكون شاعر مثل هذا مجهولاً لدي ولدى القراء ، ولكن ابراهيم الوائلي الاستاذ بجامعة بغداد اليوم وكان يومها يعمل في (الراعي) ويتردد على البصرة وما جاورها بين آونة وأخرى بحكم وجود أخواله – أزال عني هذه الدهشة حين أخبرني بأن الشاعر رجل روحاني ، والروحانيون يحجمون عن نشر نتاجهم الادبي بين الناس فكيف اذا كانت وسيلة النشر جريدة من الجرائد ، ذلك لأن الشعر كثيراً ما يطغى على الصفة الروحانية فيصرف الناس عن فهم متعاطيه ومزاوليه كفقهاء روحانيين بقدر ما يفهمونهم شعراء دنيويين . ولذلك كم خسرت الروحانية في النجف رجالاً من أولي الفكر والذوق والسليقة لمجرد تعلقهم بالشعر فأبعدتهم عن منصة الزعامة الروحانية بسبب قول الشعر .

ولكن هذا الروحاني – السيد عباس شبر – لماذا يطوّح بمركزه الديني ويقبل على الشعر وهو مراهق (للاجتهاد) على ما علمت ؟ ولماذا يدع الناس ينصرفون عنه؟ أو يقلّ اقبالهم عليه كعالم روحاني فقيه ؟ فقد بدأ يرسل (للراعي) بمقاطيع وقصائد من أجود الشعر وأروعه ، وبدأت أكثر من التعليق على شعره وتقديمه الى القراء

كشاعر من خيار الشعراء فيسهم في الاعجاب طائفة من أئمة الشعر كالشيخ عبد الحسين الحلي والشيخ جعفر نقدي وغيرهما وكان يجاريه بعضهم مباريا أمثال الشيخ محمد حسن حيدر خصوصاً في جريدة «الهاتف التي صدرت بعد اغلاق الحكومة جريدة(الراعي) ولم ينكشف لي السر الا حين أتيح لي أن أعرف السيد عباس شبر عن كثب ، والا حين علمت بأن هذا الرجل لم يفكر يوماً بالناس وتقاليدهم وبالامامة والزعامة الروحية كما كان يفكر بالواقع والحقيقة ، واللباب والجوهر ، فهو روحاني من حيث صفاء النفس ، وطهارة الضمير ، وحب الخير ، والعلم الوافر بالفقه والاصول والتشريع ، أقبل الناس منه ذلك أم لم يقبلوا ؟ وهو شاعر ، وظريف ، ولطيف المعشر . ما خلا مجلسه وحديثه يوماً من نكتة أدبية ، ونادرة مضحكة ، أو قصة تاريخية ، ولم يشاهد الا والابتسامة مطبوعة على شفتيه ، على أنه لم يخل محرابه من سجود وخشوع وتضرع الى الله ، ولا تعطل منبره عن الموعظة التي تجمع بين الدين والدنيا . بعيداً عن التزمت والعنجهية التي اشتهر بها معظم الروحانيين ، والعبوس الذي اتصف به الكثير منهم وعدّه من مستلزمات الروحانية ! ! ولم يكن له مأرب في دنياه الا أن يعيش على الفطرة ، وينطلق على السجية ، بعيداً عن الرياء ، ليس له من سمة الروحانية بعد العلم والحديث والمحبة غير عمة سوداء يعتمرها ، وغير لحية لا يدعها تتجاوز حدود السليقة والاعتدال .

وحان يوماً موسم احدى (الزيارات) التي يؤم الناس فيها النجف من مختلف المدن والاطراف فاذا بي وأنا بمكتبي في الجريدة أمام هذا الوجه الصبيح الضحوك ومعه أخوه السيد عبد الصاحب شبر الذي لا يقل بشراً عنه وبصحبتهما ابراهيم الواثلي يقول لي :

ــ لقد جئتك بمبحّيك السيد عباس شبر والسيد عبد الصاحب شبر ، وقد أحسست لأول مرة بصدري يكاد ينفجر سروراً بهذا اللقاء ، وأنا بعد لم أعرف السيد عباس الا شاعراً ومن فحول الشعراء . أما هذا الخلق الرضي والبشاشة الطافحة على الوجه فلم أكن قد خبرتهما بعد ، على أن الشعر أو أي أثر أدبي ربما صلح أن يكون دليلاً على ما تتمخض به نفوس أصحابه بعض الاحيان ، وكان يصحب الاخوين

مكتبة الجواد بن العلما
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني

حمّال يحمل صندوقاً كبيراً من التمور وفيه عشرات العلب المحشوة بالجوز من صنع شركة أصفر في البصرة ، وعلى الصندوق بطاقة باسم السيد عباس وفيها بيتان موجهان إلي بالكنية المألوفة عند الناس : بأن كل (جعفر) لا بد وأن تكون كنيته (أبا صادق) وذلك قبل أن يولد ابني (هاتف) الذي مات في السادسة أو السابعة ، وقبل أن أكنّى به ، ، أما البيتان فهما :

(أبا صادق) صدق المودة شـــافعي ... اذا أنا أهديت الذي ليس يحسب
فـــــان يحلُ في الافواه تمرٌ فـــانما ... ثناؤك أحلى في لســـاني وأطيب

وكما لفت شعره نظري لأول مرة في السابق الى شخصيته كشاعر مرموق فقد لفت الآن نظري حديثه الشهي المنمق بالشواهد والامثال كمحدث من المحدثين القليلين في عوالم هذا العصر ، فأنت لا تروي رواية ، ولا تحكي حكاية الا وتجد لها عنده من الشواهد الشعرية ، والتاريخية ، والأمثال ما يتممها ويزيدها شرحاً ووضوحاً ، ولأول مرة أشعر أيضاً بأني أمام قاموس عربي محيط لا من حيث اللغة والشعر والتاريخ فحسب وانما من حيث حسن السبك والبراعة في التصوير وحلاوة الكلام .

يا لله كم يسع صدر الانسان الصغير ؟ هذا رجل في الثلاثينات وقد حوى صدره ما حوى من الكثير من كتب الشعر والادب واللغة فكم ترى حوى من الفقه والحديث وعلم الكلام مما أعدّ نفسه له ؟ وزادت دهشتي حين علمت بأنه مراهق للاجتهاد ، ثم حصل بعد ذلك على درجة الاجتهاد من كبار فقهاء عصره كالسيد ابي الحسن ، والميرزا النائيني والامام كاشف الغطاء بصورة خاصة وهو لم يبلغ الاربعين بعد ! !

وفي هذه الأسرة أسرة آل شبّر نبغ غير واحد في التاريخ القديم والحديث ، ونال درجة (الاجتهاد) مبكراً ، ومن جملة هؤلاء كان جد الاسرة السيد عبدالله شبر الذي طبع له تفسير القرآن ، و (مصابيح الانوار) في الحديث ، وكتاب (الاخلاق) ولم يزل من آثاره الشيء الكثير مخطوطاً بعد وغير مطبوع ، ويعتبر السيد عبدالله الذي

عاش بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر اعجوبة من حيث ملائمة تواليفه لكثير من اتجاهات هذا العصر وخصوصاً في كتابه (الاخلاق) وقد حصل السيد عبدالله على درجة الاجتهاد وهو في العشرينات ! !

وقد رأيت للسيد عبدالله هذا دفتراً أشبه ما يكون بالمذكرات يسجل فيه أهم يومياته في فقرات تثير الدهشة بما تحتوي عليه من الغرائب ولا سيما ما يخص مستوى المعيشة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فكان يذكر مثلاً بأنه كان مديناً لفلان البقال بعملة تساوي اليوم عشرة أفلاس وقد وفاها اليوم والحمد لله ! !

ويقول انه اشترى حماراً بعملة تساوي اليوم نحو ١٨٠ فلساً ليمتطيه من الكاظمين الى كربلا ذهاباً وايابا بقصد (الزيارة) وباعه بعد العودة ، كما يذكر أنه اشترى عبداً بقطعتين من الذهب وأعتقه في سبيل الله .

وقد بدا لي من مذكراته انه كان يعنى عناية خاصة بشراء العبيد والاماء لغرض العتق فلا يكاد يمسك بالفلس الا وادخره لهذا الغرض وحمل (مقلّديه) والمؤتمين به على مثل هذا العمل واعتباره من أكثر الاعمال مثوبة عند الله ، وقد أدركت أنا نفسي في العشرينات من هذا القرن شيئاً من هذا الرخص فقد كان الكيلو من اللحم يساوي عشرين فلساً والرغيف الكبير من القمح يساوي فلساً واحداً .

* * *

ودعوت السيد عباس الى بيتي فلم يستجب ، والححت ، وألحّ ، وصاغ لي من الاعذار ما لا قبل لي برده ، ولم أعرف أن الرجل يبالغ كثيراً في رفع الكلفة عن الناس ويسعى لكيلا يكون سبباً من أسباب الازعاج إلا بعد سنوات حين تم له أن يزور النجف غير مرة فيعتذر عن اجابة الدعوة ، وحين علمت بالسبب استخدمت ما أملك من قوة وأقسمت بأني سأدعو معاون الشرطة الى البيت الذي ينزل فيه وهو بيت السيد علي شبر — وكان يعلم بما كان لي من الدالة على الحكام والشرطة

والادارة بسبب الصحافة – لأن يمنعه من الخروج من النجف ان لم يستجب دعوتي فنزل على رغبتي وهو يضحك لهذه الدعابة بعد أن اشترط علي بأن لا يكون شيء غير المألوف المعتاد من الطعام ! !

ودعوت طائفة من الاصدقاء معه وأنا فخور باكتشاف هذا الكنز من الخلق الرفيع وكانت ليلة من أعذب الليالي وأدسمها مائدة للشعر والأدب ، ثم ألفت بعد ذلك طريقة التهديد – ولو (بالدعابة) والقسم الغليظ في الزيارات التي كان يقوم بها السيد عباس من البصرة الى النجف وكربلا ، وعلى أني كنت أعاني الشيء الكثير من الضجر والالتماس حتى يتم لي حمله على قبول الدعوة فقد كان التهديد بالشرطة المصحوب بقسم التنفيذ – ولو بالمزح – مما يخفف لي هذا العناء بعض الشيء لا لأن السيد عباس كان يخاف الشرطة ، أو كان يظن أن بامكانهم الحيلولة دون حركته أو ارغامه على استجابة دعوتي ، وانما لأنه كان يتجنب الالتقاء بأية جهة حكومية وعلى الأخص الشرطة ، فعلى كثرة المتصرفين (المحافظين اليوم) الذين كانوا يتولون ادارة البصره ، وعلى كثرة حكام العدل الذين يجمعهم الأدب والشعر والظرف بالسيد عباس في بيته فانه كان يتجنب ردّ الزيارة لهم الا نادراً وفي بيوتهم دون مكاتبهم و (سراياتهم) وهو يشكر الله ان لم تضطره الاحوال الى دخول (السراي) شاكياً أو مشكواً منه ، ولم يكن يدري انه سيرغم ذات يوم بأن يقبل القضاء الشرعي ولا يكتفي حينذاك بدخوله (السراي) بل يقيم فيه والى ساعات متأخرة بعد انتهاء (الدوام) الرسمي ، ويظل هو يقلب الاضابير والدعاوى الى أن يكلّ ويتعب ، ولم يدر انه سيجيء يوم يبتليه الزمان بدعوى تقيمها امرأة تدعي بأنها أخت للسيد عباس شبر من أبيه وقد تزوج بأمها في احدى المدن وأولدها فهي لذلك تريد تثبيت النسب ولا شيء غير ذلك ، فيدخل السيد عباس شبر المحاكم مضطراً ويظل هذا ديدنه داخلاً للمحاكم وخارجاً منها الى أن ثبت للمحكمة بأن هذه المرأة سيئة السمعة وقد ولدت بموجب دفتر نفوسها الرسمي ببضع سنين بعد تاريخ وفاة والد السيد عباس شبر ، وهي تحمل دفتر نفوس آخر صادر من مدينة أخرى وبتاريخ ولادة أخرى وباسم أب غير

الأب الذي تدعيه فتحال قضيتها الى محاكم الجزاء ويثبت قيامها بالتزوير طمعاً بشهرة النسب وتحكم بثلاثة شهور من الحبس ، وتفر المرأة وزوجها ولم يعد السيد عباس يسمع بها كما لم يعد يدخل السراي .

ومن الانصاف أن نذكر أن السيد عباس قد دعا هذه المرأة قبل الرجوع الى المحاكم وسألها عما اذا كانت تبغي من وراء هذا الادعاء شيئاً من الربح المادي فهو مستعد للقيام به على رغم أن أباه لم يخلّف شيئاً ، وهو الآخر لا يملك شيئاً ؟ فتعوذت بالله وقالت : انما تريد أن تثبت للناس انها من أصل وفصل كما يقولون وانها شبّرية النسب وأخته لأبيه فقط . فقال لها : لقد مضت على ذلك سنين طويلة فأين كنت طوال هذه المدة ولم لم تراجعنا أمك أو تراجعينا أنت الا بعد أن تزوجت وولدت وأصبحت امرأة ؟

* * *

وتوثقت عرى الصداقة بيني وبينه ، وكثر نشري لرباعياته وقصائده في جريدة (الهاتف) ، وان النجف — كما يعلم الكثير — من البلدان القليلة التي لن يضيع فيها الشعر الجيد ، لذلك سرعان ما دار شعره في المجالس ، وأضاف الى سمعته كروحاني سمعة كريمة واسعة كشاعر من فحول الشعراء ، وأذكر أنه يوم انقطع عن الشعر وأصفى فترة طال أمدها سأل عنه الكثير من السائلين ، وكتبوا له كما كتبوا لي مستفسرين عن أسباب انقطاعه ، وما زلت به أشحذ منه قريحته بالحث واللوم والعتب ثلاث سنوات حتى ظهر علينا بأرجوزة في نحو ثلثماية بيت سماها (من وحي العزلة) كانت آية من آيات البلاغة في دنيا القريض وقد نشرتها الهاتف في عددها القصصي الخاص وعلقت عليها يومذاك بهذه الكلمة :

«هذه درة لامعة في تاج الشعر ، وقصة من أروع القصص الادبية تنسجها قريحة عالم فقيه ، وأديب كبير هو العلامة المعروف السيد عباس شبر ، فتصور نفسية شاعر يطلّق الشعر ويهجره ثلاث سنوات ثم يعاوده الشوق والحنين الى الحياة

الادبية ، فاذا بالخواطر تتزاحم في صدره ، واذا بالمعاني تتسابق في ذهنه ، واذا به يندفع الى الشعر بأرجوزة أقل ما يقال عنها أنها خير حجة لتنفيذ رأي من يزعم الفناء للشعر العراقي ، وأقل ما ينتظر لها هو أن يستظهرها الجميع حفظاً ، ويحتفظ بها رواة الشعر الجيد احتفاظاً —وهذا ما وقع بالفعل وتناقلها الكثير ، وأنشدت غير مرة في مجلس السيد علي بحر العلوم في النجف ، وهو مجلس يغص على الدوام بأهل العلم والادب ، كما أنشدت في مجلس الشيخ قاسم محي الدين عدة مرات— فهي قصة أدب لم يسمعنا أدباء الرجز نظيرها منذ قرون بعيدة ، نقول ذلك — على قول الهاتف — ونحن واثقون كل الوثوق بأن هناك من الادباء من سيقول فيهـــا أكثر مما قلنا — وقد قال فيها الادباء ذلك فعلاً ، ونشرت بعض أقوالهم وتعليقاتهم في الهاتف يومذاك — وحسبها على كبرها واتساع دائرتها : انك لا تجد فيها بيتاً نابياً ، ولا معنى مبتذلاً ، ولا كلمة واهية ، وهي أولى قصة واقعية من أدب القصص الحديث يخص شاعرها بها (الهاتف) فيخصه (الهاتف) بالشكر عنه وعن الادب الحي الرفيع »

ولما طبع ديوانه (جواهر وصور) وهو القسم المختص بالرباعيات والثنائيات من شعره اقترح الكثير وأنا في مقدمتهم وجوب الحاق هذه الارجوزة بهذه المجموعة وهي ارجوزة تمثل قصة عروسة شعره وكيفية ازدواجه بها ، وحكايته معها طوال عمره وكيفية اقدامه على طلاقها وما جرى من محاورة بينه وبينها في هذا الطلاق حتى تم بالرغم منه وبالرغم منها ، وظلت مطلّقة نحو ثلاث سنوات وهي مقيمة في بيته ، ثم تشرح القصة كيفية رجوع الشاعر إلى عروسة شعره المطلقة بعد ذلك الهجران الطويل.

وقد استجاب الشاعر لهذا الاقتراح ونشرت الارجوزة في آخر قسم الرباعيات من (جواهر وصور) وهو الديوان الذي لقي من النقاد الشيء الكثير من الثناء الذي نشرته الصحف العربية وعلى الاخص العراقية وأذكر من ذلك رأياً له قيمة جد كبيرة نشرته الصحف للشاعر الكبير الياس فرحات عن هذا الديوان ، وظلت بقية الرباعيات والثنائيات تنتظر صدور الجزء الثاني من (جواهر وصور) المخطوط كذلك ظلت القصائد الكبيرة تنتظر صدور ديوانه الذي سماه (بالموشور)

وكذلك كانت (الانفاس) ومجموعة في عدة أجزاء باسم (روائع الأدب) من آثاره ظلت مخطوطة تنتظر الظهور إلى حيز الطبع .

ولولا الالحاح الشديد من قبل المعجبين بشعره في الكثير من المدن العراقية ولا سيما النجف والبصرة وسوق الشيوخ والعمارة لبقي حتى الجزء الأول من (جواهر وصور) مخطوطاً او مخزوناً في بطون الكتب ، ولما أتيح له أن يخرج في مجموعة مستقلة بهذا الاسم .

ويوم استجاب لطلب أصدقائه وبعض المتصدين لنشر الديوان على حسابهم كتب لي يقول :

« ... ومنذ شهور تتوالى علي طلبات كثيرة من المعارف والأصدقاء من النجف وغيرها بنشر ديوان شعري ، وقد ذكر لي بعضهم بأن بعض الناس قد جمع ما نشر لي في الصحف جمعاً مشوشاً وسينشر على العلات ان لم ابادر أنا إلى نشره ، وهذا ما أثار اهتمامي . وأحرج موقفي ، ولم أجد بداً من أن أعدهم بالنشر ، وقد رجح عندي ان أقدم للنشر قسماً من الرباعيات ، والمثاني ، في مجموعة اعتبرها الجزء الأول أو الحلقة الاولى من ديواني ، وسوف أرسل المجموعة اليكم بعد الفراغ من تسويدها لتتفضلوا بكلمتكم حولها بعد النظر فيها وبعد ذلك نعرضها للنشر ان شاء الله ... »

والشعر طبيعة أصيلة عند السيد عباس شبر بل ان الشعر يكاد يكون طبيعة أصيلة عند هذه الاسرة على رغم اتجاه عمدائها الروحاني وتخصصهم بالعلوم الشرعية بحيث ان عدداً غير قليل منهم يشغل مكانة الامامة في بعض المدن كبغداد ، والنعمانية ، وخانقين وعلى رأس هذه الأسرة عميدها المجتهد الكبير وأحد أئمة الفقه المرموقين في الكويت السيد علي شبر ، وللخطيب المعروف السيد جواد شبر مكانة ممتازة بين خطباء المنابر الحسينية إلى جانب شاعريته وآثاره المطبوعة لا سيما الاجزاء الأربعة التي صدرت حتى اليوم من (أدب الطف) وهي سلسلة تتناول تراجم الشعراء الذين رثوا الحسين منذ استشهاده في القرن الأول

الهجري حتى القرن الرابع عشر وهو دائب على تتمة الأجزاء .

وخدمة الادب والفضيلة لم تقتصر على عمداء هذه الاسرة وانما شملت حتى التجار منهم ومن هؤلاء كان السيد هاشم شبر تاجر الاصباغ الذي طالما وضع جوائز مالية للفائزين في التأليف وقد حصل الاديب اللبناني سليمان كتاني ذات يوم على أربعماية دينار عن الجائزة الاولى لفوزه في احدى المسابقات الأدبية لذلك لم يستكثر على السيد عباس شبر أن ينبغ في الشعر كما نبغ في العلوم الروحانية وها هو ذا لا تكاد رسالة من رسائله تخلو من مناسبة لتضمينها بأبيات من شعره او شواهد من شعر الشعراء ، بل ما خليت بطاقة تهنئة بالعيد من بيت او بيتين كثيراً ما تضمنت بعض البديع من الجناس والتشابه والاستعارات الفنية ، ومن ذلك كانت احدى بطاقاته التي تلقيتها منه بعيد شوال والتي يقول فيها :

بارك الله لكـــم في عيد شوال السعيـــد
ان يوماً فيه يبـــدو وجهك الزاهر عيدي

ونظير هذه بطاقة تلقيتها في عيد آخر جاء بعد زيارته للنجف وبعد دعوتي له في بيتي يقول فيها :

أهنىء بالعيـــد من وجهـــه هو العيد لو لاح لي طالعا
وأدعو المهيمـــن جـــل اسمه بشمل يكون لنـــا جامعـــا

ومن أبدع الجناس وفن البديع في اللف والنشر قوله في احدى بطاقاته التي تحمل التهنئة بعيد الفطر من شوال قوله :

غرّد طـــير البشر لمـــا بـــدا هلال شوال بأفـــق السعود
فاسلم ودم واهنأ وعش وابتهج وافطر بعيد الفطر قلب الحسود

وما دمت في معرض الشعر والشاعرية فلا نقل هنا بعض ما أوردته عن شاعريته في مقدمة ديوانه (جواهر وصور) ففي هذه المقدمة التي تم نشرها في صدر الديوان جانب محسوس من طبيعة السيد عباس شبر وشاعريته واتجاهاته

في الشعر على الوجه الشامل ، فلقد قلت في بعض ما قلت عنه هناك :

اختلف المعرفون في تعريف الشاعر اختلافاً كبيراً ، فبعضهم ذهب إلى أن الشاعر هو قائل الشعر ، وراح يعرف الشعر بأنه الكلام المقفى الموزون ، وبعضهم قال عن الشاعر انه ذو الشعور المرهف الذي يتحسس بالحياة أكثر من غيره ، او الذي يجيد فهم الحياة ، ويحسن التعبير عن خوالج النفس وتصوير المحسوس تصويراً جميلاً رتيباً إلى غير ذلك من مختلف التعاريف والتعابير ، وسواء انطبقت هذه التعاريف على معنى الشاعر ومعنى الشعر ام لم تنطبق فان الحاجة اليها قليلة ، ان لم تكن معدومة ، ذلك لأن الشاعر معروف بالحس ، وملموس بالوجدان كما يعرف الماء بالحس ، وكما يلمس ويتذوق بالوجدان دون حاجة إلى تعريفه ، ووصف طعمه ، ويكفي أن يكون للقارىء او السامع سليقة تدلّه على مواطن الشاعرية ، وتعرفه بالشاعر سبق أم لم يسبق بتعريف من هذه التعاريف عن الشعر والشاعر والشاعرية لذلك حفظ الملايين من الناس الشعر عن طريق الذوق والسليقة ، وعرفوا الشاعر قبل أن يتعلموا القراءة والكتابة ، ولا أدل على ذلك من حفظ الاجيال العربية القديمة قبل الاسلام للشعر وهم أميّون لم يقرأوا ، ولم يكتبوا ، ولم يسمعوا شيئاً من تعريف او وصف للشعر وما ينبغي للشاعر أن يتصف به من صفات ، وما أصدق صاحب الرباعيات السيد عباس شبر اذ يقول بوصف الشعر في رباعيته التالية :

أفضل الشعر ما تحـــدّر عفواً ... وهو ريّان من نمير الشعور
ألقت النفس في معانيه نـــوراً ... وجلته الألفاظ (كالموشور)
كم لمسنا بالشعر قلب أديب ... وقرأناه من خلال السطـــور
صور أم عواطـــف تتنـــزّى ... خلّد القوم في سجل الدهور

فاذا صح هذا القول في الشعر والشاعر فأحسب ان قارىء رباعيات السيد عباس شبر في غنى عن أي تعريف لأية ناحية من نواحيه الأدبية اذا ما كان القارىء مطمئنا من حسن سليقته وذوقه ، ومع ذلك فأني أحس بدافع الشعور

باللذة ما يحملني على ان أسبق القارىء وأبادره ولو بمثل مختصر لتلك الشاعرية الفياضة وطبيعتها ومعناها ومغازيها قبل وقوفه على هذا الجانب من شعره في (جواهر وصور) وقبل استعراضه رباعياته ومثانيه ومثالثه بنفسه فيكون مثلي وأنا أعرض لجانب من شعر السيد عباس هذا كمثل الذين يريدون أن يكون لهم فضل السبق ولذته في التنبيه إلى فكرة ما ، وهذا كل ما يمكن أن أتذرع به حين أقف بالقارىء من شعر السيد عباس لأقول له بعض ما سيقوله هو حين يتم له ان يقرأ هذا الشعر اذا لم يكن مسبوقاً به ولم يقرأ جانباً منه في جريدة (الراعي) ثم (الهاتف) .

والسيد عباس شبر عالم فقيه ومن بيت علم وفقه — كما مرت الاشارة — وقد نشأ نشأة دينية ، وتثقف ثقافة على طراز الثقافة المألوفة عند الروحانيين في الأجيال الماضية من احاطة بالعلوم العربية وآدابها ، ودراسة عميقة لعلم المنطق والفلسفة الالهية ، ثم التمكن من الفقه والاصول فكان لا بد ان يتأثر ببيئته وبيئة أسرته ونوع الدراسة المألوفة ، فيأخذ شعره بطرف من كل ذلك ، وانّا لنلمس اتجاهه الديني بأسلوبه الخاص في كثير من مراحل شعره ، ونستنبط زهده وتقواه في الشيء الكثير من أبياته كقوله :

عرفت قيمة الحياة رجـــال ... تخذتها جسراً لدار الخلـــود
فاستراحت أفكارهـــا لرجـــاء ... يعصم النفس من قنوط الجحود
فوضت أمرها إلى باريء الأمر ... خضوعاً وآمنت بالـــوعـــود
ما سوى الدين في الحياة دليل ... ان تحيّرت في حدود الوجود

ومع هذه النشأة الدينية واتجاهه الروحاني فقد نشأ من أعدى أعداء المتلبسين بلباس الرياء ، والمتظاهرين بالتدين والتقوى تدليساً وقنصا لصيد ، وله شعر كثير في شجب مقاييس الناس وانخداعهم بالصور البراقة كقوله :

واذا أعوزتـــك بسطـــة علم ... فسيغني مكـــانها التدليـــس
قد نصحت الطاووس أن يتعرّى ... اذ تساوى الغراب والطاووس

وكقوله :

وقد كنت أحظى ببعض المنى لو أني تسربلت ثوب الرياء

وكقوله :

ان فينـــا غرائزاً لا القوانـــين عليها قضت ولا الاديـــان

وتغلب المجموع من مختلف الفلسفات التي أخذها عن اليونانية والعربية مما ترك الكندي وأبي حامد الغزالي وابن رشد وغيرهم إلى جانب إلمامه بالفلسفة الحديثة على كثير من شعره حتى يكاد لا يخلو الكثير من قصيده في الطبيعة او الادب من دليل ، او اشارة ، او تلميح لأثر من آثار الفلسفة العقلية ممزوجة بعاطفة شعرية مزجاً قوياً جاء على نسق شعر الفحول من الشعراء الحكماء المتقدمين كأبي العلاء المعري واضرابه ، وعلى نسج بعض الشعراء المتأخرين آناً اخر ، ومع ذلك فان لشعره طابعاً خاصاً به . ومعنى اذا اتفق مع أصول من تقدمه فقد يختلف معهم في الفروع وفي الأمثلة التي قد تعتبر نسيج وحدها ، وابتكارات هي من نحته الخاص ومن هذا اللون من الشعر قوله :

كيمياء الوجود كم فيك فكرنا وحارت عقولنـــا استغرابـــا
فتراب قد استحال عظامـــــاً وعظام قد استحالت ترابـــا
من لقوم تضاربوا في خبايـــا ضرب الله دونهـــن حجابا
فاستوى مخطئي على غير علم ومصيب لم يدر ان قد أصابا

وله الكثير مما يصلح ان يضرب به المثل كقاعدة من قواعد الحكمة وناموس من نواميس الحياة ومن ذلك قوله :

شرح الروض صدر من ليس يدري
أقلوبٌ أزهـــاره أم صـــدور ؟

وقوله :

رب قوم شادوا قصوراً وشيدت بعد حين منهم لقوم قصور

وقوله :

يتساوى عند (المحطّة) هذا الركب
مهما تمايزوا في (القطـــار)

وقوله :

فالمرء مرآة المحيط وطبعـــه كالماء يأخذ شكله من ظرفه

وغير هذا في شعره الكثير الكثير مما يصلح أن يتخذ مثلاً ، وهي مزية قل الذين امتازوا بها من شعراء العصر الحاضر ، ويستطيع القارىء بعد ذلك أن يلمس شاعريته في مواطن اخرى ليرى كيف يصوغ الفكرة صياغة الحاذق الماهر ، وكيف يدخلها إلى ذهن القارىء : رقيقة ، لطيفة ، حلوة ، حتى لقد يبلغ الحرص بالبعض أحياناً ان يتمنى لو استطاع أن يغلق عليها أبواب الذهن ونوافذه لئلا تهرب من ذهنه ولا أدل على ذلك من أخذه الأمثال المألوفة ، والأفكار المعروفة فيضفي عليها شيئاً من شاعريته ويخرجها مخرجاً فاتنا جذاباً على هذا النحو :

إن تقل لي لا تستمعْ فبامكاني ان لا أصغـــي لمن يتكلّـــمْ
او تحرّم نطقي فبالوسع أيضاً ان أردّ الكلام او أمسك الفمْ
وكذا إن اردت أغمضت عيني فكأني أصمّ ، أكمه ، أبكمْ
غير اني لا أستطيع التغـــابي أين من يستطيع أن لا يفهمْ ؟

وهذا معنى آخر معروف ، بل هو مثل يتداوله الكثير من الناس يأخذه السيد عباس شبر فلا يعمل فيه أكثر من أن ينفخ فيه شيئاً من روحه فيخرجه من ذهنه ليدخله إلى أذهان مستمعيه وقارئيه مثلاً حلواً جميلاً راسخاً في الذهن ، ثابتاً في النفس ، رامزاً إلى تلك الشاعرية المحبوكة الجذابة اذ يقول :

لك بيت حيطانه من زجـــاج شفّ عما تكن من أسرار
ان تكن مشفقاً عليه فلا ترم بيوت الجـــيران بالأحجـــار

وكثير غير هذا من الشواهد التي يلمس فيها القارىء عبقرية هذا الشاعر ومواطن تحليقه في سماء المعاني وآفاق الشعر .

هذه كلمة موجزة استخلصتها مما كتبته في مقدمة ديوانه : (جواهر وصور) وأنا أعرض لشاعريته وذلك بناء على رغبته التي تضمنها كتابه الذي جاء فيه :

« ... وان أهم ما يدعو للسرور في نشر هذا الجزء المتواضع من ديواني أمران هما : تحقيق رغبة الاخوان الاعزاء . وصدوره مقدماً بقلم أعزّ وأوفى أخ تلمست في اخائه المثالية النادرة . والوفاء الصادق، ليبقى طابع الاخاء والصداقة الوثيقة على الديوان ما دام باقياً بين الناس »

ولم يقف السيد عباس على المقدمة التي كتبتها والتي تسلمها الناشر مني قبل طبع الديوان وانما قرأها بعد صدور الديوان وطبعه ببيروت على يد الناشر الخطيب السيد جواد شبر . وحين تم له أن يرى ديوانه بعد الطبع ويقرأ المقدمة كتب لي فيما كتب يقول :

«.. ولقد لاحظت المقدمة ، وكانت غاية في الروعة بحيث أضفت على ما قدمته من الرباعيات جمالاً ساحراً . ولا شك أن الاخ الكريم انما استوحى هذه المقدمة من روح المودة والمحبة ، ولاحظها بعين اللطف والرضا . وليست لولا ذلك لتستحق هذا الاطراء ولا صاحبها ذلك الثناء »

والسيد عباس زاهد في حياته . بعيد عن حب الظهور لم أر واحداً مثله يتصبب عرقاً من الخجل عند سماعه اطراء الناس إياه حتى لطالما اعتذر ممن يتقدم اليه بطلب ترجمته أو نشر شعره . ويستبين القارىء ذلك مما كتب لي ذات يوم اذ يقول :

«... تلقيت قبل أسبوعين تقريباً كتاباً بعنوان (شعراؤنا المعاصرون) أهداه لي مؤلفه : غازي بن صديقنا الاستاذ عبد الحميد الكنيّن ، وقد ترجم فيه طائفة من شعراء العراق وذكر أن لهذا الجزء أجزاء تتلوه . وأعلن على غلافه الأيسر أنـــــه

سيصدر الجزء الثاني متضمنا تراجم جماعة عدّد أسماءهم وذكر اسمي بضمنهم، ولما كنت لا أرغب في الدخول بمثل هذه العوالم ولم يسبق لي ارسال أي ترجمة عني فقد تملكتني الحيرة فيما ينبغي أن أصنعه، فهل أكتب للمذكور أعني المؤلف أم لابيه صديقنا (كنّين) معتذراً راجياً صرفه عن ذكر ترجمتي ؟ أم أكلف أحداً بالكلام معه بهذا الخصوص وبأي طريقة أستطيع التملص من هذه الربقة ؟ رجائي أن يتحقق سيدي الاخ سراً عما اذا كان ما أعلن عنه المؤلف من اصدار الجزء الثاني في القريب حقاً ؟ واذا كان ذلك كذلك فليتفضل الاخ برأيه فيما يجب اتخاذه للتخلص والاعتذار بصورة لا تزعج صديقنا (كنّين) ولا ولده ...»

* * *

والمزايا التي اتصف بها السيد عباس شبر لم تقتصر على الشعر والأدب والفقه والإلآهيات ، وانما لخلقه الرفيع وما جبل عليه من الفضائل ما ترفعه الى مصاف الائمة في عالم الصفاء وطهارة النفس . والفقه ، وهذا ما يستدل عليه القارىء من سيرته مع الناس ، ومن آثاره الدالة على هذه الروح الانسانية العجيبة . ويكفي القارىء أن يرى كيف ينتقم السيد عباس شبر ممن يقلب له ظهر المجن ان أراد أن ينتقم منه ، فهو يقول وهو الصادق فيما يقول :

يا صديقاً محضته كل ودّي ... خدعتني ظواهر من صفاتك
خنت عهدي وكم حفظتك جهدي ... حسبك الفرق بين ذاتي وذاتك
حسناتي والله عندك كثر ... ولدي الكثير من سيّئاتك
ولعمري لتخسرن صديقاً ... لست تحظى بمثله في حياتك ! !

أجل حسب القارىء أن يقرأ هذه الرباعية ليقدر مدى ما يبلغه الخلق الرفيع بحيث يكون كل انتقام صاحبه ممن آذاه بتلك الأذايا غير المحصية مقابل تلك الحسنات غير المحصية أن يقول له : انك لم تحسن صنعاً لأنك خسرت صديقاً وفيا ؟!

وحسب القارىء أن يقرأ هذا البيت ليتعرف أكثر بخلق السيد عباس شبر

الذي يقول :

حسبي بـــأني ما تعمدت الأذى عمري ولم أحقد على مخلوق

ومن المزايا الخلقية التي اتصف بها السيد عباس بالاضافة الى حبه الخير والفضيلة ، واسداء الاحسان الى الناس وما عرف به من عفّة ومروءة وعدل : انه كان شديد الايمان بالله . صبوراً على المكاره . وقد مرت عليه شدائد سواء من الناحية المادية وضنك العيش ،أو المقدرات التي فجعته بأبويه ، ثم بأعز الناس اليه وهو أخوه السيد عبد الصاحب . ثم بابنه الذي كان يحكي أباه في الكثير من الصفات ، فما شكا السيد عباس ، وما جزع ، وما نقم على القضاء ، والقدر كما يعمل الكثير بل كانت دموعه مخفية ، وحرقته مستورة ، وحزنه مكبوتاً .

وكانت فجيعته بابنه نعيم الدين ممضّة . فقد كان أحب أبنائه اليه، وقد خيّره أبوه حين أنهى دراسته الثانوية بين أن يدخل احدى الكليات أو يتجه الى دراسة العلوم الشرعية سالكاً مسلك أبيه فاختار الروحانية لملائمتها لمزاجه فقد كان هادىء الطبع ، عفّ الضمير ، طيب النفس ، وأقبل على العلوم الشرعية إقبالاً عجيباً حتى اختير أن يتولى الامامة والارشاد في (الشعيبة) ولم يمهله (السرطان) أن يتم مهمته ويضاهي النابهين المتقدمين في العلوم الدينية بل توفاه الله وهو في الثالثة والثلاثين من العمر .

وكان حزن أبيه عليه كبيراً بالطبع ولكنه كان حزناً محفوفاً بالايمان والتسليم والصبر على الرزية لأنها اشاءة من اشاءآت الله وتقديره ، وقد كتب لي يومها رداً على تعزيتي له يقول :

«... وكم كان لتعزيتك في رسالتك التي وصلتني قبل أيام من أثر طيب على نفسي خففت عني حدّة الألم ، ولوعة الفجيعة ، وشدة الحزن ، الأمر الذي لم أكن أعرف له مثيلا طول حياتي على كثرة الرزايا والمصائب فانا لله وانا اليه راجعون ، ولا غرابة أيها الاخ الكريم وأنا الصلب العود أمام حوادث الدهر ان يداخلني هذا الحزن العظيم فقد كانت الفاجعة تستوجب كـــل ذلك ، لأن رزيتي كانت

بابني البكر أكبر أولادي وأدناهم الي ، وأعزّهم علي ، وأطوعهم لي ، وأسبقهم لرضاي ، وآثرهم عندي ، وأرجاهم للحاضر بمحضري ، وللمستقبل لغيبتي ، واني لا أستطيع أن أعدّد مزايا هذا الولد البرّ الذي عزّ نظيره ، فعظمت عليّ فجيعته وأقول اجمالاً غير مبالغ بأنه دخل الثالثة والثلاثين من عمره ولم يكدّر خاطري ولا مرة واحدة في صغره ولا عند كبره ، وكان حريصاً على راحتي أكثر من نفسي ، وكان ملاذ أخوته في حنوّه عليهم ، وتوجيههم بالحكمة الى حد بعيد ، مضافاً لما اتصف به من عفّة وإباء ، وصدق وذكاء ، وخلق رفيع ، وصبر نادر ، وقد دفعتني سورة المصيبة لرثائه بقصيدة من البحر الطويل بلغت ستين بيتا لعلها ترتفع بمستواها على رائعة ابي ذؤيب الهذلي ، ورائعتي ابن الرومي وأبي الحسن التهامي ، وستعدّ من محاسن شعري أو أحسنه على الاطلاق ..»

وقد القيت هذه القصيدة في الحفلة الاربعينية التي أقامتها مدينة البصرة للفقيد كما نشرت في صحف بغداد فكان لها أثر جد كبير في النفوس .

ولقد أحس الطبيب الانكليزي الذي أجرى عملية استئصال الورم السرطاني للسيد نعيم بلندن ، بمزايا هذا المريض الخلقية وآمن بقدسيته مما كان قد دار بينه وبين مريضه من حديث بالانكليزية التي كان يفهمها السيد نعيم فانجذب اليه وادرك أنه أمام شخص غير عادي فهو ـ اي الطبيب ـ فضلاً عن تنازله عن أجور العملية وإبائه الشديد عن استيفاء حتى مبلغ رمزي فقد كتب الى المستشفى لافتا نظره الى هذه القدسية وموصياً باجراء ما يمكن اجراؤه من تخفيض في أجور المستشفى تكريماً لهذا المريض القديس ، وقد وقع ذلك بالفعل ، وجرى له حسم خاص لم يجر لأحد من قبل ، وعاد معافى من لندن ، ولكن لم تمرّ سنة على ذلك حتى نبع هذا المرض من جديد وتوفي بمستشفى البصرة .

• • •

وأحست وزارة العدلية ذات يوم بضعف القضاء الشرعي في الحكم ، وكان على رأس وزارة العدلية يومذاك الحاج محمد حسن كبّة وهو من خيار رجال

القانون وقد شغل مناصب كبيرة في المحاكم المدنية قبل توليه الوزارة، فأراد أن يطعّم القضاء الشرعي بعناصر ذات كفاية كبيرة تكون قدوة للقضاء الشرعي فوقع اختياره على السيد عباس شبر . ولكن أين من يستطيع أن يخضع السيد عباس شبر لقبول منصب القضاء ؟ وهو رجل غني كل الغنى بزهده وقناعته ، وراض كل الرضا بعيشه وضنك حاله . وهو يعيش في بيت قديم من بيوت أوقاف الذرية. مترفعاً عن مغانم الدنيا ولذائذها وقد جاء وصف بيته هذا في بيتين كافيين لتصوير حياة هذا الرجل وما يملك من دنياه اذ يقول :

ترفعت عـــــن معروف حي وميّت فكل حطامي منزل – لأبي – وقف
فكـــــم ليلة للغيث بتّ مسهداً أحاذر أن يهوى على صبيّي السقف

وقد كان بيته هذا أكثر مما وصف من حيث القدم ، وقد نزلت أنا وأهل بيتي ضيوفاً عليه في هذا البيت في البصرة بناء على دعوة ملحة منه ورأيت بعيني هذا السجن المظلم الخرب ومع ذلك فلم أرث له ولم أشفق عليه لأنني وجدته قانعاً راضياً بهذه الحياة المفعمة بالزهد والبساطة ، ولا أحسب أنه كان يلذه شيء في الحياة كهذه اللذة ليسعى لتغييرها ولذلك رفض عرض وزارة العدلية بشيء كثير من الاباء . ولكن هذا الرفض لم يحمل وزير العدلية على اليأس فالتجأ الى الشيخ علي الشرقي ، وكان (الشرقي) صديقاً حميماً للسيد عباس شبر تجمعهما جامعة الشعر والمحبة منذ أن كان « الشرقي » قاضياً في البصرة ، ولكن الشرقي هو الاخر فشل في حمل السيد عباس شبر على اجابة طلب الوزارة ، بيد أنه أي الشرقي هدى الوزارة الى طريقة مضمونة النجاح وهي اللجوء الى الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغ ٰاء لكي يلزم السيد عباس شبر بالقبول من الوجهة الشرعية وكون الأمر مما تستدعيه الفروض الدينية لانعاش الأحكام الشرعية ومراعاة الفتاوى .

وهكذا فعل الوزير لائذاً بالامام كاشف الغطاء ، وهكذا حتّم الامام على السيد عباس شبر وجوب القبول ، ومع ذلك فلم يتّم خضوعه الا بعد أن صدر تأييد لهذا التحتّم من قبل السيد ابي الحسن الموسوي بضرورة وجود قاضٍ متبحّر في

الفقه بين القضاة ، فقبل السيد عباس القضاء مرغماً ، وكتب لي بعد قبوله القضاء يقول :

«... الان وقد بدأت أستيقظ كمن يستيقظ من غيبوبة عميقة حصلت من ارتجاج عنيف دامت أعراضه بضعة أشهر وكانت برزخاً بين الموت والحياة ، أجل بدأت أستيقظ ، وأحس بأني فارقت تلك الصومعة التي تلقيت بها وحي العزلة ، وكرست فيها للروح والفكر عشرين عاماً ، وكانت محطتي الارضية الأولى (لرحلتي السماوية) [1] الصومعة التي ما كنت أحلم بأني سأفارقها الا عند فراق الروح للجسد ، فتطفو تلك الى اعالي الفضاء ويرسب هذا حيث يشاء الله من أرض (النجف) وها أنا الان أفتح عيني واذا بي في هذه الغرفة الرائعة وعلى هذا الكرسي المستدير ، وأمامي هذه المنضدة الفخمة المكللة بالأوراق ، وأضابير الدعاوى ، أحقاً أنا في يقظة أم لا أزال في سورة الحلم ؟ أهكذا تشاء المقادير أن تزج بي من تلك العزلة الى صميم هذه الحياة الصاخبة . انها لطفرة عجيبة ما كانت تقوى عليها رجلاي لولا الله و (النجف) وبغداد ، طفرة أسخطت فريقاً ، وأرضت فريقاً ، وشاء الله أن أنقسم أنا أيضاً فروحي مع الفريق الاول ، وجسمي مع الفريق الثاني وما زال الصراع بينهما على قدم وساق حتى لقد أصبحت الروح برمة بهذا الجسم وكلاهما برمان بهذا الدهر القاسي الذي ألقح الفتنة بينهما وتركهما في خصومة مستمرة ، يحتج الجسم على ابنة الحرية (الروح) بأنه قد تنازل على حكمها

---

١ ــ والرحلة السماوية هذه التي يشير اليها هي ارجوزة شعرية تتضمن قيام الشاعر برحلة من الارض الى كواكب السماء والاستعداد لذلك من تهيئة الوسائل اللازمة باختراع مركبة توفر للانسان كل متطلباته الطبيعية من الجو المناسب والمقتضيات اللازمة لمثل هذه الرحلة وذلك قبل خبر اختراع الصواريخ والمركبات الفضائية بأكثر من ثلاثين سنة ، ويمر بمركبته هذه بالكواكب وينزل في كوكب (الشعرى) ويعتبره منزل الشعراء وتبدأ هناك مناقشته للشعراء وافكارهم من امثال البحتري وابي تمام والمتنبي والمعري وما اتصفوا به في اشعارهم في رحلة لا تشبه وصف ابن القارح في رسالة الغفران وقد بلغت هذه الارجوزة بضع مئات من الابيات ثم اهملها ولم يتمها بالرغم من الحاحي الشديد عليه وعسى ان يتهيأ لها من يبعثها مع ديوانه (الموشور) للنشر

وصبر على استبدادها زمناً طويلاً وهو لا يستطيع أن يفارقها حتى النهاية. وتزعم الروح أن الجسم خلق لها ولأجلها. ولا بد له من طاعتها والانقياد لها فيما تحب وتختار ، والقاضي بين طالب النفقة ومدعية النشوز يردّد قوله القديم :

حار عقلي مـــا بين جسمي وروحي ... حين أصغي اليه ثم اليهـــا
يدعي ذا بأنهـــا ضعضعتـــه ... وترى ذي ان عاد كلاً عليهـــا
ولكـــل شهود عـــدل وصدق ... ولديـــه وثـــائق ولديهـــا »

ولم يكتف السيد عباس بأن يجد روحه وحده معلقة بالصومعة وانما كان يرجو أن يكون غيره من الاصدقاء مترهبين مثله في محيط يشبه الدير في الخلو بالنفس ،ووسط مكتبة تعتبر من فرائد المكتبات بين المكتبات الخاصة، فحين صممت على الانتقال من النجف الى بغداد ومواصلة اصدار (الهاتف) هناك لم يتلق السيد عباس هذا التصميم مني بارتياح ، وكان من رأيه أن تبقى جريدة « الهاتف » في النجف ، وأن تعيش في صومعتها متسربلة بمسوح الرهبنة ، فقد كانت علاقته بالهاتف علاقة روحية طالما أشار اليها في رسائله حتى لقد كتب لي عن الهاتف مرة يقول :

« حقاً لقد أصبح يوم السبت أثيراً عندي ، جديراً بودي[1] يضفو عليه حبي ويهفو اليه لبّي ،فأتطلع طلوعه ، وأتوقع ان فارقني رجوعه ، ذلك لأن (الهاتف) الاغر قد عودني أن يطالعني فيه بما تدبجه يراعتك الحكيمة من بيان له تأثير السحر ، وفعل الرحيق المعسّل ، فلا أزال منه في حظوة المستعيد ونشوة المستزيد .

(حتى يخيـــل اني شـــارب ثمل ... بين الرياض وبين الكأس والوتر ..)

وقد عمل السيد عباس في القضاء الشرعي في مدينة البصرة ، والعمارة ، والكاظمين ، وبغداد، عملاً قلّ من عمل نظيره في هذا الحقل لا من حيث أحكامه التي طالما اتخذت نموذجاً في كثير من الحالات الشرعية المعقدة فحسب .

---

١ ـ ويوم السبت هو اليوم الذي يصل فيه الهاتف الى البصرة .

ولا من حيث سلامة هذه الأحكام من النقص فقط ، وانما من الدأب على العمل ، فقد كان يقضي ساعات طوالاً بعد انتهاء الدوام الرسمي وهو مكبّ على قراءة الدعاوى وفحصها وتدقيقها ، ولم يكتف بذلك بل كان كثيراً ما استصحب أضابير الدعاوى معه الى بيته ويقضي شطراً كبيراً من الليل بامعان النظر في وثائقها وشواهدها ومغازيها .

ولقد كتب لي مرة يعتذر عن تأخر كتابه لي قائلا :

«... بعد فراغي من هذه الاعمال المرهقة التي شغلتني عن كثير من واجبات اخواني فانها وان كانت ضمن ساعات خمس تدعى بساعات الدوام لتفيض في أكثر الأحيان ، فتستوعب معظم أوقاتي ، فهذه الاضابير والأوراق التي لا يتسع لها وقت الدوام . تسبقني الى المنزل ، وتنتظرني لمطالعتها في أوقات الراحة ، وان الأشغال في هذه الايام تفوق لكثرتها الوصف ، وأنا لا أعتمد في كل صغيرة وكبيرة منها الا على نفسي ، فأسأله سبحانه العصمة والتسديد ، والمعونة لي ولكم على ما ابتلانا به من خدمة هذا المجتمع . فهو تعالى وحده لا يضيع أجر من أحسن عملا ... »

والغريب أن مثل هذه الجهود لم تؤخذ بنظر الاعتبار من قبل السيد كامل المفتي وزير العدلية حين زار المحكمة الشرعية ببغداد صباح ذات يوم فلم يجد السيد عباس شبر حاضراً وكان السيد عباس قد بدأ يتأخر في الحضور في الصباح الباكر في تلك الايام بسبب انشغاله بتهيئة المقتضيات اللازمة لسفر ابنه السيد محمد نعيم الى لندن لاجراء العملية وكانت الأنظمة تفرض عليه مراجعة اللجنة الطبية والتحويل الخارجي وجوازات السفر ، فعاد وزير العدلية الى مكتبه ومن هناك أصدر أمره باحالة السيد عباس شبر على التقاعد (المعاش) .

أما السيد عباس فقد تلقى هذا الأمر بشيء كثير من الرضا وأبى أن يواجه الوزير أو أن يكلم عارفوه الوزارة بأعادة النظر ومعاتبة الوزارة على التسرع بل عدّ ذلك نعمة من نعم الله ، وقد كتب لي بعد أن غادر بغداد الى موطنه البصرة والى

نفس تلك الدار القديمة المتهدمة الخربة . لقد كتب لي من هناك يقول :

«... لقد فارقت بغداد مراحاً من معالجة مشكلات الناس وخصوماتهم . واستعراض مآسيهم التي ينتهي العمر ولا تنتهي . ومن منادمة الحق على كأسه المريرة في وسط لا يقيم له ولا لأهله وزناً . ولا يعرف لها قيمة ولا قدراً .

أجل لقد عدت من معالجة المشكلات العامة إلى معالجة المشكلات الخاصة بعد هذه الفترة المتعبة من العمر التي أتيح لي أن أرى فيها الواناً ، وأشكالاً ، وصوراً ، من حياة هذا المجتمع الصاخب . وأساهم بكل ما أوتيت من طاقة في معالجة مشكلاته — حد إمكاني — ولو قدر للشاعر البهاء زهير أن ينظر اليّ وأنا في غمرة هذه المجاهدة لما عداني قوله :

يا أيهـــا البـــاذل مجهوده ... في خدمة أف لهـــا خدمه
الى متى في تعب ضـــايع ... بدون هذا تؤكل اللقمـــه
تشقى ومن تشقى لـــه غافلٌ ... كأنك الراقص في الظلمـــه

وهذه أول رسالة أرسلها الى بغداد بعد أن فارقتها وهي لأول صديق تعرفت به كل ما للصداقة والاخاء من معنى رفيع ..»

* * *

وشدّني الى السيد عباس شبر اعجاب عميق بهذا الخلق الرفيع الذي يتمتع به ، والاباء الذي كان من أبرز صفاته . وكرم النفس الذي قل من تحلى به أمثاله في مثل هذه الايسام ، الى جانب هذا الفيض من الادب العالي والخبرة العلمية ، والاطلاع الوافي ، وكان يزورنا يوم كنا لا نزال في النجف ويوم تمّ انتقالنا الى بغداد ، واذا اتفق لنا أن يستجيب دعوتنا مرة فقد يعتذر عن الاستجابة مرات مبالغة في الحذر من أن يسبب لصديق كلفة أو يوجد له مضايقة ! !

واكم دعاني لزيارته وهو في البصرة قبل دخوله القضاء وبعد قبوله القضاء ثم دعاني الى العمارة ، مصرّاً ملحّاً مقسماً علي بأغلظ الايمان وكنت أعده بالاستجابة

وأبالغ في حذري ، فقد جربته غير مرة فلم أجد ما يشجع على استجابة دعوته لما كان يكلف نفسه من اعداد وسائل الراحة ويبالغ في دعوة الادباء والاصدقاء تكريماً لضيفه ، ويسخو سخاء جنونياً في سعة مائدته وألوانها . ولكنني كنت مضطراً لانتهاز بعض الفرص من الاعياد بصحبة أهل بيتي الذين صار لهم بأهل بيته اتصال روحي عميق لقضاء بعض الأيام مأنوسين بهم على رغم برمنا بما كانوا يكلفون أنفسهم من مشقة ، وينفقون من مجهود في سبيل راحتنا .

وقد كتب لي مرة وهو يومذاك قاضٍ في العمارة يشوقني الى زيارة ا.ـينة بمناسبة أحد الأعياد فيقول :

«.. هذا وكم كنت أود من صميم قلبي أن لو أنجز الاخ الكريم وعده السابق بتشريف هذا البلد بمناسبة هذا العيد السعيد فيكون عيداً بكل ما في الكلمة من معنى فإني ما زلت أطمع بوعده مهما تقدّمت به الايام والشهور والاعوام ، لاسيما وقد أصبح هذا البلد في هذه الآونة جديراً بالزيارة لتوجه العناية العمرانية اليه فقد أوشك تبليط الطريق بينه وبين البصرة أن يتم بعد أن تم جسره المعلّق العظيم المشرف على جانبي البلد ، وأخذت القصور طريقها بجانبه على ضفاف دجلة ، وهنالك منظر نهر الكحـــلاء الذي ترتمس الشمس طالعـــة وغاربة ، وتضفو عليه أشعتها الذهبية فتزيده حمرة لحمرته حتى يتراءى وكأنه شعلة من نار ، ويزعم (الحوماني) انه لم يشهد في جميع سياحته في الشرق والغرب منظراً أخذت روعته بمجامع قلبه كهذا المنظر ، وأذكر أنه اقترح علي تصويره عام ١٩٤٧ وأنا في العمارة فنظمت البيتين التاليين :

بعيني رأيت الشمس عند غروبهـــا ترفّ على (الكحلا) والماء كالذهبْ
فتهدي لهـــا كحلاً ، ي الليل ساحراً وتكحل جفنيها بميل من الـــذهبْ

وكان لهذا المنظر أثره في قصيدة تبلغ السبعين بيتاً نظمتها في سنة ١٩٤٧ وأرسلتها بوقته الى السيد محمد علي الكاظمي جواباً لقصيدته التي أرسلها الي .

وعلى كل حال فجمال المناظر في هـــذا البلد وان كان لا يعدّ شيئاً الى

جانب جمال مناظر بغداد ولكن هنالك شيئاً تفوق به هذه المناظر على تلك وهو سحر الهـــدوء ، ولسيدي الاخ في هذا البلد أخوان يشتاقون اليه ، ويسرهم جداً أن ينجز وعده الذي أبلغتهم به قبل مدة طويلة ، ولا أخاله يحتج علينا في هذا الوعد (بمرور الزمان) أو بكثرة المشاغل ، فان الاحتجاج بالاول لا يقرّه الشرع كما يقول المرحوم الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء في (تحرير المجلة) فان مرور الزمان لا يبطل حقاً ، ولا يحق باطلاً ، والاحتجاج بالمشاغل ينتفي بالمناسبات كأيام الاعياد التي اعتاد الناس فيها في عصرنا على السفر والاجتماع بالأصدقاء والاخوان ، ولقد كانت عطلة عيد الفطر فرصة مناسبة لأن تنجزوا بها الوعد السابق فتشرفوا العمارة ليسعد بكم الاخوان ، وما أجدرني حينئذ باستعراض بيتين في قصيدة نظمتها قبل نحو ثلاثين عاماً ولقد وجدتك أحق ممن قيلا فيه :

رمضـــــان قـــد خفّت به أضعـــانه وغداً يطلّ على الورى شوّالـــــــه
والعيد يـــــأبى أن يلـــوح لمجلسي الا بوجهك – ان قدمت – هلاله ..»

وبالطبع كنت أنزل على ارادته مرة وأعتذر مرات ، ولكنه كان يلاحقني في كل مناسبة ، ويستنجز مني مواعيدي الكثيرة الكثيرة ، ولقد كتب لي مرة بخصوص هذه المواعيد يقول :

مـــــــواعيدك لي بـــــــرق ومـــــن ذا يلحظ البرقـــــا
فهبنـــي صرت كموّنـــــاً بلا مـــــاء فكم أبقى ؟

واضطرتني مرة أعمال الجريدة يوم كنت أصدر (الهاتف) في النجف أن أمر بوكلاء الجريدة في كل مدينة مروراً خاطفاً ، وفي البصرة حاول السيد عباس شبر أن يستبقيني يومين أو ثلاثة فاعتذرت ولم أمكث غير يوم واحد، وعند مروري بمدينة الناصرية ألزمت من قبل عدد من الاخوان بأن أقضي أياماً بلغ خبرها السيد عباس فكتب لي من البصرة رسالة جاء في بعضها :

«... هذا وكم كان بودي أيها العزيز أن يطول ذلك الحلم القصير الذي

سمحت لي به الاقدار بعد تسويف ومطال، وطويل انتظار (ثم ما سلّم حتى ودّع) .

ناهيك حلما كان لمحة بارق من فرحتي بلقاه ما حققتـــه

وما أسعدني لو كان نصيب البصرة منه كنصيب أختها (الناصرية) التي عرفت كيف تأخذ عليه طريق الرجوع أياماً ، وعرفت كيف تتمثل بقول الطغرائي اذ يقول في حلمه الجميل :

(أطبقت أجفـــــاني عليه وسمته خوض الدموع فما استطاع عبورا)

واني لأتمنّى من صميم قلبي أن تكون هذه الزيارة القصيرة فاتحة لتزاور طويل، ومقدمة لاجتماعات تتكرر على مدى الايام ..»

ودعيت مرة من قبل الصديق الشيخ محمد حسن حيدر لزيارة مدينة (سوق الشيوخ) وبصحبتي الشاعر العالم السيد محمد جمال الهاشمي فنويت أن أنتهز هذه الفرصة فأضرب عشرين عصفوراً بحجر واحد لا عصفورين ، وأزور في طريقي بعض الأصدقاء في طريق الذهاب والاياب وأن أجعل البصرة ضمن المدن التي يجب أن أحظى بزيارتهـــا فكتبت للسيد عباس شبر بذلك كما كتبت للسيد عبد الوهاب الصافي قاضي البصرة يومذاك اذ لم يكن السيد عباس قد دخل القضاء بعد . ولم أكن أقدّر أن يتم استبقائي (بسوق الشيوخ) أطول ممـــا كنت أحسب ، فعدت ومعي السيد الهاشمي الى النجف دون أن تتسنّى لي زيارة البصرة، وكتبت للسيد عباس شبر معتذراً وحملت الشيخ محمدحسن حيدر والهاشمي على تأييد اعتذاري وطلب المغفرة ، فتلقيت من السيد عباس شبر رسالة جاء فيها :

«... تشرفت برسالة أخي الأعز مقترنة برسالتي الأخوين حيدر، والهاشمي، فكان سروري مضاعفاً وكبيراً بهذا الثالوث المقدس الموحّد بروح الصداقة الصادقة ، والأدب والنبل لولا ما تحققت في رسالتكم من حرماني من الاجتماع الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر ،وأعد الساعات شوقاً اليه منذ أخبرت بعزمكم على

زيارة البصرة ، ولست أدري ما هذا الحائل الذي قام في طريقكم ، وفلّ عزمكم على قرب (السوق) من (مدينة الخليل) وكم تمنى هذا العصيفير السجين أن يسعد بشظية من ذلك الحجر الكريم الذي استهدفتم به عشرين عصفوراً في آن واحد (على حد قولكم) ولكن شاء الحظ أن يكون كله نصيب (العصفور الحيدري) استغفر الله بل (الهزار الحيدري) الذي شغلكم عن بقية العصافير وشاء أن يحتبسكم عنا بسحره وأغاريده ، فيحظى ونحقق ، ويفوز ونخيب ، هكذا كان والحياة حظوظ . وهكذا كتب (لسوق الشيوخ) سوق الأدب الحاضر أن تتحدى بكم (سوق المربد) على أنها وان دالت أيامها ، وتقلّص ظلها ، وبارت بضائعها ، ومنيت بالكساد ، فقد كنتم لا تعدمون فيها ما يجتذب الزائر ، ويستوقف المسافر ، من آثارفيها روعة ومتعة لما تحمل من صور وذكريات، وقد عهدتك يا مثال الشمم ورمز النبل والادب : قوي الارادة ، صلب العزم ، ولا أدري من أين اتخذ التردد سبيله اليك ؟ أمن الاخ حيدر ؟ أم من السيد الهاشمي ؟ أم منهما معاً ؟ أم من غيرهما من اخواني المعممين سامحهم الله وسامحني ، وغذّى ارادتنا بلطف منه ورحمة. وأحسب أن الاستاذ الهاشمي لم يسبق له أن يزور البصرة ولو قدّر لها تشريفه بهذه الفرصة لأتحف الأدب وصحيفة (الهاتف) بما يوحيه اليه(شط العرب) الرائع بمنظره الساحر ، وجماله الفتان . ومدّه الهادىء ، ومدنه العائمة ، وضفافه الخضر . وغاباته الفسيح ، وهل لهذا الجمال من ترجمان غير (جمال) ؟ واني لآسف جداً على حرماني وضياع هذه الفرصة الثمينة . وأتمنى أن لا تقاطعوا البصرة مـــا عودتموها من زيارتكم عند سنوح الفرصة .»

وذكر اسم (شط العرب) يذكرني بأبيات للسيد عباس شبر (بشط العرب) وهو الشط العظيم الذي يقرن اسمه باسم (البصرة) يقول فيها :

يســـا ويح شطّ للعرب منتسب ولا يراعي الاماجد العربـــا
حسبك يـــا شطّ سبّة ظمـــأ الاهل وريّ الأعداء والغربـــا

* * * *

ولم يمرّ يوم حتى يزداد تعلقي بالسيد عباس شبر لفرط ما أراني من المودة ،وما غمرني به من العواطف الغالية حتى كاد أي فراغ في قلبي يضيق عن استيعاب محبة الآخرين من الاصدقاء الصادقين ، وان السر كله لكامن في صدق عواطفه ، وظاهر في اشراقة أدبه الرفيع الذي يحسن به الاعراب عن خواطره وأفكاره ، وعواطفه، بصدق واخلاص، ولطالما تلطف علي بتلك المحبة التي أنعشت روحي ، وكشفت الغم عن نفسي ، وأشعرتني بما في الادب من بعض مزاياه نشوة القلب ، ويقظة الروح ، ولم أزل أذكر بين التعازي الكثيرة التي تلقيتها بوفاة ابني الوحيد (هاتف) الذي سميته باسم الجريدة ، أقول لم أزل أذكر من بين التعازي تعزية السيد عباس شبر التي يقول فيها :

« بالاسف الشديد تلقيت النبأ المحزن ، وناهيك نبأ عزّ عليّ سمعه ، وأثّر في صميم قلبي وقعه ،فطوى الضلوع ، واستدر الدموع ، فواحسرتاه .

هلال أيام مضى لم يستدر ... بدراً ولم يمهل لوقت سرار
عجل الخسوف عليه قبل أوانه ... فمحاه قبل مظنّة الابدار
فاستُل من أترابه ولداته ... كالمقلة أستُلّت من الاشفار

انا لله وانا اليه راجعون ، قضاء نافذ ، وحكم شامل حتى هان ، وخشي حتى لان ، وما عمدت الاقدار الى استنزاف مدمع ، ولا ارادت الايام ايلام موجع ، وانما هي سنة الخلق : كون يليه زوال ، وعقد يسبقه انحلال ، وان لكل شيء أجلاً موقوتاً ، وان لكل أجل سبباً مقدوراً ، وان الانسان لفي كل ذلك شاهد سمع وعيان ، وليس في وسعه أن يستردّ ماضياً ، أو يردّ آتياً ، أعزيك أيها العزيز واللوعة تغالبني على العزاء من كبد حرّى ، ومقلة عبرى .

ولم تر عيني كالصغار مصابهم ... يقلّب أكباد الكبار على الجمر
فلا تبك مفقوداً إلى ربه مضى ... سعيداً بلا ذنب عليه ولا وزر

وانك لجدّ خبير بأن شوائب الدهر لا تدفع الا بعزائم الصبر ، فاجعل بينك وبين هذه اللوعة الغالية . والدمعة الساكبة . حاجباً من فضلك ونبلك ، وحاجزاً من علمك ويقينك :

تعزّ فان الصبر بـــالحرّ أجمل وليس على ريب الزمان معوّل
قضى الله أن لا يسبق الحي حتفه وما لأمرىء عما قضى الله مرجل

فالقضاء لا يرد . والمتطلع للفائت دائم الكمد . وأن الخطوب لهي هي ، وانما تتفاوت بنسبة الجلد :

وان الحصى عند الجزوع ثقيلة وضخم الصفا عند الصبور خفيف

والله سبحانه أسأل بضراعة المتبتّل : أن يلهمك الصبر ، ويجزل لك الأجر . وأن يجبر هذا الصدع . ويعوضك عمن اختاره لك فرطا . ولا يريك بعد مكروها » .

وما من مناسبة مرت ولم أكن قد حظيت فيها منه بشيء من متعة الادب وسعدت بشيء جديد من اللطف والكرم . فلقد كان الكرم من بعض مظاهر نسبه الهاشمي الشريف . وقد أهدى له مرّة أحد مخلصيه في الهند والمؤتمين به صندوقاً من مختلف العطور الهندية يحتوي على ٢٤ قنينة من أنفس طيب الهند وأجوده فحوّلها برمتها الي قبل أن يفتح الصندوق . وأرسلها لي من البصرة مصحوبة بهذين البيتين :

لمثـــال الوفـــاء والهمة القعســـاء واللطف والحجى والابـــاء
جعفر المكرمـــات أهدي عطوراً رمز أخلاقـــه وطيب الثنـــاء

وندر أن تخلو رسائله من الثناء الذي يدعوه كرمه الى اغداقه علي بدون استحقاق لأنها عواطف شاعر . وكرم هاشمي . ونبل صديق وفي ، تنثر وتنتظم في سطور وأبيات تعكس جانباً من الأدب الرفيع . والخلق الكريم الذي يتلمس القارىء صدقه وروعته في كل سطر وفي كل قافية ، ومن ذلك قوله في احدى رسائله :

خذ من ثناي عليك ما أسطيعه لا تلزمنّي في الثناء الواجبـــا

فلقد دهشت لما فعلت ودونـــــه ما يدهش الملَكَ الحفيظ الكاتبا

وقوله في رسالة أخرى :

لئن سمحت بزورتك الليـــالي وأعهدهـــــا بحاجاتي تشحّ
لاغتفرنّ ما أخذتـــــــه مني يد الايام والحسنات تمحو ...

وذات مرة الزمني الفراش وعكة اياماً فبلغه خبر مرضي فكتب لي يقول :

عـــــداك الى اعـــاديك السقام وجافى من يجافيك المنـــــام
ولا برحت بك الايـــام تزهو (كأنك في فم الزمن ابتســـام)
تضوّع خلقك المعطـــار فيهـــا فعنه الرند يـــروي والبشـــــام
عواطف دونهـــــا نشر الخزامى وأخلاق تقول : أنـــــا المدام
أعيذك مـــــن مخاتلة الليـــالي بعين للمهيمـــن لا تنـــــام

وكثيرة هي الرسائل التي تتضمن أبرع الشواهد والنكت في أدب المناسبات والمشحونة بأنواع البديع والجناس من شعره المرسل على سجيته . فهو نسيج وحده من حيث هذا اللون من الابتكار والبراعة في التصوير نثراً ونظماً على الخصوص .

* * *

وورثت زوجته مبلغاً من حيث لا تحتسب . فصمم السيد عباس على أن يبني لأولاده داراً بالمبلغ تضمن لهم الاستقرار بعد أن كادت دار الوقف أن تسقط عليهم غير مرة . وراح يسأل هذا وذاك عن كيفية انجاز هذا العمل فقيل له ان خير الامور هو انيعهد بالأمر الى أحد المتعهدين المؤتمنين ويعقد معه عقداً يتضمن الشروط المطلوبة لقيام هذه الدار ، ولكن من هو هذا المتعهد المؤتمن ومن أين يجيء به ؟ فقد حذّروه من معظمهم . وأوصوه بالتأني حتى يقع على من تتوفر فيهالشروط . لذلك تأجل البناء مدة غير قصيرة .

وفي هذه الأثناء وجد الشخص المطلوب فقد كان هناك من كان أول الحاضرين لمجلس الوعظ . وأول المؤتمين بالصلاة خلف السيد عباس شبر . فلم

يدخل السيد عباس شبر المسجد الا وكان هذا الرجل قد سبقه اليه ، ولم يرق المنبر للوعظ الا وكان هذا المتعهد في مقدمة المتحلقين حول المنبر وأقربهم الى السيد عباس شبر .

وذات يوم أبدى هذا المتعهد رغبته في القيام بمهمة بناء الدار تقرباً الى الله في مثل هذه الخدمة التي لا يبتغي منها الا أن يكون له أقل ما يكون للمتعهدين من المنافع . ففرح السيد عباس واعتقد انها العناية السماوية التي جاء بها التأني والصبر الذي أشير به عليه فأي شخص أكثر توثيقاً له من رجل كاد أن يكون حمامة المسجد ؟

ورحب السيد عباس بالفكرة وعهد للرجل بأن يحسب حسابه ، ويطلب المبلغ اللازم لكلفة البناء وأجور عمله كمتعهد ،وسرعان ما شرع بالعمل، ولاطمينان السيد عباس بالرجل وتوثقه من دينه وتقواه دفع له المبلغ المحسوب كله مقدماً . ولكن البناء لم يكد ينهض حتى ترك الرجل البناء مدعياً الخسارة وترك معه الصلاة ولم يعد يراه أحد ! !

تذكرني قصة هذا المتعهد بقصة تشابهها وقعت في أيام الاحتلال الانكليزي للعراق وهي أن الانكليز حين قبضوا على زعماء ثورة النجف سنة ١٩١٨ التي كان يراد بها الثورة الكبرى في وجه الانكليز فلم تفلح اذ تداركها الانكليز بسرعة وأعدموا رؤساء الثورة بعد محاكمة عسكرية سريعة جرت في (الكوفة) والتي صودر فيها بعض ممتلكات الثوار .

وكان من هؤلاء المشنوقين الثائر المعروف : كاظم صبتي ، وقد استولت السلطة على داره في النجف وكانت أعمر دار وأفخمها في المدينة كلها لما كان قد أنفق عليها مالكها الاول الحاج سليمان مرزه وما أجرى فيها من الزخرفة والتزجيج والريازة ثم آلت الى كاظم صبي شراء وقد تملكتها السلطة الانكليزية بعد اعدام كاظم صبي واتخذتها منزلاً لموظفيها الهنود الذين سكنوا فيها .

وفكر المدعو سعيد الحار وهو صهر المشنوق كاظم صبي وكان قد عاد من منفاه

مع من عاد، وعددهم ماية وخمسة منفيين الذين سلمُوا من الاعدام واكتفي بنفيهم الى (سمرپور) في الهند ، لقد فكر سعيد الحار في كيفية تخليص هذه الدار واخراج هؤلاء الموظفين منها، لقد فكّر طويلاً . وبعد أن أعمل فكره — وسعيد هذا كما عرفته ذكي فطن الى جانب ما كان قد اشتهر به من الشجاعة— اهتدى الى أن الطريق للخلاص منحصر (بالعلاّمة) .

و (العلاّمة) هذا من رجال الدين البارزين الذين أيّدوا الاحتلال الانگليزي فسقط من الاعتبار هو وثلاثة من العلماء الاخرين فسماهم الناس بعلماء (الاوفيس) أي علماء (السراي) وقد أسف عارفو العلامة وعارفو فضله لانحرافه وسقطته بعد أن كان من أبرز الفقهاء .

وكيفما كان الأمر فقد كانت للعلاّمة حظوة كبيرة، وكلمة مسموعة عند الانگليز . رأى (سعيد الحار) أن يستخدمها بأكبر قدر ممكن لانقاذ الدار من السلطة الانگليزية فكان ان عمد أول ما عمد الى التزام الصلاة خلف (العلاّمة) فلا يكاد ينتهي من الصلاة حتّى يخف فيأخذ بيد (العلامة) ويقبلها ويمسح بها عينيه تبركاً وحتّى صار هذا ديدنه بعد كل صلاة ظهراً وعصراً ومغرباً وعشاء . وأصبح وجهه مألوفاً عند العلاّمة كرجل من الأتقياء البررة وان شئت فقل مـــــن الابدال .

وفي كل صباح من يوم الجمعة كان (العلاّمة) ، يعقد في بيته مجلساً يحضره الكثير من أصدقائه وأصحابه ويختمه بقراءة مأتم الحسين يقوم بها أحد خطباء المنابر الحسينية ، وكان سعيد الحار يحضر هذا المجلس ولا يكتفي بالحضور بل يتصدى للخدمة من تقديم السكاير والماء وما يتطلب الحضار كما لو كان خادم العلاّمة الخاص حتّى أصبح من أقرب المقربين الى العلامة وخدامه .

وذات يوم وقد فرغ مجلس (العلاّمة) من الزوار دنا سعيد الحار من العلاّمة وبعد تقبيل يده قال :

انني أرى أن هذا البيت الذي تقيم فيه وتستقبل هذه الجمهرة من الوجوه —

ـ وقد كان بيت العلامة من بيوت الايجار اذ لم يكن من السعة بحيث يملك بيتاً ـ لا يلائم بأي وجـــه من الوجوه منزلتك في المجتمع فضلاً عن أنه يكاد لا يفي بحاجة سكانه . وإن لصهري بيتاً هو الان تحت تصرف السلطة الانكليزية . فما ضرك لو توسطت لاستخلاصه لنا باعتبار وريثه طفلاً يتيماً لم يبق له بعد اعدام أبيه ما يعول عليه . وسنتنازل لك عن سكناه مدى العمر مجاناً وتتخلص بذلك من هذا البيت الذي تسكنه وتتخلص من نفقات الايجار .

وهنا أبدى العلاّمة ارتياحه في حل مشكلة لم يمرّ حلها على بال وسرعان ماتوسط لدى الحاكم الانكليزي باسم اليتـــيم وطلب أن يعيدوا البيت الى أهله . وكتب الحاكم الانكليزي في النجف الى الحاكم العام ببغداد وفي خلال أيام قليلة صدر الأمر باخراج الموظفين من البيت وتسليمه الى أهله .

وجاء الحمّالون يحملون أثاث بيت العلامة الى البيت الجديد حسب الاتفاق الجاري بين سعيد الحار والعلا ّ فلم يكن من سعيد الحار الا أن أغلق الباب في وجوههم وطردهم ! ! وأنكر ... الاصدقاء على سعيد الحار فعله فرد ّ سعيد عليه قائلاً :

ـ أترى انني قد تحمّلت كل هـــذه المشقة حتى تقوس ظهري من كثرة الركوع والسجود وأنا أسبّح الله : سبحان ربي العظيم وبحمده . وسبحان ربي الأعلى وبحمده . عشرات المرات في كل صلاة حتى كادت تنفصم فقرات ظهري . أترى أنني فعلت كل هذا . ووقفت كالخادم في بيت العلامة أقدم الماء والقهوة والسكاير لزواره من أجل أن أخرج الانكليز من البيت وأسكن فيه مؤيديهم ؟ ألا ما أشد غباوتي وحماقتي ان كنت فعلت ذلك لذلك .

* * * *

جاءني ذات يوم الدكتور اسماعيل ناجي يسألني : ما الذي يجب علي أن أفعل حتى أكون شيعياً بصورة رسمية لأمر يتعلق بميراث ابنتي الوحيدة . قلت اني مثلك لا أعرف المقتضيات اللازمة لذلك وانما علينا أن نرجع الى القاضي الجعفري

وكان السيد عباس شبر يومذاك قاضيا ببغداد . فقال لي الدكتور اسماعيل أفلا تحذر من السيد عباس شبر في أن يضع في طريقنا بعض العوائق بالنظر لما هو معروف به من تمسكه بالأصول وتقواه وحذره الشديد في أحكامه، فقلت له : كل هذا صحيح ولكن السيد عباس أكثر من يعنى باللبّ ونبذ القشور فتعال الان لنرى .

وسأل الدكتور اسماعيل السيد عباس قائلاً : أنا رجل سنّي فما الذي يترتب علي القيام به لكي أصبح شيعياً ؟

فضحك السيد عباس وقال له :

ــ ما الذي كنت تعمل لو أردت أن تنقل سكناك من محلة الى محلة اخرى؟

قال ــ كنت أطلب من مديرية النفوس أن تنقل اسمي من هذه المحلة الى المحلة الأخرى .

فقال السيد عباس ــ وهذا هو كل ما يطلب منك ولا شيء آخر مما يظنه المتزمتون .

ويلمس عارفو السيد عباس في سيرته الكثير من السماحة ، والرقة ، والدماثة ، كما تبدو منه بعض الاحيان غضبة وان لم تتجاوز حدود الساعة فانها لتتنافى وما عرف به من السماحة والرضا والغفران . وهي غضبة خاصة قد يحكيها بيت من الشعر أو كلمة يرسلها في مجلس صديق ، أو احتجاج بريء .

وأذكر أن نزار قباني حين القى قصيدته في مؤتمر الادباء ببغداد وجاء فيها :

« وجراح الحسين بعض جراحـــي وبصدري من الاسى كربلاء »

غضب السيد عباس أن يجد القباني مستهيناً بجراح الحسين التي لم تبلغ نظيرها جراح في التاريخ فأنشدني ثلاثة أبيات وقال لي وأنا أهم بالسفر الى لبنان : انهـــا وديعة لكي توصلها الى نزار قباني وحذار أن تنشر في صحيفة لأنها ان نشرت فلا تفسير لها غير التنديد وأنا لا أريد التنديد بهذا الشاعر وانما أريد أن أوصل اليه احتجاجي وغضبتي .

وعلى اني زرت لبنان غير مرة ولكن الظروف حالت بيني وبين زيارة القباني فلم يتسن لي أن أراه وأنشده هذه الأبيات :

تعـــارض بالجراح سليل طه ... وشتان المقاصد والدمـــاء
جراحك يا (نزار) على الغواني ... محبّـبة وتلعنهـــا السماء
وللاصلاح والـــدين المفـــدى ... جراحات الحسين وكـــربلاء

* * *

لقد أجهد نفسه في (القضاء) كثيراً حتى ظهرت عليه أعراض ضغط الدم . ونصحه الاطباء بالراحة ولكن الذي يعرف السيد عباس شبر لا يتوقع له امكان الراحة لفرط اهتمامه بما يعرض عليه من القضايا التي تفتت الاكباد أحياناً كثيرة من جراء الطلاق والنفقة والميراث والوقف وما ينتج من كل هذا من مشكلات عويصة قد يصعب حلها أحياناً على الوجه الصحيح المطلوب بسبب ضعف التطبيق وبسبب (الروتين) الذي طالما عقّد الدعاوى . وعلى أن السيد عباس قد ترك بعد ذلك القضاء (متقاعداً) فقد لازمه ارتفاع ضغط الدم حتى اضطر الى أن يشتري جهازاً يزن به ضغط دمه كلما أحسّ بوعكة أو انحراف في الصحة . وقد حرم نفسه من كثير من المآكل في كثير من الأوقات . أما الشيء الذي لم يتغير عنده فهو الانكباب على القراءة والمطالعة والخروج الى المسجد لاداء فرائض الصلاة وزيارة الناس بداعي المجاملة التي يتطلبها العرف وغير ذلك مما يجعله أكثر احتكاكاً بالناس وشؤونهم . والا فهو صوفي من طراز خاص يختلط بالناس لحد محدود ولا يتدخل في شؤونهم الخاصة ما لم يستعن به مستعين لحل مشكلة أو اصلاح ذات البين . وهذا ما كان يقع كثيراً ويكلفه الكثير من ولوج الحديث وضرب الامثال والاستشهاد بالشعر .

وفي صيف ١٩٧١ تركته كما هو . وليس هنالك من جديد فيما يخص صحته . ومن سوق الغرب كتبت له أسأل عنه . ووافتني رسالته وفيها بعض التعليق على المقالات المبتكرة التي يكتبها الاديب الكبير وديع فلسطين عن أثر النعال والحذاء في الأدب العربي قديماً وحديثاً . وحين عدت من لبنان كتبت له أخبره

بعودتي وأسأله عن صحته ، فوافتني رسالة منه يقول فيها انه كان قد دخل المستشفى نحو ثلاثة أسابيع على أثر نوبة قلبية وهو اليوم ملازم للبيت حسب وصية الاطباء ويرجو أن لا تطول مدة مكثه في البيت بعد هذا .

وصح ما توقعه فقد بدأ يخرج من البيت لاداء الصلاة بالناس في المسجد ويقابل بعض مريديه ومراجعيه في شؤونهم الدينية والدنيوية حتى اطمأن الاصدقاء وظنوا أنه قد زال كل شيء .

وفي صباح ٢٦ / ١١ — ٩٧١ المبكر دق جرس التلفون عندي في البيت واذا بالسيد محمد رضا شبر يقول لي وبدون سابقة أو مقدمة :

(لقد مات السيد عباس شبر والبقاء في حياتك)

واذا عظمت الفجيعة شق على المفجوع الصبر عليها ، والتعبير عنها ، وقد يرتج عليه فلا يدري ما الذي يقول ، ولقد والله عظمت علي الفجيعة ، وجلّت الرزية ، وكبرت المصيبة . واشتدت علي هذه المباغتة غير المنتظرة بفقد هذا الراحل الذي ترك فقده في الكثير من نواحي العلم والأدب والتقوى فراغاً لا أحسب أحداً من عارفيه الواعين من يجهل أثره ، ولم يزن عمقه ، ويقدر قيمته . فقد كان عالماً ربانياً وفقيهاً استوعب مذاهب الفقه عند جميع المسلمين ، ومجتهداً له رأيه القويم في الاحكام وقد أشار الامام كاشف الغطاء الى هذه المواهب وعدّه قدوة في صحة الاستنباط ، ومناراً في استخلاص الاراء يوم سجل له ذلك في شهادة الاجتهاد .

انها صفة النوابغ من علماء التشريع ، وقد كان الفقيد نابغة دون أي شك وشبهة ، وكان أديباً وفي طليعة الادباء الذين يزنون الكلام فيضعون الكلمةفي مواضعها نثراً ونظماً وكان موسوعة من موسوعات التاريخ والادب .

وكان تقياً ، والتقوى عنده طلب رضا الله في الصلاح والاصلاح وكان مثلا رائعاً للزهد ،وقد جنّب نفسه الكثير من لذائذ الدنيا الا ما حلل الله تقرباً الى ربّه ، وطلباً لمرضاته ، وقد صفت نفسه ، وطهرت روحه . فلم يعرف الحقد والحسد وسوء الظن وما يشين النفوس ويعلق بها من الادران .

وكان كريم النفس ، حلو الحديث . ما فارقت الابتسامة شفتيه ، ولا عرف

التجهّم وجهه ، ولا انطلقت الكلمة النابية من فمه حتّى في أشد الاوقات حراجة ، وان خسارة الانسانية به خسارة لا تعوض ، والفجيعة به لا تهون .

صحيح ان المراثي كما يقول النويري : انما جعلت تسلية لمن عضته النوائب بأنيابها ، وفرقت الحوادث بين نفسه وأحبابها ، وتأسية لمن سبق الى هذا المصرع ، ونهل من هذا المشرع ، ووثوقاً باللحاق بالماضي . وعلما أن حادثة الموت من الديون التي لا بد لها من التقاضي ، وانه لا سبيل الى الخلود والبقاء ، ولا بد لكل نفس من الذهاب ، ولكل جسد من الفناء .

صحيح ان ليس هناك من الباقين على وجه الارض غير وجهه الكريم ، وان كل شيء زائل في الوجود الاّ ه سبحانه . ويكفينا ما تقول الاية الكريمة :

« ما جعلْنا لبشرٍ من قبلِكَ الخُلدَ . أفإن متَّ فهم الخالدون . كلُ نفسٍ ذائقةُ الموت ، ونبلوكم بالشرِ والخير فتنةً والينا ترجعون » .

صحيح كل هذا وأكثر ، ولكن كم منا من يستطيع أن يهضم هذه الحقيقة ، وكم منا من يحسن التسليم لأمر الله وقضائه ؟

لقد قضيت اربعين سنة ، أربعين سنة من هذا العمر وأنا أنعم بتلك المحاسن من الافضال والسجايا ، وان أربعين سنة لتحتاج الى أربعين سنة ليتم لي على الاقل فيها التناسي وليس النسيان ، وكأن الحسن بن هاني قد عناني وعناه حين قال :

وكنت عليــه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لي شيء عليه أحــاذر
لئن عمرت دور بمــا لا نحبّه ... لقد عمرت ممن نحب المقابــر

وكأن الخزيمي أراده وأرادني حين قال :

وأعددته ذخراً لكل ملمّــــــة ... وسهم الرزايا بالذخائر مــولع
واني وان أظهرت مني جلادة ... وصانعت أعدائي عليــه لموجع
ولو شئت أن أبكي دماً لبكيتــه ... عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

ولكني بكيت ، لقد بكيت كثيراً . ثم كل ما فعلت بعد ذلك هو ما اعتدت أن أفعل مع الذين يمضون من الاحباب وهو أن عمدت الى أضابير الرسائل فسحبت اضبارة رسائله وضممتها الى اضابير أولئك الذين لن يرجعوا بعد وأنا أغرقها بالدموع .

عباس الخليلي

كيف عرفت أخي

عباس الخليلي

من المؤسف انني لا أعرف عن أخي عباس كل ما كان يجب أن أعرف ، ذلك لأنه عاش أكثر من ثلثي عمره في ايران ، فلم يتسرّب الي من هذا العمر الا القليل القليل الذي كنت أعثر عليه منشوراً في بعض الصحف ، والقليل القليل الذي تأتي به المناسبة ، فأراه بعيني ، وأسمع به بأذني ، حين يتاح لي أن أزوره بطهران ، لذلك فان كل حياته السياسية ، وجل حياته الأدبية غامضة لدي وان كانت مسجلة تسجيلاً كاملاً في الكثير من مواضعها العربية والفارسية . وبرغم ذلك فقد عزّ علي الحصول على الصحف التي أبّنته ، وأوردت شيئاً من ترجمة حياته وعزّ علي الحصول على المراجـــع من الموسوعات والتراجم التي كان من الممكن أن أستعين بها لنفض غبار النسيان عن ذاكرتي ، وما هذا الذي أدرجه هنا الا بعض ما احتفظت به الذاكرة عن أخي عباس وليس له بترجمته من صلة الا القليل، أما الترجمة، والترجمة الكاملة فيجب أن يبحث عنها من يهمه ذلك في مصادرها وهي جد كثيرة على ما أعلم في المكتبات العامة .

ان أول صورة ارتسمت في ذهني لأخي عباس الخليلي كانت صورته وهو شاب يكبرني بثماني سنوات ، فقد ولد هو في سنة ١٣١٤ هجرية التي تعادل سنة ١٨٩٦ ميلادية وله تاريخ منظوم بالشعر لا أحفظه ، وولدت أنا في سنة ١٣٢٢ هجرية وهي السنة التي تعادل سنة ١٩٠٤ ميلادية وقد أرخ لي الشيخ

المسمى بالشيخ حسين العامـــلي وقد ظن بالنظر لاتصال الشيخ عبد الحسين صادق بابي صحبة ودرساً أنه هو المؤرخ لولادتي ولما كان اسم أبي الشيخ أسد الخليلي فقد جاء تاريخي على هذا النحو الذي رواه الأستاذ مشكور الاسدي في نشرته عني والتي سماها (برؤوس أقلام عن جعفر الخليلي)والملحقة بهذا الكتاب

عودتْ . . . ـوداً أتـــــى لشيخنـــا (الشيـــخ أسدْ)
مـــن كيـــد كـــل كـــائد وحـــــاسد اذا حسدْ
يـــا فرحـــه مـــا جاءنـــــاً بمثلهـــا قبـــلْ أحـــدْ
ان قيـــــل مـــــن ؟ أرخ : (أنا الشبلُ من ذاك الأسد)
١٣٢٢ هـ

ووجدت أخي عندما وعيت يعتمر اليشماغ والعقال ، واليشماغ والعقال هو الذي يعتمره أغلب الأسر النجفية ، ولا سيما الأسر العلمية ما داموا صغاراً لم يبلغوا الرشد بعد ، فاذا ما تقدموا قليلاً وبلغوا مرحلة الشباب أو حان أوان زواجهم استبدلوه بالعمامة السوداء اذا كانوا (سادة) من العلويين وسلكوا مسلك الروحانيين في الغالب . كمـــا يعتمرون العمامة البيضاء اذا كانوا من طلاب العلم ولم يكونوا (سادة) في الغالب ، والكثير ممن يلف على الطربوش لفة مطرزة بالحرير الأصفر التي تستورد من الشام والتي يسمونهـــا في العراق (بالكشيدة) اذا سلكوا في الغالب مسلك التجار . وأهل الحرف والباعة ، والا بقوا على ما كانوا عليه معتمرين باليشماغ والعقال حتى وان نهجوا نهج الروحانيين ، أو سلكوا مسلك التجار ، وهنالك عمائم اخرى ومن صنف اخر تلبسها القلة . ومنهم خدام الروضات والعتبات المقدسة . وقد أشرت إلى العقال واليشماغ في مواضع أخرى كثيرة من هذا الكتاب .

وقد رأيت من أبوي ولا سيما أبي عناية خاصة بأخي عباس لم أعرف سببها الا بعد أن أدركت بأن لأبي أبناء قد جاءوا إلى الدنيا قبل أخي عباس ولم يعش أحد منهم . فرجا أبي في أخي هـــذا البقاء . والعمر الطويل . وخصّه بالشيء الكثير من العناية . ولم تكن هذه العناية مقتصرة على توفير الحاجـــة . من مأكل

وملبس وما شاكل فحسب وانما أفرغ أبي كل عناية في تنشئته وتثقيفه على قدر مفهوم الثقافة في ذلك العصر ، وكان أبي إلى جانب تضلّعه بالعلوم المألوفة في تلك الأيام من العلوم الأدبية ، واللغوية ، والفقه ، فقد كان ملما بعلم الطب على الطريقة اليونانية وكان محيطاً كل الاحاطة (بقانون) ابن سينا والطب اليوناني ، إلى جانب خبرته الواسعة بعلم الهيئة (الفلك) ، وعلم المنطق بصورة خاصة والذي اشتهر به بين جميع طلاب العلوم في النجف وقام بتدريسه في أول شبابه أكثر من أي فرع آخر من العلوم .

لقد قام أبي بتلقين أخي الشعر وهو صغير لم يدرج بعد ، وكان يحمله على أن ينشد ما حفظ من الشعر في مجالس الأسرة ، وكانت محفوظاته من خيار الشعر ، وأجوده ، يحفظه وينشده دون أن يفهم له معنى ، وكان يلثغ بالسين في أول طفولته ،فكان أعمامه وأصدقاء أبي يأنسون بلثغته فيحثونه علىقراءة هذين البيتين اللذين كان يحفظهما وهما :

وشادنٍ قلت له مـا اسمُـهُ أجابني باللثـغ عبّـاثُ
فصرتُ من لثغتـه ألثغـا وقلتُ أين الطاثُ والكاثُ ؟

واذا زار أبي مجلساً من مجالس أصدقائه من أهل العلم والأدب صحبه معه ليتفتح ذهنه ، ولتنمو مواهبه الأدبية . وان المجالس الأدبية في النجف مذكورة أخبارها في الكثير من مواضع هذا الكتاب من الجزء الأول والثاني ، وكثيراً ما اتخذ روّاد هذه المجالس التي يرتادها أبي كثيراً ما اتخذوا من أخي (عباس) موضوع تندّر ، وتفكهة أدبية، لكثرة ما كان يحفظ من الشعر قبل أن يفهم معناه ، وكثيراً ما تلمس الأدباء في أجوبته والردّ على أسئلتهم شيئاً من الغرابة التي تستلفت الأنظار على ما يروي مدركو طفولته من الارحام والأصدقاء .

وحين تعلم القراءة والكتابة أصبح يتسابق مع الشعراء في سرد الأشعار وذلك بأن يأتي بالبيت المختوم بآخر حرف طالباً من منافسه بأن يأتي له ببيت مبدوء بذلك الحرف ، ويردّ هو بمثل ما يفعل منافسه ، فكان يتغلب على الجميع

بدون استثناء ، لأنه كان يحفظ كل قصائد صفي الدين الحلي المبدوءة بالحروف الهجائية والمختومة بها ، فضلاً عما كان يحفظ من الشعر لأشهر الشعراء ، لذلك سرعان ما يظهر العجز على منافسه من كبار الأدباء الذين كانوا يتحرشون به عن عمد ويطلبون دخوله في مسابقتهم على سبيل الدعابة والمزاح .

وذات مرة تحرّش به الامام الشيخ محمد حرز الدين وهو من كبار العلماء المبرّزين وكان أخي عباس مع أبيه في مجلسه وطلب منه الشيخ أن يسابقه في حفظ الشعر ، وبعد قليل ظهر العجز على الشيخ العالم الذي دخل المسابقة مع هذا الصبي بقصد التسلية والتفكهة فلم يحسّ الحضار الا وعباس الخليلي ينشد :

لو كنتَ كما كنتَ مدحناك بأبياتْ
لكنك أفلستَ ومن أفلس قد ماتْ

أما الامام الشيخ وأهل المجلس فقد ضجوا بالضحك ، وأما أبي فقد صاح في وجه ابنه موبخاً وهمّ بأن يلطمه تكفيراً عن هذه الجرأة والوقاحة التي أنطقته بهذا البيت ، ولكن هذا الامام لم يكتف بأن يلوم أبي على تعنيفه لأبنه وانما مدّ يده إلى جيبه وأخرج منه (مجيدياً) — والمجيدي عملة من عملات تلك الأيام — فأبى أخي أن يأخذ (المجيدي) لأن أهلنا كانوا يعلموننا منذ الصغر بأن لا نقبل من أحد نقوداً على سبيل الهدية ، وأصرّ الامام ولكن أبي قال له : لا فائدة من الاصرار لأنه لا يأخذ من أحد نقوداً .

قال الامام : ولكني أنا بمثابة عمّه — وكانت للشيخ محمد حرز الدين صلة وثيقة جداً بأبي .

فقال أبي : — وان يكن .

وفي اليوم التالي أهدى لنا هذا الامام قوصرة من التمر الفاخر بعث بها إلى البيت وقال :

— هذه حلاوة السباق وهي تخص (عبّاساً) وحده وليس من حق أحد أن يشاركه فيها ...

وحين بلغ أخي السنة الخامسة عشرة نظم قصيدة ـ ولعلها أول قصيدة ينظمها ـ وبعث بها إلى مجلة العرفان ، وهي قصيدة بائية القافية يقول فيها :

لا يبلغ المجد من لم يغنم الادبا ولا ينال العلى من لم يحز رتبا
بلغت مجداً بجدّي حيث نلت علا فحسبي المجد جداً والفخار أبا
رضيت فيه فلا أرضى به بدلاً ولا أبالي بعيشي مرّ ام عذبا
اني فتى أحقر الدنيا وطالبها تعساً لها ولمن في عيشها رغبا..الخ

وتم نشرها في المجلد الخامس من مجلة العرفان وعلق عليها صاحب العرفان بالكلمة التالية :

« اخترنا من هذه القصيدة ما نشرناه تنشيطاً لقائلها الذي لم تتجاوز سنه الخامسة عشرة » .

* * * *

وأدركت أخي ـ أول ما أدركت ـ شاباً ، نحيفاً ، معتدل القامة ، يتأبط كل يوم كتابه ويذهب إلى الدرس ، والدرس في النجف حلقات تقوم في الصحن الشريف ، والمساجد ، أو المقابر الفخمة في الحجر المحيطة بالصحن فيتولى الأساتذة فيها التدريس مجاناً ، والتدريس يبتدأ بدراسة الادب العربي وفروعه من النحو والصرف والعروض إلى تاريخ الأدب ثم علم المنطق ثم التدرج إلى علم الكلام وهو الفلسفة والفقه . والاصول ، وتتشعب من هذه الدروس فروع واسعة لا نهاية لها ولا آخر فترى الشخص وان بلغ مرحلة الاجتهاد ـ وهي آخر ما يصل اليها طلاب العلم الروحانيون ـ فأنه لا يزال يقرأ ويبحث ، ولو بعد الثمانين والتسعين من العمر .

لقد كان أخي يأخذ كتابه صباحاً ولا يأتي الا قبيل الظهر فيدخل غرفته ، وغرفته هذه كانت من الغرف التي ندعوها (بالشناشيل) ونستقبل فيها الزائرين

ويعقد أبي فيها مجلسه . ذلك لأن غرف البيت كانت قليلة ، وكانت اختنا الثالثة التي لم تكن قد تزوجت بعد تسكن احدى الغرف وحدها ، وعند حلول بعض ضيوفنا من النساء في مواسم الزيارة . وكثيراً ما يحدث هذا فيحل عندنا عدد غير قليل من الرجال والنساء الذين يأتون من الريف لارتباطنا بهم بالنسب من حيث الخؤولة .أما الرجال فنسكنهم في (الشناشيل) ،وأما النساء فنحشرهم في غرفة اختي . وتبقى غرفة أبي وأمي لهما وحدهما ، اما أنا فكنت أنام في ركن ملحق بغرفة أبوي من الممكن أن يسمى تجوزا بالغرفة ، أما اسمه المتعارف فهو (الصندوقخانه) وكانت له باب على غرفة أبوي . وباب مستقل على الخارج ، وهي لا تتسع لغير منام شخص واحد . وصندوق كان مليئاً بثياب أهل البيت ومدخراتهم .

وكثيراً ما يتفق أن يكثر ضيوفنا من هؤلاء الاخوال الريفيين . فكان الملحقون بهم وخدمهم ينامون في وسط الدار وتحت السماء حتى وان كان الوقت شتاء هذا اذا لم يبق في سرداب البيت محل للنوم .وأذكر مرة تجاوز فيها عدد ضيوفنا حدود طاقة البيت . فذهب أبي وأخي لينامنا في بيوت أعمامنا ، وحين ضاق البيت بالضيوف وخدمهم معهم نام هؤلاء الخدم في الشارع وأمام بيتنا ولم يتركوا للمارة في الطريق الا مسلكاً ضيقاً ! !

كل هذا جعل أخي (عبّاساً) يفكر في طريقة تريحه من مجلس أبيه ومن ضيوفنا ومضايقة الأمور الاخرى . ففكّر في أن يجد له غرفة من غرف المدرسة ، وكانت لنا في النجف – ولم تزالا – مدرستان احداهما باسم مدرسة الخليلي الكبرى ، والاخرى باسم الخليلي الصغرى ، وتحتوي كل منهما على عدد غير قليل من الغرف المعدة لسكنى طلاب العلم مجاناً ، ولكن كيف يتيسر لأخي ذلك ؟ والشرط في سكنى هاتين المدرستين منصوص في الوقف على ان الطالب يجب أن يكون ممن بلغ من العلم مرحلة (دراسة الخارج) وأخي لم يبلغ بعد هذه المرحلة . وكان الموكّل على المدرسة أحد أعمامنا فكلمه أخي بأن يفسح له المجال في أن ينزل هذه المدرسة ويحلّ محلّ من يملك داراً ومقراً في المدينة فأبى

عمنا هذا وعدّ ذلك مخالفاً لشروط الوقف ؛ وكان أخي جريئاً ، وذا ارادة قوية . فلم يكن منه الا أن دخل المدرسة وعين احدى الغرف ، وأخرج منها ساكنها بالقسر ، وبدأ ينقل من البيت الفراش اللازم والكتب التي تخصه وفي ضمنها بعض كتب أبيه ، وقد غضب أبوه وأعمامه . وعدّوا عمله هذا مخالفاً للشرع ، ولكنهم صاروا أمام الأمر الواقع . ولم يكونوا من القوة والنفوذ وهو القوي الارادة بحيث يستطيعون أن يصدّوه عن عمله . ومنذ ذلك اليوم استقل في غرفته في المدرسة ، فكان يأتي البيت ظهراً ليتناول غداءه ، وليلاً ليتناول عشاءه ، ويقضي بقية أوقاته في الدرس وفي المدرسة . وكنت أنا في بعض الأحيان أنقل الغداء والعشاء من البيت إلى غرفته في المدرسة فألفي عنده بعض الأصدقاء الذين تعرفت بهم أول ما تعرفت هنا او في بيتنا وكان من هؤلاء الشيخ علي الشرقي والشيخ عزيز الجواهري والسيد مير علي (أبو طبيخ) وأحمد الصافي النجفي وغيرهم .

وكثيراً ما كان يدعو أصدقاءه إلى بيتنا وهو في المدرسة لتناول الغداء او العشاء فكنت أنا أقوم بالخدمة . وانقل الصحون والطعام إلى (الشناشيل) .

* * * *

وكان يستعين بأبي في بعض الاحيان في حلّ المبهم من المسائل سواء اللغوية او الأدبية او المنطقية ، كما كان يناقش أبي أحياناً في كثير من الأمور . وقد احسست غير مرة باستظهاره على أبي وتفوقه فيما يبدي من رأي ، الأمر الذي كان يلجيء أبي إلى مراجعة المصادر ليرى مبلغ صحة الرأي عند ابنه عباس الذي اعتاد أن يناقشه بكثرة .

وكان له فضل كبير بعد أبي على تنشئتي لا من الوجهة الأدبية ، والحث على قراءة كتب معينة — وأنا يومذاك تلميذ في المدرسة العلوية أدرس مبادىء العلوم الحديثة — بل فيما كان يتخذ من وسائل تفتح الذهن عندي . وأذكر من ذلك أنه قال لي مرة : انه سيخفي عني طاساً كنا نشرب بها الماء وقال فان

اهتديت اليها فان لك عندي جائزة من الجوائز ، وهناك أدخلني احدى غرف البيت وأغلق عليّ باب الغرفة ، لدقيقة أو دقيقتين ، ثم فتح الباب ، وقال دونك البيت ففتّشه ، فلم أدع مكانا لم أفحصه وأفتشه تفتيشاً دقيقاً ، ولكني لم أعثر على الطاس ، وحين أعلنت عجزي ، التفت إليّ وقال — وكان لنا حوض ماء في وسط الدار اعتدنا أن نغطيه بغطاء خشبي حين تنزل الشمس ظهراً إلى باحة البيت . ونرفعه من على الحوض حين يكون الوقت عصراً ، وتميل الشمس نحو الغروب ، فنلقي بالغطاء الخشبي على أحد حيطان الدار ، ويمرأى من كل عين ، وكان أخي قد وضع الطاس وراء هذا الغطاء الواقع تحت الانظار ، لقد التفت لي أخي وقال : كثيراً ما يكون أقرب الأشياء إلى الانسان أبعدها عنه ، ولذلك قد يقيم أحدنا وليمة عامة في بيئة لمناسبة ما فيدعو البعيد البعيد وينسى جاره القريب مثلا .

مثل هذه الأمثال كثيراً ما كان يضربها لي قولاً وعملاً أحيانا ويلفت نظري إلى أمور لا أحسبني كنت سألتفت اليها الا بعد تجارب طويلة وبعد تقدم في السن .

وفي القضايا الاجتماعية كثيراً ما كان هو وأبي على طرفي نقيض ، وكثيراً ما اختلفا وجرّ مرة هذا الاختلاف إلى زعل أخي وغضبه ، حتى صار يردّ الغداء الذي أحمله له إلى المدرسة فتقلق أمي عليه ، وتوصيني بأن ألحّ عليه بالمجيء إلى البيت لأنها مشتاقة إلى رؤيته ولكنه كان قوي الارادة كما قلت ، فلم يلن ولم يهتم برسالتي وتوسلاتي .

أما أبي فعلى الرغم من محبته له ، وشدة تعلقه به ، فلا يتنازل ليسأل عنه ، وهذه كانت عادة أبي ، فكم صادف أني زعلت فأضربت عن الطعام عند الغداء أو العشاء ، فتحاول أمي أن تسترضيني وتحملني على تناول الطعام فيقول لها أبي :

— لِمَ تلحّين عليه ؟ فلا شك أنه شبعان ، ولو كان جوعاناً لأكل ؟

وكان مثل هذا التعليق وعدم المبالاة بي مما يزعجني كثيراً ، وأنا انما أضربت عن الطعام فلكي أعلن ان غضبي بلغ من الشدة بحيث دعاني إلى الاضراب عن تناول الطعام مع شدة حاجتي اليه ، وشعوري بالجوع ، ولكن أبي كان يتظاهر متعمداً بعدم المبالاة ، ويلوم أمّي على اهتمامها بي ، وقد وقع هذا غير مرة فعلمت ان مثل هذا الاحتجاج غير مجد،وان من الخير لي أن أتجنب الاضراب عن الطعام ، وهكذا لم أزعل بعد ذلك على الغداء والعشاء ، وانحصر زعلي في لون آخر من بروز الغضب حين يقع الاختلاف بيني وبين أبي .

ولست بذاكر كم استمر زعل أخي عباس ولكني أذكر أنه طال وقد رأيته يعدّ طعامه بنفسه في غرفة المدرسة ، وقد اشترى له قدراً وأواني وأدوات طبخ كاملة وبدأ يطهو لنفسه الغداء والعشاء ، وكان يخرج في أوقات الفراغ خارج المدينة ، وكانت هناك آبار قديمة حفرها الصفويون لكي يوصلوا الماء عن طريقها إلى النجف ، فانهال الرمل على مرور الزمن فيها وسدّ طريق الماء ، وجفّت هذه الابار ، وهي آبار عميقة قد يبلغ عمقها العشرات من الأمتار وأكثر وأصبحت أواسط هذه الابار أعشاشا للحمام ، وقد يضم البئر الواحد عدداً كبيراً من هذه الطيور ، فكان أخي يأتي ويلقي بعباءته فوق فوهة البئر ويسدّ بذلك طريق الخروج ، وانفلات الطيور من البئر ، ثم ينزل هذه الابار بخفة عجيبة ويقبض على عدد من هذه الطيور بحيث يستطيع أن يتسلق بها البئر ويخرج ، ويعوّل على لحومها في تناول غدائه وعشائه بعض الأيام ، ولكني لم أعلم حتى الان من أين كان يأتي بالنقود ليشتري بها الخبز والرز ، والخضرة ، واللحم أحياناً،وهذا ما كان يقلق أبي ولكن مثل هذا لا يحمله على التنازل والذهاب إلى المدرسة ليسترضي أخي بالرغم من إلحاح أمي وحثها اياه على أن يلين بعض الشيء ، لا سيما ولم يصدر من أخي شيء من الخروج على حدود الأدب واللياقة والجسارة ، ولكن لأبي خطة معينة لا يحيد عنها ، حتى بلغ الأمر أسرتنا ، وانتشر خبر زعل أخي بينهم ، فشق ذلك عليهم وسعى اليه أحد أعمامنا وجاء به إلى البيت وكان هنالك عتاب بينه وبين أبي ، ومؤاخذة من أبي ، واسترضاء من

أخي جعلت المياه تعود إلى مجاريها . وفرحت أمي فرحاً عظيماً . وبدّلوا بذلته بأخرى جديدة ، وعملوا في بذلته القديمة بعض العمل لتصبح صالحة لي ، وهكذا كان ديدنهم كلما جدّدوا لأخي بذلته البسوني ثيابه القديمة بعد أن يعملوا فيها الاصلاحات اللازمة . باستثناء الاعياد التي كنت أحظى فيها بالجديد من الثياب ، وظل أخي يسكن المدرسة ويأتي البيت ليتناول غداءه نهاراً ، وعشاءه ليلاً .

وفي هذه المدرسة اتسعت دائرة معارفه لا من حيث الاختلاط والاحتكاك بمختلف الطلاب الذين كانت تجمعهم هذه المدرسة من مختلف الأقطار الاسلامية، حتى من الصين . ولا من حيث أخذه مبادىء اللغة الانكليزية من الطلاب الهنود الذين كان يقيم بعضهم في مدرستنا فحسب، والتي اتقنها فيما بعد، وانما من بدئه مكاتبة الصحف ، وحصوله على مختلف المجلات العربية ، ومن أهمها كانت مجلة (المقتطف) وكانت مجلة (الهلال) و(العرفان) وغيرها وأصبحت هذه المجلات والصحف تأخذ منه ما تأخذ كتب الدروس التي يحضرها كل يوم ، صبحاً ، ومساء ، على مشايخه ،وكان في طليعتهم الشيخ محمد جواد الجزائري، والشيخ محمد علي الدمشقي .

وفي أيام العطل التي تتوقف فيها الدروس وهي أوقات معينة من مواسم سنوية خاصة كان أخي يخرج من النجف إلى أخواله السادة (البيضان) في (أبي شوره) — العبّاسيّات اليوم — فيقضي عندهم أياماً ممتعة .

والسادة (البيضان) تجمعنا بهم جامعة جدّ أبينا من أمه السيد محمد الرحباوي صاحب ضيعة (الرحبة) القريبة من النجف وهو شقيق ، السيد محمود الرحباوي الذي قتل في الرحبة في حادثة ليس هذا محل ذكرها ، فنشأ عن قتله قيام المعارك بين (الزقرت) و (الشمرت) المشهورة في النجف .

والسيد محمد الرحباوي هذا من السادة (البيضان) وقد تزوّج أمّ جدتنا لأبي وهي ابنة (عبهول) رئيس أسرة آل عبّاس وزعيم قبائل بني حسن في

الفرات ، لذلك ربطنا السادة البيضان بالحوؤلة من آبائهم ، وربطتنا الحوؤلة (بآل عباس) من أمهاتنا ، فكان هؤلاء رجالاً ونساء ينزلون ضيوفاً في بيوتنا من أيام جدّتي لأبي وقد ظلوا كذلك إلى أن توفي أبواي .

وكانت جدّتي واخواتها الخمس بنات السيّد الرحباوي يقرأن ، ويكتبن ، وهو شيء عجيب في تلك الأيام فمن الجائز أن تقرأ المرأة ، أما أن تكتب فانه من الامور الغريبة ، حتى ان عمتي وبسعي من جدّتي أتقنت النحو ، والصرف ، وكانت تناقش اخوتها أبي وأعمامي في كثير من القضايا النحوية على ما يروي أرحامنا .

وتمتاز جـــدتي لأبي بعد ذلك بقول الشعر العامي وكان يروي عنها المسنّون من أسرتنا قطعاً من الشعر الذي قد يكون جيداً بعض الشيء ، وقد أصاب القحط مرة العراق ، وقلّت الحبوب ، وتأزّمت الاحوال ، وكان على رأس قبيلة بني حسن (صلاّل) وصلاّل هذا هو خال جدتي والابن الأكبر (لعبهول) وكان يكنّى بأبي (زچري) أي زكري (زكريا) وكانت حال القبائل أحسن من حال المدن لتوفر الحبوب فيها فكتبت جدتي (غدارّة) وهو اسمها إلى خالها تقول :

خالي يبو زچـــري تدري يومـــا تدري
إشْتاي طبّ وطلع ما ركّبت جدري

ومعنى ذلك هل تعلم يا خالي يا أبا (زچري) أم لست بعالم بعد، بأن شتائي هذا قد مرّ علي بطوله ولم ينصب لي قدر على أثفية ، ولا رأت لي النار طبخا ، فبعث لها بعدد من العدول المليئة بمختلف الحبوب .

وكنت أنا أقضي أكثر عطلي المدرسية — وأنا طالب بالمدرسة العلوية — عند أخوالنا آل عبّاس ، وقلما قضيت العطل عند أخوالنا السادة (البيضان) بخلاف أخي الذي كان يفضل قضاء عطلته عند السيد فرهود السيد چسّاب من السادة البيضان ، وكان السيد فرهود هذا ينزل بين قبيلة (البوعزيب) وهي

قبيلة معروفة بالشجاعة ، وليس الشكيمة ، ذلك لأن في هؤلاء من اللصوص ، وقطاع الطرق ، عدد غير قليل ، مع قلة عدد هذه القبيلة ، وكان أخي يأنس كثيراً بقصص هؤلاء ، وهم يروون له كيف كانوا يسطون على القرى ، وكيف كانوا يوقفون السفن في النهر ، ويسلبونها ، وكيف كانوا — وهم يسطون — يقعون في المآزق ويجري بينهم وبين الحراس تبادل الرصاص .

لقد كان أخي يجتمع بطائفة من هؤلاء في (مضيف) السيد فرهود ، والمضيف هو دار الضيافة حيث يتناولون كل يوم القهوة وأحيانا الغداء أو العشاء مع الضيوف ، وهم على ما فيهم من تمرّد على الشريعة ، والقانون ، كانوا يهابون السيد فرهود ويعتقدون بأنه يستطيع أن يحرق بيوتهم اذا ما رفع رأسه إلى السماء داعياً عليهم فقد كان السيد فرهود علوياً ، وكان تقياً ، وكان صاحب دار ضيافة ، وله هنالك بين قبيلة (ألبو عزيب) اللصوص قطعة أرض تبتدىء صدورها من نهر الفرات في (أبي شورة) إلى مسافة ليست بالكبيرة ، ولكنها أرض كان محصولها يكفيه مؤونة العيش ويكفي ضيوفه .

وفي هذا المحيط تعلّم أخي الصيد ، وتعلّم كيف يصيب الهدف بالبندقية التي كان يستعيرها من أفراد هذه القبيلة ، وكان يأتي لهم حين يجيئهم بعدد من الخراطيش وكميّة من البارود ، وشيء من التبغ ، والتنباك ، على سبيل الهدية فيكرمونه كثيراً لهذا السبب ، فضلاً عن كونه من ضيوف السيد فرهود الذي يقدّسونه ، وقد أطلق بعضهم له الحرية الكاملة في استعمال سلاحه في الصيد وكان نجاح أخي في اصابة الاهداف التي يستهدفها وصيد الطيور ، والمشاركة في حراسة الغنم ليلاً من السراق ، والذئاب ، مشجعاً كبيراً له في نمو الجرأة في نفسه ، خاصة وقد لحق ذات ليلة بذئب ساق أمامه احدى النعاج ليلاً فقتله وخلّص النعجة منه وقد صارت هذه القضية حديث القبيلة في المضيف ، خصوصاً وأن القبائل لا تنظر إلى سكان المدن الا نظرة لا تخلو من زراية في عالم الشجاعة .

وقد رأيت أخي مرّة يخبيء بندقية وراء كتبه المصفوفة فوق الرفوف في غرفة

المدرسة فأخبرت أمي بذلك فقالت لي حذار أن تخبر أباك لئلا يقع بينه وبين أخيك شيء من المناقشة تحمل أخاك على الاعتكاف في المدرسة والانقطاع عنا ،

لقد تعلّم شيئاً غير قليل من الرياضة ، وشظف العيش،والخشونة ، لقد تعلّمها من هذه القبيلة التي كان يتصل بها حين يزور اخوالنا من آل السيد فرهود ، حتى لقد كان يحمل معه بعض الأصدقاء وزملائه في الدرس في مواسم (الزيارات) على أن يقطعوا طريق كربلا التي تبعد نحو سبعين كيلومتراً عن النجف مشياً على الاقدام في يومين ، أو ثلاثة أيام ، ولعله فعل هذا عشرات المرات ، ولعله تجاوز ذلك هو وأصحابه فساروا إلى الكاظمين وسامراء ماشين على أقدامهم وقد قطعوا أكثر من ٢٥٠ كيلومتراً في الذهاب ومثلها في الاياب في مدة سبعة أيام أو أكثر قليلاً ، وليس ذلك بداعي الرياضة وحدها ، وانما للاقتصاد في النفقات ، بسبب ضيق المعيشة في تلك السنين أثر آخر في قطع مثل هذه المسافات بين العتبات المقدسة ماشين على أرجلهم .

• • • •

ووقعت الحرب العظمى الاولى ، واعتبرها المسلمون حرباً تشبه حرب الصليبيين ، حين نزلت الحملة الاولى من الانكليز في (الفاو) ودخلت البصرة ، وقد صار مفهومها عند علماء الدين هو اعلان الكفار الحرب على الاسلام ، فما لبثوا أن أفتوا بوجوب الجهاد على كل مسلم باستطاعته أن يحمل السلاح ، لا بل تقدم العلماء أنفسهم للحرب مثل الامام السيد مهدي الحيدري ، والشيخ مهدي الخالصي وشيخ الشريعة ، والمجتهد الشاعر الكبير السيد محمد سعيد الحبوبي صاحب الديوان المشهور بديوان الحبوبي ، وسار وراءهم خلق كثير ، ولم يبق في مدن العراق وعلى الاخص العتبات المقدسة وأخص الاخص النجف والكاظمين من لم يذب في مثل هذه الفتاوى ويسر في زمرة المجاهدين إلى ميدان الحرب .

ونشرت الحكومة العثمانية هذه الفتاوي بمختلف الصور ، ولمختلف

العلماء ، في جميع الاقطار الاسلامية الخاضعة يومذاك للدولة العثمانية ، وبثّت لها (دعاية) واسعة ، عن طريق الوعّاظ والخطباء وائمة الجوامع والصحف حتى لقد وددت أنا ، وأنا الصبي الذي كان عمري يومها دون الحادية عشرة ان أحمل خنجراً او هراوة أو أي شيء آخر وأسير مع المجاهدين لأكسب بذلك رضا الله تعالى ، وأدخل الجنة بدون حساب ، كما تقول تلك الفتاوى ، فكيف بأخي الذي يكبرني بثماني سنوات ،وهو في ريعان الشباب ،وفي عزم وقوة وجرأة جدّ كبيرة استمدها من تلك القبيلة : قبيلة (البوعزيب) اللصوص المعروفين بالجرأة بين قبائل الفراق الأوسط ، فصمم أخي على تسجيل اسمه في سجل المجاهدين ، وتحت راية السيد محمد سعيد الحبوبي إجابة لصرخة الدين ، أما أبي فلا أذكر أنه قال شيئا ولكن أمي قلبت الدنيا على رأس أخي عباس ، وصاحت ، وصرخت ، وبكت ، وولولت ولم تترك وسيلة دون أن تتشبث بها للحيلولة دون التحاق أخي بزمرة المجاهدين .

واستجاب بعض أعمامي لصراخ أمي ، وبكائها ، وناقشوا أخي في أمر هذا الجهاد ، وذكّروه بأن هناك فتوى للسيد كاظم اليزدي لم تسمّ هذه الحركة بالجهاد لكي يكون واجباً من واجبات الاسلام ، وفريضة على المسلمين ، وانما سمته (بالدفاع) فعليه أن يعمل بهذه الفتوى اذا كان ممن يعنى بالفتاوي ، وكان أخي من قوة الارادة والعناد بحيث قلما يستطيع أحد أن يصدّه عن عزمه ولكن دموع امه قد خففت من حماسه بعض الشيء ، فصرفته عن دخول الميدان ، ولكنها ضاعفت من حماسه روحاً وفكراً في كره الانكليز ومقتهم واعتبار حملتهم حملة صليبية تريد القضاء على الاسلام والمسلمين ! !

وخابت مساعي العلماء والمجاهدين ، واندحر الجيش العثماني أمام تلك الجيوش المدجّجة بأحدث السلاح ، والقوة ، ودخل الانكليز بغداد ، ولم تبق من تلك الثورة العارمة التي هاجتها الدولة العثمانية . وفتاوي العلماء غير جذوة من الحقد والكره كامنة في نفوس الذين لم تربطهم المنافع الشخصية بالانكليز ، وكانت أكثرية هؤلاء الذين ظلّوا يحملون هذا الكره للانكليز بصفتهم معتدين ، ومحتلّين

بلاداً لا تربطهم بهم رابطة من دم ، أو لغة ـ أو دين ، هم سكان النجف بمختلف أجناسها ، باستثناء فئة قليلة تحقق باحتلال الانكليز بعض منافعها الخاصة .

وكان لا بد أن يتذاكر هؤلاء النجفيون في مجالسهم وأنديتهم بهذا الكره ويتناقلوا الأخبار التي من شأنها أن تثير الحماس في الكره ، والاشمئزاز ، وكان أخي عباس من هؤلاء الذين عدّ التبشير بالدعوة لخصومة الانكليز احدى الفرائض التي يجب أن تستحيل إلى عمل محسوس ، وجهاد ملموس ، ونهضة تزيح هذا الكابوس عن كاهل هذه البلاد . قبل أن يستفحل الأمر ، فلا يكون هنالك خلاص من مخلب هذا الاستعمار الذي كان قد شمل ما يقرب من ثلث بلاد العالم أو أكثر ، فكيف يتم زحزحة الانكليز ؟ وما هي الخطة التي يجب أن تختط للخلاص منهم ؟

وفاوض عباس استاذه الشيخ محمد جواد الجزائري وكان الجزائري من الحماس في كره الانكليز لحد الجنون ، كذلك فاوض أستاذه الثاني الشيخ محمد علي الدمشقي ، وكانت هذه أول بذرة بذرت للثورة . وارتأى هؤلاء ان لا نجاح لطرد الانكليز الا بقيام ثورة عارمة وفق خطة مدروسة درساً واقعياً . صحيحاً ، ولذلك فان الأمر يقتضي في الدرجة الاولى تأسيس جمعية سرية باسم (النهضة الاسلامية) تنتخب لها رئيساً له وزنه ، وقيمته ، ومكانته في المجتمع من حيث الأسرة ، والشهرة ، لكي يطمئن المنضمون إلى هذه الجمعية ، بان القضية ليست قضية جماعة غلب عليهم الهوس ، وحماس الشباب . فتوجهوا إلى أمور ليس لهم قدرة عليها ، وهي إلى لعبة الصبيان أقرب من حركة العصيان .

وبعد إعمال الفكر ، اهتدوا إلى أن يتخذوا من السيد محمد علي بحر العلوم رئيساً للجمعية ، فقد كانت كل الأوصاف المطلوبة مجتمعة فيه وزيادة ، أما هذه الزيادة فهي ايمان السيد محمد علي بحر العاوم المتجاوز الحد بوجوب الدفاع عن كيان هذه البلاد ، وفدائها بالروح ، والمال ، وبما يستطيع أن يفعل المسلم المؤمن للتخلص من سيطرة الانكليز .

وما لبثت الجمعية أن ضمّت عناصر ذات قيمة من حيث تقارب الشعور ، والأفكار ، وانتخب أخي عباس سكرتيراً يتولى تحرير الرسائل السرية لا بالنظر لحماسه ، وشعوره ، فحسب ، وانما لبروزه في الانشاء والنثر وحسن توجيه العبارة ، وسمي (بفتى الاسلام) وحملوا الشيخ جابر الكرماني وهو من أشهر الخطاطين الذين ينقشون الاختام ، والمعروفين بالوطنية وكره الانكليز للانخراط في جمعيتهم قبل أن يحفر لهم ختم (النهضة الاسلامية) وختم (فتى الاسلام) — ويحتفظ بهذين الختمين اليوم الأستاذ مشكور الاسدي — ولكي يضللوا الجواسيس فقد قرروا أن لا يجعلوا اجتماع أعضاء الجمعية في مقر واحد ، وانما كانوا يجتمعون في أماكن يعينون محلها قبل كل جلسة ، ويبدو أن الحكومة كانت قد أحست بأن هنالك شيئاً ما ، لذلك نصح (حميد خان) وكان معاوناً للحاكم الانكليزي في النجف وكانت تربطه بأبي علاقة متينة أتيت على ذكرها في الجزء الاول من (هكذا عرفتهم) ، لقد نصح حميد خان أبي بأن يخفف عباس الخليلي شيئاً من نشاطه لأنه غير مرضي حسب (التقارير) الواردة عنه والتي كان حميد خان يهملها ، ولكن أخي كان يسبّ حميد خان ويتهمه بالخيانة كلما ذاكره أبي بما يقول عنه ، وكان أبي يعتذر لحميد خان بأنه غير قادر على ردع ابنه وصده .

ورأت الجمعية أن تؤلف جمعية اخرى تربط بينها وبين شيوخ القبائل وشيوخ النجف من حملة البنادق ، فتألفت جمعية اخرى وسط هذه الجمعية ، وشارك أخي عباس فيها عضواً وسيطاً ، ينقل اليها مقررات (جمعية النهضة الاسلامية) ، وقد نجحوا في إيجاد عناصر أمينة تنقل لهم مكاتيبهم ، ورسائلهم ، إلى الجهات المطلوبة من العشائر ، وإلى قادة العثمانيين الذين كانوا لا يزالون في الفرات الاعلى وفي مدينة (عانة) يحاربون ولم ينسحبوا بعد ، وإلى الملك حسين في الحجاز ، وكان أنشط هؤلاء الرسل الذين يعهد اليهم بالكتب المرسلة إلى العثمانيين ، وإلى الملك حسين ، هو عباس بن الحاج نجم البقـــال ، الذي كان يخفي الرسائل بين طيات نعاله ، ويسلك طرق الصحراء ، ويستخدم

بعض الثقاة من البدو لحمل الرسائل .

ونشطت الجمعية حين دخل فيها من النجف معظم الشيوخ من حملة البنادق باستثناء آل السيد سلمان الذين كانوا يحابون حكام الانكليز ، وكان الانكليز يعتمدونهم دون رؤساء النجف الاخرين ، وكان من أنشط الداخلين في الجمعية التنفيذية من (جمعية النهضة الاسلامية) هو الحاج نجم البقال ، والد عباس الرسول الامين للجمعية ، وتومان عدوة ، وسعيد الحار ، وأبناء الحاج سعد الحاج راضي ، ومحسن غنيم ، أما كاظم صبي ، وعباس علي الرماحي وغيرهما ، فقد انضموا أخيراً إلى الجمعية التنفيذية ، وغير هؤلاء عدد كبير شنق بعضهم عند فشل الثورة ونفي البعض الاخر إلى (سمرپور) في الهند .

أما الذين انضموا إلى الجمعية من القبائل في خارج النجف فقد كان على ما أذكر — سلمان الفاضل رئيس قبيلة الحواتم ، ومعه مشگوف ، والشيخ وداي العلي رئيس قبيلة آل علي ومرزوق العواد رئيس قبيلة العوابد والحاج رابح رئيس قبيلة الحميدات وغيرهم ممن لا أذكر أنا أسماءهم .

وأصاب الجمعية شيء من الغرور ، أو عدم الادراك بأن هذا الذي حصلوا عليه لم يكن كافياً للثورة ، وكان عليهم أن يؤلفوا في كل مدينة فرعاً سرياً ويدخلوا في جمعيتهم التنفيذية جماعات أخر وقبائل أكثر ، وعناصر فعّالة أقدر ، وكل هذا لم يجر تماماً في الحسبان فقرروا أن تبدأ الثورة في النجف في يوم معين وتكون هي الانذار للقبائل الداخلة معهم في العهد بالقيام والثورة في وجه الانگليز .

وهكذا كان ، وقد تم للحاج نجم وبعض الأفراد أن يقتحموا سراي الحكومة في ثياب شرطة ، ويقتلوا الحاكم الانگليزي مارشال ، مما هو معروف في تاريخ الثورة النجفية من سنة ١٩١٨ ، وفي هذا الوقت نفسه كان الانگليز قد فتحوا شمال الفرات وانسحب العثمانيون من مدينة (عانه) وغيرها فعثر الانگليز على طائفة من رسائل (جمعية النهضة الاسلامية) ، وأسرعوا لتدارك الأمر مع القبائل

التي وردت اسماؤها في تلك الرسائل ، وحالوا بينها وبين المشاركة في الثورة فاقتصرت الثورة على النجف وحدها . وعمت حتى دخلها آل السيد سلمان وغيرهم مضطرين حين رأوا الاجماع عليها من قبل النجفيين .

وحوصرت النجف من قبل الجيوش الانكليزية وسرعان ما أحيطت البلدة من جميع جهاتها بالأسلاك الشائكة والجند ، فلم يبق هناك من منفذ للاتصال بين النجف وخارجها ، وانقطع الماء ، وانحصر شرب الماء بالابار المالحة وبما تساقط من الأمطار وشحّت الحبوب ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً حمل بعض الأدباء ان يؤرخ الحادثة بالكلمتين التاليتين : (حصار وغلا) — ١٣٣٦ هـ .

وكان أخي عباس يشارك في اجتماع الجمعية ويشارك في الحرب بالبندقية التي كنت قد رأيتها ذات مرة في المدرسة ، وكانت بندقية روسية تعرف(بالمسكوفية) نسبة إلى مسكو ، وذات مشط بخمس خراطيش ، وقد ظلت ترافقه إلى اليوم الأخير ، وأدرك الثوار خيبتهم حين تدارك الانكليز أمر القبائل التي كانت تزمع النية على دخول الثورة ومع ذلك فقد أبوا الاستسلام، وصمموا على أن يحاربوا حتى يستنفدوا آخر ما كان معهم من العتاد وليكن بعد ذلك ما يكون ، وطال الحصار حتى بلغ ٤٨ يوماً لقيت منه النجف الأمرّين ، والشيء الكثير مما لا يوصف من الجوع والعطش والمشقة ، وكان الانكليز يتوقعون من الحصار مثل هذا وأكثر ، وكانوا يحاذرون أن يوجهوا مدافعهم إلى المدينة لئلا يثيروا الرأي العام الاسلامي باعتدائهم على مدينة مقدسة عند المسلمين وانما كانوا يحاربون بالرشاش والبنادق .

وكان هناك معقل من أهم المعاقل وهو المسمى (بجبل الحويش) ، ويعتبر مفتاح الظفر لمن يستطيع احتلاله ، وكان الثوار يتناوبون على حراسته فلكل محلة من محلات النجف الأربع ليلة واحدة تتسلّمه المحلة من المحلة الاخرى لئلا تتسلقه جيوش الانكليز فتسقط بذلك المدينة بأيديهم . ويوم جاءت النوبة لمحلة الحويش ، وآل الأمر إلى آل السيد سلمان تخلوا عن حراسة الجبل وتركوه وقد قيل أنه جرى ذلك باتفاق مع الانكليز وفي الوقت المعين ، وسرعان

ما احتل الانكليز هذا المعقل بعد أن سلّطوا عليه المدافع تحت رؤية رؤساء القبائل الذين جاؤوا بهم ليروا بأم أعينهم بأن المدافع لم توجه إلى المدينة ليجوز اتهامهم بضرب المدينة المقدسة ، ولم تلبث المدينة أن أصبحت كلها تحت اشراف الجيوش الانكليزية ، وأدرك الثوار ان الثورة قد فشلت ، فهمّ البعض بالخروج من النجف فألفوها محوطة بالأسلاك الشائكة،لذلك لجأ كل واحد منهم إلى مخبأ من المخابىء لينجو بنفسه ، وتولى آل السيد سلمان زعامة المدينة كلها والبحث عن العاملين في الثورة ومال اليهم عدد غير قليل ممن أسهموا في الثورة وكانوا من المعتمد عليهم في الجمعية التنفيذية ! !

وانقلبوا يبحثون عن الثوار ويخرجونهم من مخابئهم ويسلمونهم للانكليز ، ومن هؤلاء كان (تومان عدوه) وصاروا يشاركون آل السيد سلمان في البحث عن الثوار وتسليمهم للسلطة تغطية لمشاركتهم في الثورة ، والحق أنه لم يكن كل آل السيد سلمان على هذه الوتيرة فقد كانت بينهم عناصر وطنية لم ترض بموقف أسرتهم من تأييد الانكليز ومن هؤلاء كان السيد كاظم السيد علي ، وكان والد المحامي محمد رضا السيد سلمان وغيرهما ولم يكن لهم من القدرة ما يستطيعون بها أن يصدوا السيد مهدي السيد سلمان زعيم الأسرة عن الاندفاع في مؤازرة الانكليز ، وقد أفرط الباحثون عن الثوار في القسوة ، فكووا أيدي النساء بالحديد لحملهن على الاعتراف بمخبأ المختبئين ، ومن هؤلاء النساء اللاتي كويت أيديهن بالجمر كانت أمّ (عباس علي الرماحي) أحد رؤساء محلة البراق التي اضطرت تحت هذه القسوة أن تدلّ على مخبأ ابنها .

وكانوا يسوقون المقبوض عليهم تحت الضرب ، والركل ، والصفع بالنعال على رؤوسهم ، ويسلمونهم بهذه الكيفة للانكليز خارج سور النجف ، فيتسلمهم أولئك مكبّلين ، ويشدونهم بالحبال إلى الخيول التي كانت تسحبهم كما تسحب الأثقال او العربات فيهرولون خلف الخيل لاهثين وهم مكتوفي الأيدي ليقطعوا عشرة كيلومترات على هذه الصورة حيث (الكوفة) التي تقيم فيها القيادة العسكرية الانكليزية ، ويدخلونهم هناك المخيّم المعدّ لسجنهم، ريثما تحل

محاكمتهم من قبل القيادة العسكرية .

وحين تم احتلال (جبل الحويش) ولجأ كل واحد إلى مخبأ من المخابىء فكّر أخي عباس في أن يختبىء في بيت يتصّل بنا برحميّة بعيدة عنا وبعيدة عن احتمال تفتيش بيتهم حين يجري تفتيش بيوت أرحامنا ، وأسرتنا ، بحثا عنه ، فتزيّا بزي امرأة ، وقصد مع أمّه بيت أولئك الارحام ، ولم يكن يسكن هذا البيت غير امّ وبناتها ، فخشيت الام على نفسها وبناتها إن هي آوت أخي في بيتها ، واعتذرت بشيء كثير من الخوف عن قبول أخي عندها ، ولكن أمي طلبت منها أن تؤويه ليلة واحدة لتدبر أمره مع غيرها ، وأقسمت عليها بأن يظل الامر مكتوماً ، فأقسمت قريبتنا على ذلك ، وجاءت أمي تخبر أبي بفشل هذه الطريقة ، وسرعان ما اجتمع في بيتنا في تلك الليلة أحد أعمامي ووالد قريبتي وابن عمي الشيخ سعيد الخليلي ، وأخوه الشيخ أحمد الخليلي ، وصهرنا الشيخ علي الحولاوي للمذاكرة فيما ينبغي أن يفعلوا ، وكان من رأي أبي الاتصال بحميد خان معاون الحاكم العسكري ليجري تسليم أخي عن طريقه لعله يتمكن من تخفيف عقوبته لدى السلطة ، ولكن عمي وابن عمي وصهرنا قالوا له حذار أن يمرّ هذا الفكر في خاطرك ، فان فعلت هذا ، فمعنى ذلك انك قد سلّمت ابنك بيدك للاعدام ، ذلك لأن حميد خان لن يستطيع بأي وجه أن يفعل شيئاً مع القادة الانكليز ، والاحسن قال ابن عمي الشيخ سعيد ان في بيتنا صندوقاً خشبياً من الصناديق التي تجيء من السويد على أغلب الظن مشحونة بعلب الكبريت فقد كان ابن عمي هذا يعمل في التجارة ، قال من الاحسن ان نحفر في سرداب البيت حفيرة تسع هذا الصندوق فنغطّيه بالتراب ، والقش ، ونترك جانبا منه يسع المرء ان يدخله ويخرج منه ويكون اخي هناك مجاوراً لهذا الصندوق لا يبارحه ، حتى اذا أحس بطارق يطرق الباب دخل الصندوق وغطي بلوحة هناك ، ثم ألقي على اللوحة بزنبيل من التراب ، ثم بزنبيل آخر من القش للتمويه ، إلى أن يتم التفتيش فيزاح القش حينذاك ويملأ به الزنبيل ، ثم يزاح التراب ويملأ به الزنبيل الثاني استعداداً للتفتيش الثاني ،والثالث ، الخ ، وأيّد عمّي هذه الفكرة ، وأيّدها صهرنا الشيخ علي الجولاوي ، بعد أن ألقوا نظرة على

السرداب ، وعيّنوا الموقع الذي يجب أن يتم الحفر به ، وهو موقع يقع نصفه الأكبر تحت أساس البيت وإلى جوار الحائط وباقي الصندوق يكون خارج الأساس مما يلي حائط السرداب ، أي أن يدخل جل الصندوق تحت جدار السرداب مما يلي الأرض ولا يبقى منه خارجاً الا بمقدار الفوهة التي تغطّيها اللوحة ويستّرها التراب والقش .

وكان لنا سردابان في البيت أحدهما للنوم في الصيف ، والثاني كنا قد اتخذناه مخزناً للحطب ، فقد كان طبخنا للطعام يجري بواسطة الحطب الذي كنا نخزنه إلى جانب ما كنا ندخره من الحبوب ، إلى جوار كوزين من المـــاء مدفونين في الأرض إلى حد نصفهما كان السقاؤون يملأونهما كلما فرغا ، إلى غير ذلك مما يترك الحطب من القش الذي يغطّي قاعة السرداب والذي تبلغ درجاته في نحو العشرين درجة على أغلب الظن .

وتعين المكان الصالح لهذا العمل في جانب من هذا السرداب وإلى جوار الحائط وبدأ الحفر بما تيسر لهم مما كان في البيت من الالات ، والأدوات ، وبما جيء به من بيت عمي مع الصندوق . وكانوا يحملون التراب إلى السرداب الثاني ، فيفرشون به أرضه التي لم تكن غير أرض رملية ، ثم يحرثون تلك الأرض لحدّ ما لئلا يكون هذا التراب الجديد مبعث شك عند من يدخل السرداب ويجري التفتيش فيه .

وعمل هؤلاء الثلاثة طوال تلك الليلة في الحفر . ونقل التراب ، من هذا السرداب إلى السرداب الثاني ، وأدخلوا الصندوق في الحفيرة وجرّبوه بدخول أحدهم فيه ، ومكثه نحو ربع ساعة وأكثر . حتى اطمأنوا من نجاح الفكرة عند الصباح ، وأرسلوا هناك أمّي لتأتي بأخي وهو في زيّ امرأة ، ومحجّب بالحجاب الشديد . وبعبائتين احداهما تلبس على الأكتاف والاخرى على الرأس ، وهكذا كان حجاب المرأة النجفية يومذاك لا يبين منها شيء حتى الاكف والاصابع ! !

ودخل أخي الصندوق وجرّبت أمه فرش التراب ، والقش ، من فوق مدخل الصندوق لكي تتساوى أرض السرداب في شكلها ، وسلّموا بنجاح التجربة ، وفرض على أخي مجاورة هذا الصندوق ، حتى اذا أحسّوا بالطارقين للباب ، دخل أخي بسرعة في الصندوق ، والله الحافظ بعد ذلك .

وقد رافقهم حسن الطالع . وساعدهم الحظ على التبكير في تنفيذ خطة الصندوق . ولو تأخر الأمر إلى الليلة الثانية لكان قد تم القبض على أخي ، ولسيق بتلك الصورة التي كانوا يسوقون بها المقبوض عليهم حتى يصلوا إلى مخيّم الاعتقال إلى الكوفة ، اذ ما كادت تحين الليلة الثانية من استسلام النجف حتى داهم جلاوزة السيد مهدي السيد سلمان الذي تزعّم النجف وتزعّم الذين عهد اليهم التفتيش والقبض على زعماء الثورة والاعضاء البارزين منهم وكان على رأس هؤلاء المداهمين تومان عدوة الذي كان قد تعهّد بالقبض على عباس الخليلي اتقاء من القبض عليه نفسه ، فقد كان (تومان عدوة) من أقرب الناس إلى عباس الخليلي . وأوثقهم عنده . والمعروف أنه كان من أكثر الثوار جرأة ، ولكن الخوف من سوء المصير الذي لم يعرف شيء عن حدوده قد دفع به لأن يتحمس في التفتيش عن رفاقه في الثورة ، ويتعهد بتسليم الخليلي إلى السلطة ، ويبدو ان السلطة كانت تعرف كل شيء عنه ، ولكنها أرادت أن تفيد من نشاطه في استقصاء آثار الثوار ثم تقبض عليه بعد ذلك .

ودخلت هذه الزمرة — من أتباع السيد مهدي السيد سلمان الذي تولى زعامة النجف كلها — دارنا ليلاً يفتشون عن أخي عباس فتلقّاهم أبي والفانوس بيده ، منكراً أن يكون له علم بابنه ، وأخبرهم بأن أخي عباس لا يساكننا في دارنا منذ سنين بل ولا يمرّ بنا وانه غير مرضي عنده ، وقد نزل هؤلاء السرداب يفتشون عما اذا كان هناك مخبأ يصلح للاختباء كما طافوا بالغرف فلم يجدوا شيئاً غير طبيعي وكان هذا في نحو الساعة العاشرة ليلاً .

وما مرّت ساعتان أو ثلاث ساعات من الليلة نفسها حتى كان البعض من هؤلاء يتسلقون سطح بيتنا من الدور المجاورة وينزلون علينا من فوق السطح ،

ثم يطرق البعض الاخر الباب ليطلّ القادمون من السطح على البيت ويتجسسوا على ما فيه من حركة ، وصوت ، قبل أن يفتح لهم باب السطح للنزول إلى ساحة الدار ، ولكن أخي كان يجاور فوهة الصندوق وأمي ساهرة بجواره ، وقد تلقاهم أبي كما تلقاهم من قبل منكراً أن يكون له أي علم بابنه ، وأي رضى بافعاله ، وقد أخبرهم بأن هذا التبرّأ من ابنه كان قد أعلنه لحميد خان منذ مدة طويلة وانه مستعد لمواجهة حميد خان وتذكيره بذلك . وطافوا بالبيت مرة اخرى ، ونزلوا السرداب الأول ، والسرداب الثاني ، فلم يعثروا على شيء ، وكانت أمي تنسب عجزهم عن العثور على أخي إلى الدعاء الذي كانت تدعو به ، والصلاة التي كانت تصليها إلى الله من أجله ، وإلى آية الكرسي التي كانت تقرأها في كل يوم وليلة عشرات المرات وتنفخ بها عليه وعلى مخبئه .

وفي النهار تجدد الفحص والبحث ، وأوجسوا من بئر البيت خيفة ، والآبار في النجف لا يخلو بيت منها . وهي عميقة ، ومظلمة ، وقد يبلغ عمق البعض منها خمسين متراً وأكثر ، ولما كان (تومان) يعلم عن قابليات أخي الرياضية أشياء كثيرة ، وأنه يحسن النزول إلى أعماق هـذه الابار بسهولة قد يعجز ان يأتي بمثلها (النزّالون) المستأجرون للنزول في الابار حين يسقط فيها غرض من الاغراض ، اذ كانوا يربطون حبلاً طويلا بالبكرة التي تقوم على كل بئر ، وبالاستعانة بهذا الحبل الذي يصل بهم إلى أعماق الابار ينزلون البئر ، ويستخرجون ما يسقط فيها ، أما أخي فكان ينزل البئر دون الاستعانة بشيء غير قدميه يضع احديهما في طرف البئر ، والثانية قبالها ، ويستعين بذراعيه اللتين يؤلف منهما قطر البئر ، وينزل بسرعة معتمداً قدميه ، وكفيه ، ويصعد على هذه الكيفية ، وهذا ما يقوله عارفوه ، أما أنا فلم أشهده نازلاً من بئر او صاعداً منها .

أقول ولما كان (تومان) يعرف مثل هذه القابليات الرياضية عن أخي فقد هدّد أبي بأنهم سيطلقون الرصاص في البئر ، ويقتلونه فيها اذا كان مختبئاً في البئر ، والأحسن له أن يعترف بالواقع ، فكان أبي يعود فيؤكد لهم برائته من أخي ، وعدم معرفته به ، فيأتون بأحد (النزّالين) وينزلونه في البئر ، ويصعد بعد

دقائق ليخبرهم بأن ليس هنالك من أثر ، وقد طالت هذه العملية بعض الشيء فكاد أخي يختنق في الصندوق لقرب نفاد الهواء كله .

وعاد هؤلاء يطرقون البيت ، ويطلون علينا من سطوح الجيران ، وان بيوت النجف مكشوفة وليست على طراز البيوت التي تشبه الشقق التي تطبق عليها سقوفها في هذه الأيام ، وقد جرى على بيوت الاسرة وبيوت أصدقاء أخي بعض ما جرى على بيتنا من الشدة في التفتيش والمضايقة بحثاً عن أخي .

ولم أدر كم استغرق التفتيش من الليالي والأيام فقد استمر طويلاً في الليل والنهار وقد تم القبض على جميع زعماء الثورة ، والبارزين منهم ، ولم يبق أحد غير أخي عباس ، أما الشيخ محمد علي الدمشقي فلم يعرفوه ، وكان معروفا باسم (الشامي) وفي النجف أسرة معروفة بهذا الاسم ، ولكن الشيخ محمد علي لم يكن منهم فبحثوا بين هذه الأسرة عنه فأنكروا أن يكونوا يعرفون عنه شيئاً ، فقد كان الرجل دمشقياً ، وكان طالب علم ، وليس هناك من يعرفه غير طلاب العلم وهذا ما لم يعرفه الباحثون ليتحققوا عنه مع طلاب العلم .

ولصقت السلطة فوق الجدران ، وعلى أبواب الصحن الشريف ، وأبواب المساجد العامة انذاراً للذين يعرفون شيئاً عن الخليلي ولم يخبروا السلطة عنه ، كما خصصت خمسة الاف ربية لمن يدل عليه ، ولكن البحث طال واستمر أياماً ، وخشي (تومان عدوه) الذي كان قد تعهد بتسليم عباس الخليلي بيده، لقد خشي أن يؤدي فشله إلى القبض عليه نفسه ويئس تماماً وتيقن أن الخليلي لم يختبىء في بيته فعمد إلى دفاتر ، وأوراق ، ورسائل كان أخي يضعها في رف خاص من (الشناشيل) في البيت . فجمعها كلها ووضعها في خزانة لنا كانت في الجدار وطلب منا قفلاً ، وشمعاً ، وخيوطاً ، وأقفل الخزانة ولف على القفل الخيوط وأذاب الشمع فوق الخيوط الملفوفة فوق القفل ، وبالخاتم الذي كان يحمله بأصبعه والذي كان قد ختم به وثيقة القسم في الانضمام إلى احدى اللجان التنفيذية من (جمعية النهضة الاسلامية) ختم به هذا الشمع ، وقال لوالدي ان السلطة

ستعقد غداً لجنة لفحص هذه الأوراق فاياكم أن تمسّوا هذا القفل او الخيوط وتعبثوا بها ، وكان الوقت في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل .

وكان والدي قد سأل أخي غير مرة عما اذا كان في أوراقه من وثائق ، أو رسائل سياسية ، أو أي شيء يستوجب الخوف عليها ؟ فأنكر أخي ان يكون لديه شيء من هذا ، لذلك كان أبي مطمئنا كل الاطمئنان بأن ليس فيما فعله (تومان) وجلاوزته من بأس او ضرر . ولكن ما كاد يخرج (تومان) من البيت هو وأصحابه حتى خرج أخي من مخبئه . وقد علم بما وقع ، فانبرى إلى القفل فكسره ، وقطّع الخيوط ، وفتح الخزانة ، وأخرج تلك الأوراق ووضعها في وسط البيت وأحرقها ، فجنّ أبي لما فعل أخي وفي وسط ذلك النقاش الحـاد والصراخ بين أبي وأمي وأخي قال أخي :

ـ ان في هذه المجموعة من الوثائق والأسماء ما يجعل المئات من الناس عرضة لانتقام السلطة ، وقد تكون بعض أحكامهم الاعدام ، فكيف تريدونني ان لا أفعل هذا ؟

قال أبي ولِمَ لم تقل لنا ذلك وقد سألتك مرات عنه ؟ قال أخي لقد انتهى كل شيء ، وأنا مصمّم غداً على تسليم نفسي .

وبكت أمه ، ورفعت يديها إلى السماء بأن يرحمنا الله وينجينا من هذه المحنة وقال أبي ان الحلّ هو أن أقول للجند غداً عندما نجتمع هنا بأنني أنا الذي كسرت القفل وفعلت ذلك . ولتبق أنت في مخبئك فقد بدأ التفتيش يخف عن البيت ولا يلبث أن يستولي اليأس على هؤلاء ويتركونا ، ويتركوا بيوت الأسرة ، والاقارب ، والأصدقاء ، ولكن أخي كان قد سئم . وأبى ان يجعل أباه في ورطة لينجو هو بنفسه ، فلم يفد إلحاح أبي وأصراره . وبكت أمي كثيراً وصلّت إلى الله كثيراً . والله وحده يعلم كيف مرّت تلك الليلة على هذا البيت ، وعلى الأم خاصة . وأخي عنيد ، قوي الارادة ، لا يستطيع أحد أن يرده عما صمّم . كما سبق لي ان وصفته .

وأصبح الصباح وأخي لم يعد يجاور مخبأه . لأنه كان قد صمم على تسليم نفسه للسلطة . وأقسم بأنه لن يسلّم نفسه تسليم الذليل ويدع هؤلاء ان يفعلوا به ما فعلوا بأولئك الذين قبضوا عليهم . وانما سيقتل (توماناً) بالبندقية التي كان قد خبأها معه في الصندوق . وقارب الوقت أن يكون ضحى . ولا خبر من اللجنة . ولا أثر . ونحن في مثل هذا الحال واذا بعمي يدخل علينا ، ويقول لنا لقد حلّت البشرى فقد قبض على (تومان عدوة) ليلاً حين يئسوا من عثوره على عباس الخليلي . ويبدو ان القبض قد جرى عليه قبل اخباره السلطة بقضية الأوراق والخزانة . فسجد أبي لله شكراً . وبكت أمي . وعزت كل ذلك إلى صلاتها ودعواتها .

وتحول التفتيش إلى المسؤولين من محلة العمارة . ولم يعد (للحويش) من سلطة . وان كانت الزعامة العامة قد نيطت بزعيم الحويش السيد مهدي السيد سلمان .

وكان أهل العمارة لطافاً . وكانوا كثيري الاحترام لنا . فكانوا يطرقون الباب ويعتذرون من أبي بأنهم انما مؤدون فرضا مفروضاً عليهم من قبل السلطة . وكان معظمهم من (البوكلل) و (العكايشيين) حتى ساد اليأس الجميع ، وكثرت الروايات والأقوال . واعتقد الكثير ان أخي استطاع أن يفرّ من بين الاسلاك . ويهرب من فجوة معينة ، وتنفس أبي وأمي الصعداء ، وظلت الحيرة في كيفية خروج أخي من النجف .

أما الذين قبض عليهم فقد حكم على ١٤ شخصاً بالاعدام ونفذ الاعدام في احد عشر منهم . وتدخل الشيخ خزعل أمير المحمرة متشفعاً للسيد محمد علي بحر العلوم رئيس (جمعية النهضة الاسلامية) ، ونائبه الشيخ محمد جواد الجزائري ، وحكم على أخي بالاعدام غيابياً . وتم نفي ١٠٥ أشخاص من أعضاء الجمعية ، والعاملين في تنفيذ قيام الثورة إلى مدينة (سمرپور) في الهند .

* * * *

الان وقد خف التفتيش عن أخي بعد أن استولى على الباحثين اليأس ، وقد أيقنوا ان من المحال أن يكون أخي في النجف . اذ لم يبق أحد ممن كان له أثر بارز في الثورة دون أن يقبض عليه .

وكان الناس قد بدأوا يخرجون من النجف إلى الكوفة ليستجمّوا بعد ذلك الحصار ، والهول ، ولكن الخروج لم يكن بامكان كل أحد، وانما يجب الحصول على الاجازة من السلطة ليتم لمن يريد الخروج من باب المدينة ، وللحصول على هذه الاجازة التي كانت تسمى (بالپاص) والتي دخلت الأغنية الشعبية التي كانت تتردّد على الألسن وتقول :

(يوخالي ما يمشيش يوپاصه بيده)

أي أنه لا يستطيع أحد أن يمشي دون أن يكون حاملا اجازته ، وارتأى أبي بالنظر لصداقته لحميد خان ان يحصل على اجازة (پاص) باسم أمي وابنتها لتخرجا من النجف ، وتقرر أن يتزيّا أخي بزي امرأة محجّبة بالحجاب الكثيف الذي كانت نساء النجف يوم ذاك تتحجب به ، ولا يبين منهن حتى أطراف اصابعهن ، وخرجت به . ولم تكن الوسائل من الحمير مهيئة في تلك الفترة ليركباها إلى الكوفة ومنها إلى (عبرة أبو شوره) — العباسيات اليوم — لكي توصل أمي أخي إلى (ام حيايه) وهي اسم موطن السيد فرهود الذي ورد اسمه من قبل ليلقي هناك بعبائته ، وثيابه النسوية ، ويعتمر عمامة سوداء ، وعباءة ، وحذاء ، وقد جاءت أمي بكل هذا معها وليتجه من هناك إلى ايران عابراً (هور بن نجم) ومتجهاً إلى (عفك) ومنها إلى (البغيلة) — النعمانية اليوم — ومنها إلى (بدرة) والحدود الايرانية .

وقطعت أمي طريق الكوفة ماشية على قدميها ، وهي لم تألف هذا النوع من الرياضة ، وليست بقادرة على أن تقطع عشرات الأمتار على قدميها . فكيف بعشرة كيلومترات ؟ ولكن محبة الأولاد . والعواطف التي اختصت بها الأم الرؤوم لتحملها على اجتياز عشرات الكيلومترات على قدميها دون أن تحس

بالتعب . أما هو فقد اعتاد قطع مسافات طويلة ليس طريق الكوفة وطريق (أبو شورة) التي تبعد عن الكوفة بضعة كيلومترات بالشيء الذي يذكر إلى جانبها .

* * * *

ووصلا (الكوفة) وقد أخذ التعب من أمي مأخذه ، ورأت أن تسير به وهو لم يزل محجّباً يخفي وجهه تحت قناع سميك . ويلتف بعبائتيه باحكام ، لقد رأت أن تسير به إلى مسجد (النبي يونس) ليريحا نفسيهما من تعب الطريق وليتناولا بعض الشيء مما جاءا به معهما من الطعام .

وكان مسجد النبي يونس مكتضاً بالنفوس وبالنساء خاصة وما كادا يجلسان حتى التفتت احدى النساء وسألت أمي قائلة :

ـ ما بال هذه المرأة محجبة كل هذا الحجاب ؟ وهي في وسط النساء وليس في هذه الزاوية من رجل لكي تحاذر منه ؟ فقالت لها أمي : انها ابنتي وهي خرساء ، وخجول ، وقد اعتادت مثل هذه العادة حين تخرج من البيت .

ولكن امرأة اخرى قالت لها انظري اليها انها تجلس جلوس الرجال فأخشى أن تكون رجلاً وقد هربت في زي امرأة ؟ وما كادت أمي تسمع بهذا حتى أسرعت بالخروج من مسجد (النبي يونس) وقصدت به داراً لبعض أرحامنا من النساء ، وهناك قصت على قريبتنا بأن الذي معها ليس الا أخي ، وهي تريد ان تؤويه لساعتين يستجمان فيهما الراحة ويتناولان غداءهما ويعبران النهر إلى ضفته الاخرى حيث طريق (أبو شورة) . ففتحت قريبتنا احدى غرف البيت وقالت لأمي ان زوجي على وشك المجيء إلى البيت والراجح عندي أن لا ندعه يعرف شيئاً من هذه القصة ، لا سيما وهو غريب عنا .

وانتشر خبر وجود رجل في زي امرأة بمسجد (النبي يونس) لقد انتشر الخبر بسرعة البرق واذا بالشرطة تحيط بالمسجد ، وتدخل بهوه ، وتستعين بامرأتين

للقيام بتفتيش النساء ، فلو كان قد تأخر أخي ساعة . بل وأقل من ذلك عن الخروج من المسجد لتم القبض عليه !

وبعد الظهر تم لأخي أن يخرج مع أمه من بيت قريبتنا متجها إلى النهر حيث عبر النهر إلى الضفة الاخرى بوساطة احدى السفن التي كانت تتولى العبور ذاهبة ، آيبة ، لقاء أجور زهيدة .

وكم كانت مصادفة غريبة أن يلتقيا عند عبورهما النهر بالسيد فرهود وقد أخبرهمابأنه قد جاء خصيصا إلى النجف ليطمئن علينا بعد هذا الحصار الطويل . ولكي يعرض علينا الخروج من النجف . فقالت له أمي : ان هذه ابنتي معي ، أما عباس فلا نعلم عنه شيئاً ، وأما أبي فقد فضّل البقاء في النجف ، وهما يقصدان الان بيته ليقضيا عنده بعض الأيام ، فرحّب بهما السيد فرهود . ورجع معهما من حيث أتى قاطعين طريق (أبو شوره) على الاقدام .

ولم يكن أخي يحسن مشي النساء كما لم يكن يحسن التحجب . لذلك لا يبعد ان يلفت النظر لمن يتعمق فيه ، وفي الطريق رآه شخص اسمه (عباس آل صكّطري) وهو من القبائل ، وكنا نعرفه وقد حدثني عباس الصكّطري هذا بعد ذلك ، كما حدثني السيد فرهود نفسه بأنه شك في مشية أخي وظنها رجلاً ، ولا بد أن يكون من الهاربين من وجه الانكليز وذلك لكثرة من تزيّا بزي النساء من ثوار النجف وقبض عليهم داخل المدينة ومن هؤلاء كان كريم الحاج سعد ، وشاع أمرهم بين الناس فقال لي (عباس آل صكّطري) بأنني طمعت بأن أحصل على جائزة من الانكليز ان أنا كشفت لهم عن هارب متحجب . وحدثتني نفسي ان أستخير الله قبل ان أرغم هذه المرأة على فك حجابها أو التحدث اليها . فدنوت من السيد فرهود ، يقول عباس الصكّطري بعد ان سار خطوات وتميزت خطوات هذه المرأة ، فقوي عندي الشك . لقد دنوت من السيد فرهود طالبا منه أن يستخير لي الله بسبحته لنيّة انتويتها في نفسي . فوقف السيد فرهود وسمى بالله ، ودعا ، وسحب خرزات السبحة بين أصابعه . وقال ان الاستخارة

لا تشير عليك بتنفيذ ما نويت ، فتركته وأنا أنظر من خلف ، وقد تحقق عندي ان هذه المرأة رجل وليست امرأة ، فحدثتني نفسي ان أعود فاستخير الله عند السيد فرهود مرة اخرى ، ولكن الاستخارة لم تشر علي بالعمل مرة اخرى ، ومضى السيد فرهود بالمرأتين ومضيت أنا وكلي يقين بأن المرأة هذه لم تكن امرأة ، ولكن الله لم يشأ لي ان أربح شيئاً من هذه اللقطة ، وأقسم عباس الصكّطري انه لو كان يعلم بأن المتحجب هو عباس الخليلي لساعد كثيراً في اخفائه والله أعلم .

ووصلوا (أبو شورة) بعد قطع بضعة كيلومترات من الكوفة . وصار عليهم أن يعبروا ضفة نهر الشامية إلى الضفة الثانية بسفينة معدّة لهذا الغرض ، وهم في السفينة يهمّون بالعبور وقف واحد من أهل (أبو شورة) يشكك في أمر المرأة . ويطلب أن تكشف عن وجهها لاحدى النساء للاطمئنان من انها امرأة . وليست رجلاً من هؤلاء الذين بدأوا يتحدثون عنهم في النجف ، ولكن صاحب السفينة واسمه (جهلول) وقد رأيته انا بعد ذلك بسنين ، طلب من الرجل أن يستغفر الله وأن لا يعرّض الحرمات للانتهاك . ويصلي على النبي ويذهب لشأنه ، وقد هداه الله فانصرف عن السفينة وعبرت السفينة بالناس ، وحين تمّ عبورهم إلى الضفة الشرقية من نهر الشامية ، كان عليهم أن يقطعوا نحو كيلومترين ليصلوا إلى دار السيد فرهود ، وهناك والطريق قد خلا من المارّة فتح أخي عباس وجهه في وجه السيد فرهود واذا بالرعب يسيطر على السيد فرهود ، واذا به يعاتب أمي لأنها كادت تلقي به إلى التهلكة باخفائها أمر أخي عنه، وانه لن يتقبل دخـــول أخي في منزله . وان عليه أن يلزم طريق الهروب قبل أن يعرض السيد فرهود وآله للخطر ! !

وهناك فتحت أمي – وهي تحت ظل احدى الأشجار – الصّرة فأخرجت منها الثياب المعدّة خصيصاً ، والعباءة السوداء ، والمسبحة الحسينية ، وقد مالت الشمس نحو الغروب فألبسته هذه الثياب التنكرية ، التي تجعل منه (سيّداً) روحانياً ، قريباً من المتصوفين ، وبين النحيب ، والبكاء ، والتوديع ، أخرجت له أمي خمس ليرات ذهبية هي كل ما كان يملك أبي ويدخر من دنياه ، وقالت

له هذه الكلمة التي طالما ذكّرتنا به وهي : « ودعتك بيد الله العزيز القدير » .

أما السيد فرهود فقد هرب ، وأما أمي فقد يممت دار السيد فرهود مقتفية أثره وذلك لاستحالة رجوعها إلى النجف وقد مالت الشمس نحو الغروب وقد قضت في بيت السيد فرهود ليلة واحدة مرغمة وذلك لما لقيت من تجهم وجهه ، وغضبه ، وثورته ، لكونها كادت تنسف له بيته لو علم الانگليز بأنه ممن شارك في تهريب أخي عباس .

* * * *

ولزم أخي عباس طريق (هور بن نجم) وهو بحيرة كبيرة لم يبق اليوم منها الا مسارب قليلة لمياه المزارع وقد بات ضيفا في تلك الليلة — كما حدثني — في خباء لرعاة غنم وجدوا في نسبه العلوي —الدالة عليه عمامته السوداء — شفيعاً عند الله ، فأكرموا مثواه ، وطلبوا منه أن يدعو الله لهم بالخير ، والبركة . ففعل ذلك ، بعد ان أطال الصلاة والتسبيح ليضمن توجههم اليه وعنايتهم به .

وفي الصباح بلغ (هور بن نجم) حيث يجري من هناك العبور كما جرى في نهر الكوفة ، ونهر الشامية ، فألفى صاحب السفينة ومن كان يزمع العبور في شبه صخب ، ولعن ، وقد علم ان (الشبانة) وهو اسم الشرطة حينذاك قد مروا هناك بنقطة العبور ، وفتشوا ركاب السفينة ، وصاحبها ، وحققوا معهم لئلا يكون بينهم شخص هارب ، وبعد جدل وتحقيق تركوهم لحال سبيلهم ولو كان أخي قد وصل قبل ساعتين إلى المعبر لما أمن على نفسه من هذا التحقيق ، ولانكشف أمره لا محالة ، ولكن الله شاء له أن ينجو . وظلت السفينة تنتظر أن يتكامل العابرون لتعبر ، ذلك لأن عبور البحيرة كان يستغرق وقتاً طويلا ، وليس بامكان السفينة أن تعبر بالقليل من الناس ، فلا بد لها أن تنتظر لتجمع عدداً أكبر من العابرين .

واجتاز برّ الديوانية عن طريق (الدغارة) وقد يكون عن طريق (عفك) مستكرياً هناك دابة وبرفقة بعض الذين كانوا ينوون السفر إلى البغيلة (النعمانية

اليوم) ، أما ما قبل ذلك فقد قطع كل تلك المسافة ماشياً على قدميه .

وفي (البغيلة) كان يبحث عن قافلة تقطع به الطريق إلى (بدره) ، ليكون هناك قريباً من الحدود الايرانية فيدخل هذه الحدود ويأمن على نفسه لحد ما ، أقول لحد ما ، لأن الانكليز كانوا قد توغلوا في ايران وكانت لهم فيها ثكنات ، ورباط ، وان الهارب منهم هنا ، ربما تم القبض عليه هناك ، وذلك لضعف الحكومة الايرانية وعدم قدرتها على مجابهة الانكليز .

وفي (البغيلة) وقف أخي يقرأ بعض ما الصق على الجدران من الاعلانات وقد رأى البعض يجتمعون ليقرأوا أوصاف عباس الخليلي في طوله ، ولونه ،وسحنته ، من لدن السلطة الانكليزية وتقديم خمسة آلاف ربية لمن يدلّ عليه فوقف هو معهم يقرأ الاعلان بصوت عال ليبعد الشبهة عن نفسه .

وفي طريقه الى بدرة دنا أحد المسافرين بحماره اليه وقال له : اني عرفتك ..؟

فكاد أخي يصعق لهول ما سمع لو لم يتم الرجل كلامه ويقول له : اني عرفتك فأنت جاسوس انكليزي .

فتنفس أخي حينذاك الصعداء وقال له : أقسم عليك بحق جدّي رسول الله أن تكتم الخبر عن الناس ، وقد فرح غاية الفرح بهذه التهمة التي ستبعده كثيراً عن الشك في أمره وتزرع الخوف منه في نفوس القافلة .

وفي (بدرة) مرّ هناك ببيت صديق وجيه كنا نعرفه لكي يستعين به على الهرب نهائياً بعد أن أصبح على قاب قوسين أو أقرب من الحدود الإيرانية ، فلم يجد الرجل المطلوب ، لذلك صمم على أن يقطع الطريق ويسأل من يرى فيه عن النقطة التي يروم الوصول اليها ، وهكذا قفل ماشياً على قدميه حتى بلغ «كرمنشاه) ومن هناك قصد مدينة (رشت) في الشمال ، ولم يلبث أن التحق بفئة من الثوار الذين كانوا يسعون لمهاجمة الانكليز وكانت روسيا لقربها منهم تشجعهم على ذلك وقد عرفوا باسم (برادران جنگلي) وكان يرأسهم(الميرزا كوچك خان) واندمج

أخي معهم وفي ذات ليلة قامت هذه الجمعية بحملة كبيرة على فوج من الجيش الانكليزي الذي كان يرابط على مسافة قريبة ولم يحسبوا الحساب الكامل لهذه الحملة اذسرعان ما سلط الفوج نيرانه الحاميةعليهم فأصاب الكثير منهم ،وانسحب الثوار بعد أن تركوا في الميدان عدداً كبيراً من القتلى والمجروحين ، وأدرك أخي انه لم يحسن وضع قدمه ، وان ليس هذا بيت الفرس على حد التعبير المألوف فهرب من هناك بعد أن فشلت ثورة (برادران جنگلي) ويمّم (طهران) وهو لم يزل على عمّته السوداء ، وثيابه ، وسبحته . ونزل في مدرسة من المدارس الدينية المعروفة بمدرسة (مرو) باسم السيد علي ، وقد رأى فيه أهل المدرسة قابلية عجيبة في الدروس العربية والمقدمات فما لبثوا أنخصوه بغرفة في هذه المدرسة وشملوه بالمنحة التي كان يتقاضاها طلاب هذه المدرسة شهرياً وهي تومانان أو ثلاثة تومانات على ما أظن . وهو مبلغ يكاد لا يكفي لطالب للخبز وحده . ولكنها كانت نعمة ونعمة كبرى له ، وكتب لأبيه من هناك يعيّن له اسمه ، وعنوانه اذ لم يزل في خوف من أن يكشف اللثام عن اسمه الحقيقي ويلقي بالعمامة السوداء جانباً ، فهو الان معروف باسم السيد علي . ونحن نكتب له بهذا الاسم الى حين تم اطمينانه ،وكشف عن هويته ، وقال لي انه كان يشتري بين أسبوع وآخر مقداراً من (الشوندر) واللفت وقد كان الشوندر واللفت رخيصاً فيسلقه ويتخذ منه اداما طوال الاسبوع لخبزه ، وقد علا شأنه في هذه المدرسة فصارت له حلقة يتولى تدريسها ،ومباحثتها وهو مقيم في هذه الغرفة .

وكانت يومذاك جريدة تصدر باسم (رعد) كان يديرها السيد ضياء الدين الطباطبائي الذي تقلد رياسة الوزارة بعد ذلك . والذي كان سكرتيراً للمجلس الاسلامي الأعلى الذي عقد في القدس . فأراد أخي أن يجرّب حظه من الادب الفارسي ، ويكتب شيئاً لجريدة (رعد) ليعرف هل أن ذلك مما يستحق النشر ؟ وما لبث أن قرأ كلمته منشورة في مكان بارز من الجريدة ، فاستمر يكتب بين حين وآخر فتنشر الجريدة له كتابته وحين اطمأن من نفسه صمم على أن يزور صاحب الجريدة . ويعرّفه بنفسه . وكم كانت دهشته عظيمة حين رأى ترحيباً منقطع

النظير من السيد الطباطبائي ، ثم لم يلبث أن دعاه للانضمام الى التحرير ، ومن هنا بدأت شهرته تظهر كأديب في الفارسية . كما هو أديب في العربية ، فهو لم ينقطع عن الكتابة للمقتطف ، والهلال ، والعرفان . ولم ينقطع عن نظم الشعر ، والشعر الوطني الحماسي خاصة .

وحين قامت ثورة العشرين الكبرى في العراق وجه الى الثورة هذه القصيدة التي نشرتها مجلة العرفات والتي يحيّي فيها أهل العراق ويقول :

على مهل

أما وغمامٍ يشبه الظلـــم أسودا ... ورعدٍ حكى قصف المدافع بالصدى
وبرقٍ يرينـــا برقه الحق خافقاً ... فسرعان ما يخفي من الطرف ان بدا
وغيثٍ همى هطلاً يذكـــرني الـــوغى ... بمثل رشاً من شأنهـــا تمطر الردى
وصدق على فقد السيـــاسة صدقها ... حداداً بمسوّدٍ من الفشل ارتدى
وعاصف ريحٍ مرّ كالموعد الـــــذي ... لنا ضرب السكسون ناهيك مـــوعدا
وليلٍ هو الحكـــم الحديدي حـــالك ... قضى لي قهراً أن أبيت مسهّـــــدا
يمينـــاً ولم يقسم فتىً قبل بالذي ... وصفت ولكني حلفت تعمّـــــدا
وأقسم بالبأس الـــذي استعبـــد الألى ... قديماً أعاروا النـــاس مجداً وسؤددا
لقد صبغت منّـــا الدما كل بقعةٍ ... زهت فبدت غنّاء في أعين العدى
أتغسلهـــا منـــا دموع جرت وما ... أخال لعمري الويل ينصاع بـــالندا
ألا لاسقت أرضَ العراقين ديمـــةٌ ... فها هي روّاها دمٌ عـــزّ موردا
ولا باكر الطلّ الزهور بهـــا فذي ... خدود الثكالى فوقهـــا الدمع نضّدا
ولا هبّ في أرجائهـــا نفس الصبا ... فكم من جريحٍ في حمـــاها تنهّدا
هنيئـــاً لأرضٍ طالمـــا ظمئت وان ... يكن ريّها من أهلهـــا زادها الصدى

• • •

ترى أي ذي حق لنا حاز حقّنـــا ... بدعـــواه أنّ المستفيـق تمـرّدا
أليس الـذي في صفـه قـام شعبنا ... وقوّم معوّج الشعوب وسـدّدا
مشى ومشينـا هـادئين لغاية ... فلمّا استقرّ النصر في جنبه عـدا
وولّى ببيداء السيـاسة تائهـاً ... ولو شامَ فيها بارقَ الحق لاهتدى
ولو عـاد يرعى للرفيق ذمـامَه ... لكنّا نرى في حقّه العودَ أحمـدا

* * *

رويـداً رجالَ الانكليز ورأفـةً ... إن اليوم أسرفتم فـانّ لنـا غدا
وان قَصُرتْ أقدامُنا عـن خطاكم ... مددنا الى ما فـوق هامكم يدا
تسديتم ثوبَ الرجـا في عروقنـا ... والحمتموا باليـأس ذيالك السّدى
ولمـا اكتسيتم ظـافرين بنصرنـا ... تجرأتمو ظلماً على سلبنـا الردا
على مهلٍ ما نحن بـالنعم التي ... ركبتم فهلّ خلتم خلقنا لكم سُدىً

* * *

يحييكم أهـل العراق على النوى ... فتىً في سبيل المجد أمسى مشرّدا
تحيّة عـان كلّما هبّت الصبـا ... ينوحُ كما نـاح الحمام مغرّدا
إن اليوم أطلقتْ اللسـان بحبكم ... فبالأمس عنكم قد سللت المهنّدا
عواطف لا تنفك تغلي بمهجتـي ... الى أن أرى فوق الصعيد موسّـدا

* * * *

والمعروف على ما روى الاستاذ ابراهيم الوائلي أن عباس الخليلي كان أول شاعر ورد ذكر فلسطين عند صدور وعد بلفور في شعره وقد حال انشغال بالي عن البحث عن هذا الشعر الذي أشار اليه الوائلي. لاسيما وأن ما أسجله هنا ليس بحثاً، وانما هو عرض لبعض ما احتفظت به الذاكرة عمن عرفتهم.

وما لبث أن اشتهر اسمه كأديب في اللغتين بالاضافة الى شهرته كلغوي في العربية والفارسية، وهو بعد ذلك يتقن الانكليزية وقليلا من الالمانية، وقد قال لي

الدكتور مصطفى جواد انه قلما رأى عالماً باللغة العربية محيطا بمفرداتها كالخليلي عباس .

وكثرت مقالاته التي نشرها في الصحف ، ثم رأى في نفسه القدرة على اصدار جريدة يومية فأصدر جريدة (إقدام) التي دامت أربعين سنة وهي حاملة لواء المعارضة ، وكان جد عنيف في معارضته لسياسة الحكومة ، لأنه كان مجبولاً على الثورة ، وان معظم شعره ليدل على هذه الروح الثورية الوثابة ، دلالة واضحة . فله من موشحة نشرتها امهات الصحف العربية يقول في مطلعها :

هل يسلّ الفجرمن غمد الدياجي صارمه فيحييّ بصليل منه نفســـاً هائمة

الى أن يقول :

ما سئمت العيش لكني للحرب أميل تحت ظل البيض ما بين صليل وصهيل
ذاك أن المرء في ذي الدار كرهاًلايدوم فببذلي نفسي العز أو الحتف أروم
عيشة الخامل لا كانت ولا كان الذليل

والى أن يقول :

لست حلس البيت يلهيه من الليل السمر انما اللذة في الدنيـــا نزاع فظفر
للفنا نحن فهيهات الحياة الدائمة ـــالخ

* * *

لقد كان عنيفاً كل العنف في مهاجمة رجال السلطة حتى لقد تعرض غير مرة للاغتيال ، ففي ذات مرة تقرر أن يقتل غيلة هو و (عشقي) الشاعر الثائر ، وجاء من أوكل اليهم امر الاغتيال وقيل انهم كانوا مسندين من قبل الأمن ، أما (عشقي) فقد أطلق عليه الرصاص ساعة طرقوا عليه باب بيته وخرج ليرى من يريده فأردي قتيلاً ، وأما أخي فلم يكن في البيت حينذاك . فانتظره المغتالون حتى اذا قدم البيت أطلقوا عليه الرصاص فأخطأوه ، وأطلق هو الرصاص عليهم

فأصاب أحدهم في كتفه . وطارده وقبض عليه وسلمه للشرطة . وبقيت آثار الرصاص فوق باب بيته وقد رأيت ثقوبها بنفسي .

وتعرض غير مرة للاغتيال . وفي رأسه آثار رصاصتين مستّا قحف الرأس مساً ولم تنفذا الى آخر الجمجمة . وبقيت آثار العملية التي أجريت له في رأسه عميقة .

وحارب في جريدته المتنفذين . والعابثين . بدون هوادة . ولاسيما رجال السياسة منهم . ومع شدة انصرافه الى السياسة لم يترك الشعر والأدب والبحث . وقد دخل مسابقة (الرائد) التي وضعتها مجلة المقتطف للشعراء الذين يستطيعون أن يرودوا القطب بالشعر . وشرح أحاسيسهم في هذه الرحلة . وقد دخل المسابقة عدد كبير من الشعراء البارزين ولم يمنع أخي انهماكه في تلك الايام في توجيه هجومه في وجه السلطة ولا المعركة التي كانت قد قامت بينه وبين مؤيدي السلطة . فنظم قصيدته المشهورة التي تناقلتها الصحف العربية والتي نال بها احدى الجوائز ولكنه لم يقبل تسلّم النقود المخصصة لها ، فأهدى له الدكتور يعقوب صروف مجموعة كاملة من مجلة المقتطف رمزاً لفوزه في هذه المسابقة . وتعويضاً عن اعتذاره عن قبول النقود المخصصة ، وكانت تربطه بالدكتور صرّوف والمقتطف رابطة أدبية قوية ، كما كانت تربطه بجرجي زيدان والهلال . والدكتور محمد حسين هيكل وجريدته السياسية الاسبوعية اضافة الى الروابط الادبية الأخرى بينه وبين مجلة العرفان ، وأغلب أدباء العراق . ومن أولئك كان الزهاوي والشبيبي . والشرقي . والرصافي ومنير القاضي . وناجي الاصيل . أما قصيدة الرائد التي حصل بها على الجائزة فهي :

الرائد

أبثّك ما بي من جوىً يفلق الصمّا ... يجيش إذا ما رائد الأمل احتمّا
وأخشى على نفسٍ بجنبكِ حرّةٍ ... إذا بحتُ أن لا تحمل البثّ والهمّا

جوىً طالمـــا أخفيته عنك فالتوى [1]
على القلب صلاً أرقماً ينفث السّمـــا

رعى الله قلبـــاً قلّبته يـــد الهوى
على الجمر إن ساد الظلام رعى النجما

تحيّر بين الحبّ والمجد تائهـــــاً
فمن جاذبٍ عفواً ومن دافع رغمـــا

فكم ليلةٍ وسّدتك الزنـــد والضنـــا
ينمّ على وجدي كريّاك اذ نمّـــا

ضجيعين نمسي والهوى يستفزّنـــا
فنُخمده رَشفاً ونُوقِدهُ لثمـــا

فيورثنـــا حرّ الضمير فنثنـــي
عناقاً فنُطفي حرّ أنفاسنـــا ضمّا

أبيتُ على همـــمٍ لـــوأنّ يسيره
(برضوى) لأهوى أو (بيذبل) لأنّهما

ومن كان ذا أنفٍ أشمّ فقد ضـــوى
اليه من التبريح ما أثقل الشُمّـــا

أتدرينَ لِـــم لَم يألف النومُ مُقلتي
ولِم لَم تفارق مهجتي الهمّ والسقما ؟؟

لعلّكِ ترضينَ العلىٰ لي إن أبُـــح
بسرّي أو لا تنكرين بي الحزمـــا ؟

تهونُ عليَّ النفسُ عندكِ مثلمـــا
تهونينَ عندي عندما أنصر العلمـــا

هو العزمُ مـــا بين المنيّة والمنى
فسيّان أودى المرء أو فقدَ العزمـــا

أريـــد ارتيادَ القطب والحتفُ دونـــه
فامّا العلى فوزاً وأما الردى امّـــا

فقالت : أمسٌ فيك أم أنت أبلـــهٌ ؟
أعيذكَ، أم هل أعمه أنت أم أعمى؟

تـــركت يقينـــاً في وجودٍ مخلّد
ورحتَ تعاني في يـــد العدم الوهما

فكم رائدٍ في البحر صاحبَ حوتَه ؟
وكم بُهْمَةٍ في البرّ قد آنسَ البهما

فما الرأي إن تفشل؟ وما النفع إن تفـــز
وما شأن من يُمسي الأيابُ لهغْنُما؟

فقلت لهـــا : قد قال قولكِ معشرٌ
ولكنّ لي عن قولهم أذناً صمّـــا

ونادٍ لنا إذ فيـــه أطلقتُ مِقـــولي
وحاولتُ إقناعَ النفوس به حتّمـــا

ألحَّ عليَّ القومُ ما بين عُـــذّلٍ
وبين جهولٍ قام يوسعني شتمـــا

فمن قائلٍ : قد جُنَّ هذا . وزاعـــمٍ
بأنّي هـذّارٌ أصابتني الحمّـــى

وقـــالوا : تطلّبتَ المحـــال ضلالـــة
وسمّيتَ ويك الجهل : علماً لنا ظلما

---

(١) ماضي النجف وحاضرها ٢/٢٣٧

لأنّكَ حاولت العروج الى السما ... وأمسيتَ في قوس البروج إذاً سهما
لأسهلُ من أن تطوي البرّ خابطاً ... وأقربُ من أن يعبرَ الرائدُ اليمّا
وقلعُ مسامير النجومُ من الفضا ... لأيسرُ من أن يبلغ القطبَ من أمّا
فقلتُ : إذا هاجَ الفتى العزم حلّقت ... عزائمه في الجوّ بالهمّة الشّما
يحاورني الجهّالُ في كل محفلٍ ... وترمقني الأبصار تفحصُ في الوَصما
فيعجزني تبيانُ قصدي وإنّما ... عسيرٌ على الانسان أن يُفهم العُجما
فأزمعتُ بعد اللوم لا مُتّرقباً ... وأملّتُ حمدَ الرأي لا خائفاً ذمّاً
وأهملتُ طيبَ العيش وهو محبّبٌ ... وفضّلتُ حمل النائبات على النعما
وفارقتُ أصحابي وأهلي وجيرتي ... وقومي حتى الصنوَ والخال والعمّا

* * * *

فان أنس لا أنسى العجوزَ اذا انحنت ... تقبلني باللهف والأمر قد حمّا
تقول : ألا يا ليتَ نفسي لك الفدا ... وقلّ الفدا لابنٍ أبيتُ له أمّا
ألا في سبيل العلم سِر حيثما تشا ... وفي ذمّة الرحمن ظعنُك إن زمّا
وودعتُ عرسي وهي لي غايةُ المنى ... ونبذتُ أنسي واستعضت به الغما
ولمّا تعانقنا وحالَ فراقنا ... لَممنا كلانا الشوقَ تحت النوى لمّا
فقبلتُ منها العينَ والخدَّ والفما ... وصيّرتُ زادي الضمَّ واللثمَ والشّما
فأشبه درُّ الدمع لؤلؤَ ثغرها ... فمن لامعٍ نثراً ومن ناصعٍ نظما
فوالله لا أدري أقبّلتُ مدمعاً ... اذا اختلط التبريحُ أم مبسماً ألمى ؟
ولي طفلةٌ كالبان قداً اذا انثنى ... وكالبدر في وجه أغرَّ إذا تمّا
بكتْ فبكى من كانَ حولي بأدمعٍ ... حرارٍ تذيبُ الشحمَ أو تفطر العظما
وقالت : رعاكَ الله ليتكَ ترعوي ... فتصرفُ عني يوم ترحالك اليُتما
فخلّفتها حسرى بعينٍ قريحةٍ ... ووَدّعتها والدمعُ يستمطر الرّحما
وحلّقت في الجوّ المريعِ مُخلّفاً ... لدى الأهل روحاً ثاوياً فارق الجسما
وسخّرتُ بالعزم الفضاءَ وقد هوى ... من الهول نسرُ الجوّ إذ حاول الصدما
كأنّ لفيفَ السُحب أوراق كاتب ... يخطُ يراعُ البرق فيها لنا رَسما

كأنّ الكراسي تحتنا أكرٌ بها ... تلاعبت الأرياحُ تقذفها لَطما
بطيّارةٍ قد غالبَ النسرَ شأوها ... فكاد السحابُ الجون يحطمها حطما
فباتتْ بعصف الريح ريشةَ طائرٍ ... وكان لقيفُ الغيم يهوى بها رغما
فمادتْ وحاولنا النزولَ الى الثرى ... ولكن خشينا البحرَ يلقمنا لقما
فمِلنا الى ما لم يَطأه ابنُ آدمٍ ... وصِرنا لمن يرتادُ من بعدنا أدما
نزلنا على الأرضِ الجديد بهمّةٍ ... بلغنا السمابل قد بلغنا بها الأسمى
فشاهدتُ ما لم تشهد العينُ مثلَه ... وحمّلت ما لم يحمل المرءُ لو همّا
مرّتْ علينا أربعٌ لم نذق بها ... طعاماً . ولم نعرف لغير الطوى طعماً
سلْ الجوعَ عنّا فهو ينبيك أننا ... صبرنا كراماً أو اذا شئت سَل عمّا
فأردى الطوى طيّارنا وهو خيرُ من ... يعزُّ علينا اذ شكا القرَّ والقرما
وصِدنا بُعيدَ الجوع دُبّاً وقد غدا ... ألذَّ طعامٍ لم نذقْ مثلَه لحما
وفكّنا نرومُ الأكلَ من قبل شيّه ... وكدنا نكدّ العظم نلهمُه لهما
وخلِّ حديثَ البرد عنكَ فإنه ... تهاونَ لما شامَ من عزمنا الحدّما
فلم يثننا هذا وذاك عن العلى ... ولم يسلب الجهلُ الذي غالبَ الحتما
مشينا على الأقدامِ لكن رؤوسنا ... تنازعُ منّا الأرجلَ الزحف واللدما
وأكبادنا كادت ترى لا عيُوننا ... سُوَيعة لم نبصر طريقاً ولا رسما

لك الله من هولٍ لقيت ومحنة ... حملت . تريعُ الخلّ أو تحزنُ الحصما
فما الدهرُ إن أحنى وما الويلُ إن دها ... وما الليثُ إن أردى وما السهمُ إن أصمى
بأعظم من يومٍ به اسودّ يومنا ... فشيبنا بما ابيضّت به الليلةُ الدّهما
ولمّا بلغنا القطبَ والموتُ دونه ... نسينا به الآلامَ والنصبَ والحمّا
وعدنا وقد طرنا بأجنحة الهنا ... وفُزنا وفاخرنا به البطلَ القرما
وما البطلُ السفّاك ان أخضع الورى ... كمن رادَ صعبَ الأرض أو خدم العلما

وجئتُ الى قومي بأسنى هديـــــــةٍ فزالَ العنا عنّي وصفُو الهَنا عمّـــا
وســـارَ الى أقصى البلاد حديثنـــا وصرتُ إذا عدَّتْ شهام الورى شهما
ألا فليُخطّ المجدُ لي فوقَ صدره من الذهبِ اسماً حيثما خلّد الأسما

* * *

والعجيب في أمره انه كان لا يترك فرصة تمر دون أن يستغلها للشعر ، وللتأليف ، وقد صار له شعر كثير في المجلات ، والصحف ، لم تجمع بعد ، وأحسب أنه لو جمع لألف بضعة أجزاء من دواوين ضخمة . أما مؤلفاته فقد بلغت ٨٦ مؤلفاً في مختلف المواضيع . كان منها ١٧ الف بيت من الشعر العربي الذي ترجم به (الشاهنامة) الى الشعر ، وكان أول من حمله على ذلك الدكتور عبد الوهاب عزام ، وقد قال لي (عزام) ما مضمونه : قال : انه سيظفر الادب بالروائع الخالدة اذا تم للخليلي قيامه بترجمة الشاهنامة شعراً ، وقد وقع هذا بالفعل .

كما ترجم قطعاً من سعدي الشيرازي ، وحافظ ، والمثنوي ، الى العربية

من اليمين ـ عباس الخليلي ـ أمين خالص ـ الزعيم الروحاني الثائـــر السيد ابو القاسم الكاشاني ـ المؤلف

شعراً ونشر هذا الشعر في الصحف وفي المقتطف والهلال ،والعرفان . بصورة خاصة .

وقام بترجمة (الكامل) لابن الأثير وترجمه في ١٤ مجلداً . كما قام بترجمة فجر الاسلام ، وضحى الاسلام ، وظهر الاسلام الى الفارسية . هذا الى جانب مؤلفاته الاخرى التي لا أستحضر منها غير اسم كتاب (محمد) بالعربية . وغير كتاب (روزگار سياه) بالفارسية . وكتاب (إنسان) و(انتقام) و (أسرار شب) وما وراء (القطب) .

وعلى ذكر كتاب (روزگارسياه) فقد مرّ مدير الامن العام ذات يوم بأخي وهو في السجن . وكثيراً ما سجن . وقال له : لقد كنت ليلة أمس أقرأ كتابك (روزگار سياه) وقد بكيت أكثر مما يمكن أن يبكي أحد لما كان يتضمن هذا الكتاب من الصور المؤلمة . فرأيت أن أمرّ بك في السجن لأنقل لك تأثري بآثارك العلمية . ولأقسم لك بأن ليس لي أي يد في سجنك .

* * *

وأثار ذات مرة غضب الشاه السابق رضا بهلوي . وكثيراً ما أثار غضبه في معارضته الجريئة ، وفي هذه المرة كان أثقل من كل مرة على نفس الشاه . فأمر بمصادرة جريدته ونفيه الى كرمنشاه . على أن لا يغادر هذه المدينة . وفي كرمنشاه ، شقّت عليه الحياة . وضاقت به الدنيا . وقد بقي نحو أربعة أشهر لا يسمح له حتى بارتياد الضواحي ، وكان عليه أن يمرّ كل يوم بمركز الشرطة ليثبت وجوده في المدينة

وذات يوم وقد تجاوز جزعه الحد . رأى أن يكتب للشاه ، وهو رضا شاه الاول ،ويقول له ما مضمونه : اذا جاز أن يكون النفي وسيلة من وسائل معالجة السياسة عنـــد السلطة . فلا أحسب أن التنكيل . والاذلال جائز في شرعة سياسة الشاه . هذا وأنا ألاقي هنا من هذا التنكيل الشيء الكثير ، ولا أظن أن ذلك يجري برأي منك ورضا من نهجك .

وبعد أيام قليلة رأى السلطة في كرمنشاه تخصه ببيت فخم . وترفع عنـــه المضايقة ، وتسمح لزواره بأن يزوروه . وأن يبادلهم الزيارة . ولم تمنع عنه ارتياد

متنزهات المدينة في ضواحيها . مما أطمعه بأن يكتب للشاه كتاباً آخر يتضمن شكره ، ثم يطلب منه أن يأذن له بالعودة الى طهران لأيام يعالج بها شؤونه الخاصة ، ويدبر أمر بيته ، وديونه ، ثم يعود الى منفاه .

وبعد ما يقرب من أسبوع جاء ما يؤذن للسلطة بالسماح له بأن يعود الى طهران لأيام يقضي بها شؤونه ، ثم يعود مرة أخرى الى كرمنشاه ، وحين عاد الى طهران بقي هناك ولم يسأل عنه أحد . أو يطلب منه العودة الى منفاه ، ولا شك أن مثل ذلك كان قد تقرر من قبل .

وفي كرمنشاه المنفى تفرغ للكثير من الاعمال الادبية ونظم الشعر ، وفي هذا البلد كتب كتابه (روزگارسياه) أي (الحياة المشومة) أو اليوم الاسود . هذا الكتاب الذي طبع عدة طبعات وترجم الى غير لغة واحدة ، ودرّ عليه شيئاً كثيراً من الربح ، والكتاب هذا قصة ، عالج بها الرقيق الابيض ، الذي كان منتشراً يومذاك في ايران ، وفي غير ايران ، والمزالق التي تؤدي الى الدعارة ، وقد تصوّر بيتا من بيوت الدعارة يضم أربع فتيات زلقت بهن أقدامهن ، وقد انقطع زوارهن ومرتادو بيتهن ذات ليلة ، بسبب انهمار المطر ، ونزول الثلج ، فاجتمعن في غرفة احداهن . وحول السماور جلسن يتحدثن ، واقترحت احداهن بأن تروي كل واحدة قصة حياتها ، وكيفية انزلاقها ، وأورد الكاتب هنا أربع قصص تشرح أربعة أسباب هي التي تسبب في الغالب كيفية سقوط الفتاة في الهاوية لا في ايران وحدها ، وانما في الشرق على الوجه الغالب .

وقد أتاح له الفراغ في المنفى أن يؤلف كتباً أخرى . وينظم عدة قصائد . كان لبعضها دوي في العالم العربي وكان منها هذه القصيدة التي نظمها في كرمنشاه تنفيساً عن نفسه ونشرتها الصحف .

المجد يشهد يا قحطان والكرم ... ان العلى إرثنا إن نجحد الأمم
فالأرض لوح به خطّت مآثرنا ... يراعنا السيف فيها والمداد دم
تصدّعت وشكت آلامها ولقد ... شفّت أذى رأسها في سعينا القدم

لولا بنو يعرب مـدّوا ظلالهـم ... على الأنام ولو لم يخفق العلـم
لبـاتت الأرض كالمصدور نفثتهـا ... على الورى شعل في إثرهـا حمم
لكنّما قـد فصدناها ومبضعنـا ... صمصامة فاشتفى منها بنـا الألم
بنـا أنوف الجبال الشمّ قد جدعت ... بكل أشوس في عرنينه شمـم
فمن سفينٍ بـه انشقّ العباب لنا ... ومن سبوحٍ له ذلّت بنـا القمم
والفلك في البحر كالأطواد مـاخرة ... والجُرد في البرّ كالأمواج تلتطـم
والنقع ليل كسا الزرقا بـأسوده ... والبيض شهب جلتها في الضحى الظلم
سقنـا الجيوش كمرّ السحب مثقلـة ... بوابلٍ من نجيع دونـه الديم
فرعدهـا صوت أبطـال وزمجرة ... والبرق فيها ثغور الشوس تبتسم
بهـا القنا مثل غاب الليث مشتبك ... بها الظبي مثل نار العزم تضطرم
بهـا الحماس كغيظ الحرّ مشتعل ... بها النفوس كهطل الوبـل تنسجم
كنّـا خفاقاً بأرواح نطير الى ... جوّ الوغى مرحاً إن تثقل الهمـم
عفنا الثرى ومشينـا في مناكبهـا ... سهلاً وما غير أشلاء العدى أُكَم
ثرنا أسوداً فألفينـا الملوك بهـا ... مثل الذئاب جياعاً والورى غنـم
بتنـا الرعاة لها في عفةٍ وتقىً ... لذاك تنفك ترعى عندنـا الذمم
عفنـا الدما قبل ما نروى ولا ظمأ ... وقد لزمنا الطوى عفواً ولانهـم
كنّا اذا ما انتضينا السيف يوم وغىً ... تهوى الأسرّة والتيجـان تنحطم
وان هززنـا به الخطّي مـن غضب ... فكل حصنٍ عصي منـه ينهدم
فلا تثيروا أهيل الغرب غضبتنـا ... ألا أحذروا بأس قوم طالما حلموا
نحن الألى قد بسطنا العدل مذ ملكت ... أيماننا لا كمن مذ مُلّكوا ظلموا
فنحن أولى بما يدعونه عبثـاً ... تمدّناً ولنا قـد نصّه القـدم
ونحن دون الورى الأعلون ليس نرى ... إلا العلى درجـاً والسالفون هـم
فان غضبنـا لأمر ليس يقنعنا ... إلا الفخار رضوا بالأمر أم نقموا

نظل نرضع ثدي العزم من كـــرم ... حتى يدرّ دمـــاً صرفـا فننفطم
الفخر والجود فينا أو بنا ولنـــــا ... والعار والبخل فيهم أو بهم لهـــم

* * *

ان تنكروا فاقرأوا تاريخ أنـــدلس ... أو تجهلوا فسلوا آثار مـــن علموا
في كل مصر لنا بنيان مكرمـــة ... هيهات ليس يضاهي أوجـــه الهرم
لسنـــا نباهي بآباء لنـــا قبضوا ... على الأزمّة في الدنيا وان كرموا
لا تحسبوا حسب الأبنـــا بمن سلفوا ... كلا وما فخرنـــا الأجداث والرمم
هيّا انظروا حاضر العرب الكرام فما ... إلا الفخار بنا والعزم والكـــرم
فما تغيّر منـــا الحـــال في غير ... ولا تزال على ما كانت الشيـــم

* * *

العـــز مكتسب والحمـــد منتهب ... والحر مقترب والعمـــر منهزم
والثـــأر مطلب والجـــار منتسب ... والعار مجتنب والفخر مغتنـــم
والشهم مـــرتفع والندب منتصب ... والوغد منخفض والذل منجزم
تلك الجزيرة ما هانت وما خضعت ... وأهلها الشوس ما ذلّوا وما لثموا
ولم يدسها العدى إلا وهـــامُهمُ ... من دون أرجلهم تهوي وتصطدم
فالسيف يحصد فيها الهـــام إن لمست ... كفّ العدا صدغها أو مسهااللجم
تالله ما ذلّ منا سيّد أبـــــداً ... كلاّ ولا طـــلّ منا في الهوان دم
فأيّ عارٍ على العرب الكرام وهـــل ... ينالنا الخسف إن ازرى بنـــا العجم
ما كنتُ أحسب أن العـــار يلحقنا ... بأمّـــة غبطت أخلاقها الأمم
إني وان كـــان عـــرقي الفارسي فما ... أحبّ إلا أناساً عـــزّ جـــارهُمُ
قد ساغ لي من بني العرب الاجاج كما ... قد مرّ لي بين قومي البارد الشبم
فمـــا مقامي على ذلّ أعض به ... البنان مني اذا ما هـــاجني الندم

نصرتُ قومي وقد أحببت مجدهـــم وصارمي مقولي أو رمحي القلـــم
ومذ غنمنـــا العلى آبوا لقسمتـــه وخلّفوا الويل لي يا بئس مـــا قسموا

* * *

وقـــد نفيت على هـــون الى بلد أمست أنيسي فيها الحمر والبهم ؟
مهلاً بني القوم لا رفقاً ولا كرمـــ أ لعلّ جرحي بعد اليوم يلتئم

وحين سمح له الشاه بالعودة من منفاه عاد إلى طبيعته السابقة . فهاجم الأوضاع في جريدته بعنف ، وشدة أكثر . ووجـــد الاحرار والوطنيون في جريدته المتنفس الذي كانوا يجدونه من قبل ، اذ لم يفلّ النفي من عزيمته شيئاً ، ولم يلن من قناته ان لم يزده عناداً . وجرأة في مهاجمة السلطة ومؤاخـــذتها ، فأثار ذلك مرة اخرى غضب الشاه السابق وأمر بابعاده . ونفيه إلى العراق ، وقد تم القبض عليه وأدخل في سيارة مقفلة ، وعبروا به الحدود الايرانية عائداً إلى العراق من حيث دخل ، وكان قد شمله العفو عند استقلال العراق في ضمن من شملهم من المحكومين السياسيين ، ورغّبه الملك فيصل الاول بالبقاء فاعتذر شارحاً له الأسباب التي تشده إلى زوجته — وقد كان قد تزوج في ايران — وولده مهيار (الدكتور مهيار اليوم) ثم رزق بعده بثلاثة أولاد فكانوا أربعة اثنين منهما قد حصلا على الدكتوراه في الكيمياء ، والثالث في الهندسة ، والرابع جامعي بدرجة ليسانس ، وكان يؤثر الدكتور كامي حين كان أصغر أخويه ويمنحه حبه اكثر ، ويقول انني معه مثل ذلك القروي الساذج مع الامام علي بن أبي طالب حين كان يقول ان الله والنبي محمداً وعلي بن أبي طالب أخوه ثلاثة ولكن أذكاهم وأبرعهم انما هو الأخ الصغير علي بن أبي طالب ! !

ومكث في العراق منفياً قرابة ثلاثة شهور على ما أذكر ، وقد قضاها في النجف وبغداد وفي بعض المدن التي كانت تدعوه لزيارتها .

ثم أذن له بالعودة إلى طهران ، ولما كانت روحه مجبولة على الثورة فقد ظل

ـ كما هو ـ ثائراً في جريدته (إقدام) وكانت من أروج الجرائد المتسمة بالطابع الوطني العنيف وقد أوقفت عدة مرات وصودرت من قبل السلطة غير مرة وزج في السجن بسببها فلا يكاد يخرج من السجن . ويسمح له باصدار الجريدة حتى يعود إلى ثورته وعنفه الذي جبل عليه في التبشير بعقيدته . وقد ألّف بعض كتبه وهو في السجن ـ كما قد أشرت ـ فكانت من أروج الكتب . مما درت عليه هي والجريدة أرباحاً طائلة كان ينفقها بسخاء على من يعرف ومن لا يعرف .

والذي أعلمه أنا عنه ، ويقول به كل من عرفه . أنه لا يقيم وزناً للمال ، ولا يعتبر جاه الثروة الا جاهاً زائفا . ولست أدري كيف أخذ عليه صديقه أحمد الصافي ـ الذي صاحبه سنين طوالاً ـ حبّه للمال . والثروة . فنظم فيه المقطوعة التي نشرها في احد دواوينه دون أن يسمّيه . وقد أخبرني الصافي نفسه بذلك ولا أدري ما اذا كان أخي عباس قد علم بأن مقطوعة الصافي هذه قد قيلت فيه وماذا كان هو رأيه في هذا القول ؟

صحيح ان شيئاً من الجفاء قد وقع بين أخي عباس وأحمد الصافي وهما بطهران مما لم أعرف أسبابه ، أما أن يكون السبب هو ثروة أخي . وطغيانه . بثروته ، فهذا ما لا يقر الصافي عليه احد . ولنفرض أن ذلك كما يقول الصافي فلا أحسب ان مثل هذا كان يقف حائلا بين تقديم الصافي تعازيه لي وأنا صديقه القريب منه في الروح ، فقد تلقيت حتى من أبعد الابعدين برقيات جمة ، ورسائل تفيض بالعاطفة الا الصافي الشاعر ولكن : لعل لها عذراً وأنت تلوم ، أما المقطوعة التي قالها في أخي فهي :

الصديق المثري

أواصل صاحبي مـــا دام مثـــلي ... فقيراً حيث يجمعنا الشقـــاء
وأهرب منه مهما يثر ـ كيـــلا ... يقال ـ تقرّبي منه التجـــاء
فان المال يكسب كـــل شخص ... طباعاً ليس يحملها الإبـــاء
فكم قضيت دهراً مع صديـــق ... يظلّلنـــا بشقوتنـــا الهنـــاء

توفّق للغـــنى فـــازورّ عـــني ... وبُدّل بالجفا منـــه الاخـــاء
يخاطبني بلهجـــة ربّ تـــــاجٍ ... تساس بها العبيد او الامـــاء
لذاك نـــأيت عنه وفي فـــؤادي ... بقايا الودّ يطردهـــا الجفـــاء
وذكرى الودّ مـــا زالت بقلـــبي ... لدى الأيام يحفظهـــا الوفـــاء
وأبكي كلمـــا أرنـــو اليهـــا ... ويسبقها — متى ترني — البكاء
وأرثي بالقريض قديـــم حـــبي ... لو ان الميت يرجعه الرثـــاء
أدام الله أصحـــابي بفقـــر ... مخافة أن يفرّقنـــا الـــثراء

* * * *

وكان بيت أخي بطهران ملتقى الكثير من الزوار والسواح الذين يقصدون ايران للنزهة او البحث بين المخطوطات والآثار . او القاء المحاضرات من مختلف الاقطار وكان يتصدى لقضاء حاجاتهم على قدر ما يستطيع ولا سيما أبناء البلاد العربية .

وقد زار مرة الأستاذ قدري القلعجي طهران موفداً من قبل دار الهلال في مهمة صحافية فكتب في مجلة (المصور) مقالاً مسهباً يقول فيه ان هناك سبعة سفراء للدول العربية في طهران أكثر ما تشغلهم الدعوات . والتفسح . والولائم . غير مهتمين بحاجات العرب الذين يمرون بطهران ويزورونها لمصالحهم التجارية . او العلمية . ولكن هناك سفيراً للعرب بلا سفارة . سفيراً يتصدى لقضاء حاجات العرب والاهتمام بشؤونهم وتذليل الصعاب في وجوههم ذلك هو عباس الخليلي مدير جريدة اقدام . ثم يأخذ بالثناء والاطراء حتى يملأ حقلاً كاملاً من (المصور).

وكان بيته مفتوحاً للضيوف الذين يقصدون ايران من الخارج فيستضيفهم . ويدعوهم إلى بيته لتناول الطعام . وقد كان ربحه من الجريدة ومؤلفاته كبيراً جداً فكان ينفقه كله على مثل هذه الأمور . وقد رأيت بنفسي نزول علماء تركستان وأساتذة الجامعة الازبكستانية في بيته ضيوفاً عليه حين أذنت روسيا لأول مرة بتأدية فريضة الحج للمسلمين . ورأيت الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي ينزل

عليه ضيفاً عدة أيام قبل أن ينتقل إلى (گراند هوتيل) وقلما وجد الخليلي يتناول العشاء أو الغداء وحـــده ، وإلى مثل هذا أشارت تراجمه وما كتبت عنه الصحف وفيما قاله الأستاذ قدري القلعچي .

* * * *

لست أعرف عن حياته في ايران شيئاً كثيراً ولكني أعرف أنه عمل في عدة وظائف ، وشغل منها المهم .وكانت روحه الثائرة كثيراً ما أوقعت بينه وبين المراجع العليا — من الاختلافات العنيفة — أشياء أدت إلى استقالته ، وسببت له انعدام الراحة ، في أغلب ما عهد اليه من المهمات . فهو ذو مزاج خاص وطبيعة مكتسبة من البيئة التي نشأ فيها . والتي مرت الاشارة اليها .

وحين تعين أن يكون سفيراً ، ومندوباً فوق العادة في الحبشة واليمن ، ووصل

صورة تضم بعض ضيوف الخليلي من العراقيين — من اليمين — محمـد القشطيني — امين خالص — سفير ايران ببغداد — عباس الخليلي — سامي خوندة وغيرهم .

مصر في طريقه إلى الحبشة أخّر هناك سفره وقضى أياماً طويلة في القاهرة مأنوساً بمن عرف من الأدباء والعلماء .

وكنت أعلم ان مراسلاته لم تنقطع وهو بطهران مع المقتطف . والهلال والدكتور محمد حسين هيكل . وأحمد أمين ، وعبد الوهاب عزام بصورة خاصة . كذلك ربما كانت معرفته بالدكتور طه حسين ، والعقاد ، والمازني والرافعي . معرفة عميقة ، لذلك حين قدم مصر احتفى به ممن كان حياً من هؤلاء وغيرهم احتفاءً بالغاً حمله أنسه بهم إلى أن يؤجل سفره إلى الحبشة غير مرة ، حتى لقد كتبت عنه السفارة الايرانية بمصر تقريراً سرياً — على ما قيل — تخبر الوزارة الخارجية الايرانية بأن الخليلي لم يراع الأنكيت الدبلوماسي ، وأنه يقضي معظم أوقاته مع رجال الادب . حتى لقد أضرب عن زيارة السفارة الايرانية في القاهرة وبدأ يسوّف في السفر إلى الحبشة ، ويتوانى متعمداً ، ولكن وزارة الخارجية لم تهتم بهذا التقرير . وتركته لشأنه ولو كان بدا منها شيء من الاعتراض لما توانى الخليلي عن تقديم استقالته حسب ما عرف عن مزاجه ، وطبيعته التي يريد أن يقفها على تنفيذ رغباته في كل حين . اما عن شغفه بمصر ، وأهل مصر من العلماء ، والأدباء ، فقد كان قد نظم قصيدة فيها وهو في الطائرة قادماً اليها ، وبقيت هذه القصيدة غير منشورة إلى ما بعد عشرين سنة ، وأكثر ، حين تم نشرها في مجلة (الاخاء) ، وقد قدّمها بهذه الكلمة :

« كنت سفيراً إلى أثيوبيا (الحبشة) واليمن ، فزرت في طريقي مصر ، وهي كل أملي أو غاية ما كنت أروم في حياتي ، وبعد الثورة العربية ، والحكم علي بالاعدام ، حاولت ان أقيم فيها ، ولكن الظروف حالت بيني ، وتأخر حظي حتى حانت الفرصة فحظيت بزيارة بلاد ما أحببت غيرها ، وسعدت بلقاء أناس طالما وعدت عيني بكحل النظر اليهم ، وقد عرفتهم بالمراسلة ، ومنهم من ضمّه التراب الذي وددت أن يغشى عيني ولا يواريهم ، وقد اجتمعت بمن بقي حياً ، فسررت بقدر ما حزنت على من مات وفات ، وكانت لنا محافل أنس ، وأدب على ضفاف النيل ، ومحاورات أدبية لا أحفظ منها الا بعض ما نظمت ،

ولما حلقت الطائرة قبل الحظوة بزيارة الاخوان ، نظمت هذه القصيدة التي لم تنشر حتى الان ، وقد عدت بها ونسيتها حتى اليوم ، وان لمصر علينا فضلا عظيماً بالعلم ، والأدب ، والفلسفة ، نغترف من بحره العذب ، ونعترف بتأثير فضله ونكتسبه بكل وسيلة »

ثم نشرت الاخاء هذه القصيدة التي أشار اليها وهي :

النسر الهاوي

فدى لكِ نفس الحرّ إن لُحتِ يا مصر
وقلّ الفدى بالنفس لو أنصف الحرّ
قصدتك مثل النسر حلّق طائـراً
فلما بدا منـك السنى وقع النسر
فوكري على هام الثريّا بفـارس
عدلت ثرى مصر به فهو لي وكـر
لأرضي في الدنيـا سماء وما السما
سوى روضة غنّاء أثوابهـا خضر
فنيلك زاهٍ كالمجرّة ، والـربـى
بروجك ، والنوّار انجمـك الزهر
نذرت اذا قرّت بك العين أن ترى
غبارك كحلاً حينما يصدق النـذر
فان نحرت انسانها العـين للفـدى
بخلت لكيلا يسبق النظـر النحر
وان متّ قرباناً وضمّخني الـثرى
رجوت حياة من ثرى نشره النشر
رعى الله حيـاً ميتـه مثل حيّـه
تساوى به عند العلى القبر والقصر

تمرّ على الميت القرون ولم يـــزل
صحيحاً ولم يهدم على الهرم القـــبر
كأن ثرى مصر يزوّد أهلهـــــا
بقاءً فلا يفنون ان ذهب العمـــر
فلا الجسم يبلى لا ولا الروح ينزوي
ولا الفضل يفنى لا ولا يخمد الفكر
كفاها فخـــاراً ان أموات أهلهـــا
كأحياء أهل الأرض فينا وهم كثر
وان الغنى فيها هو الفضل والنهـــي
وفي غيرها في الفضل او في الحجى فقر
فما نيلها الا لجين جرى عـــــلى
عقيق من الواحات او تربها التبر
وما الغيث الا لؤلؤ وبساطهـــــا
حرير بديع النسج طـــرّزه الـــدرّ
ترحّلت عن قومـــي بآمـــالي التي
بها انتشت الدنيا وضنّ بهـــا الدهر
وجئت إلى مصر ، ومصر هي المنى
بها انتعش المصدور وانشرح الصدر
وما مصر الا جنّة الخلـــد يلتقـــي
بها العسل الماذي — في النيل — والخمر
أقول سقاها الغيث لا بل سقى بها
بلاداً لها من فيض عرفانها وفـــر
أفاضت على البلدان علماً وحكمة
فكم من يد للفضل ليس لها نكر

وخرج أخي على الأتكيت الدبلوماسي ، ولم يعر الجهات الرسمية والحكومية

اهتماماً بقدر ما عني بمحافل الأدباء . ودعواتهم المتواصلة له في مصر . ثم توجه بعد أن حقق جزءاً من رغباته النفسية بمصر إلى (أديس بابا) .

* * * *

وقد أعجب به الامبراطور هيلاسيلاسي كدبلوماسي مؤرخ يعرف من تاريخ الحبشة القديم والحديث ما يثير الدهشة . ووضع سيارته الخاصة تحت استعماله الشخصي التي ما لبث أن برم بها أخي لكثرة من كان ينحني ويسجد لها في أثناء مرورها بالشوارع ظنا بان المستقل لها هو الامبراطور . وأصبحت له بالامبراطور علاقة أقرب إلى الصداقة منها إلى السفارة حتى لقد كان الامبراطور يفرض عليه أن يزوره في كل ليلة . وكان الخليلي يزوره ويخوضان في أحاديث تزيد الامبراطور تعلقاً به يوماً بعد يوم حتى لقد منحه لقب (رأس) كما منحه أحد سيوفه الخاصة به وترساً قال له انه ثمين من حيث قيمته التاريخية ، ولما كان الخليلي يقدر تاريخ الحبشة — يقول الامبراطور — فانه سيقدر هذا الترس الذي حمله جد الامبراطور في معركة عصيبة ونال به الظفر . كذلك أهدى له صورته . وحين زار هيلاسيلاسي ايران لأول مرة سأل عندأول نزوله عن الخليلي وكم سرّ حين وجده بين مستقبليه .

ولست أدري كم ظل في الحبشة حتى غادرها إلى اليمن وكان يومذاك الإمام أحمد هو ملك اليمن . فاستقبله كاستقبال الامبراطور حين رآه يتحدث عن اليمن . وعن المذهب الزيدي . والشافعي . وعن الشعر . والأدب . وتاريخ اليمن البعيد والقريب . ثم تاريخ الأسرة المالكة . وقد خصه بمنزل فخم مستقل . وأمر بأن يكون في ضيافة الامامة مدة سفارته . وأهدى له عمامة الامام يحيى ، وخنجره الخاص . حين علم بأن الامبراطور قد أهدى له سيفه الخاص وترس المملكة الثمين ،وقد رأيت أناكل هذه الهدايا إلى جانب الأوسمة والنياشين التي كان قد حصل عليها في مختلف المناسبات وهي محفوظة في غرفة خاصة ، ورأيت

البندقية التي تحدثت عنها الصحف . وهي البندقية التي قدمتها له المدرسة العسكرية يوم حضوره مهرجانها . وكان من ضمن برنامج المهرجان اصابة الهدف ، وقد استأذن الخليلي الشاه بأن يشارك في مثل هذه الأهداف ، وفي وسط ذلك الجمهور . وبمحضر من رضا شاه الكبير تناول الخليلي احدى البندقيات ورمى بها الهدف ست مرات متوالية . فأصاب في كل مرة . ولم يخطىء الهدف ولا مرة ، فأهديت له البندقية مع مرسوم يشير إلى هذه البراعة .

لقد رأيت الكثير من هذه الأوسمة والنياشين والاثار معروضة في غرفة خاصة من بيته وتحكي احدى صوره معتمراً عمامة الامام يحيى ومتمنطقاً بخنجره ، وحاملاً سيف الامبراطور والترس التاريخي الذي كرر قوله الامبراطور بأنه الترس الذي كان يحمله جده . واليه يعزى الظفر في احدى المعارك الكبرى . وهو يهديه كرمز تقديري من الدولة كلها له . وينتظر منه المحافظة عليه .

كذلك لم أدر كم مكث في اليمن . ولا كم بقي سفيراً حتى استقال ، فقد سبق لي أن أشرت في أول كلمتي الى اني لا أعرف عن حياته السياسية الا ما كنت التقطه في بعض الاحيان من الصحف او في بعض المناسبات التي تستدعي ان أعرف شيئاً عند زياراتي القليلة لطهران .

وكثير أولئك الذين يروون عن سعة اطلاعه في التاريخ . وتاريخ العرب والاسلام والشرق خاصة روايات قد يكون بعضها غريباً . وقد حدثني الأستاذ عبد الحق فاضل سفير العراق في الصين سابقاً انه يوم كان قنصلاً عاماً للعراق بطهران . وممثلاً للقنصلية الاردنية زار الملك عبد الله طهران زيارة رسمية ، وقد تم اجتماع الخليلي بالملك عبد الله بمحضري . وقد دهش الملك عبد الله وهو المشهور بمعرفته التاريخ العربي وتاريخ الجزيرة العربية خاصة لما رأى من احاطة الخليلي بتاريخ العرب القديم والحديث والمامه التام بحياة البدو وأدبهم ، وقد سمع الملك عبد الله من الخليلي الشيء الكثير من الشعر الذي يصور هذه الحياة الحضرية والبدوية كما تطرق الخليلي بالشعر إلى المسؤوليات التي يضعها التاريخ العربي على

عاتق الملوك والأمراء . واسمعه في ذلك اليوم ما ورد عند العرب من نصوص بهذا الخصوص .

* * *

ولم يقتصر شعره ونثره على حماسه وشعوره الوطني . وثورته على الظلم والاستبداد . وانما كان شعره ونثره يمثل جانباً من (الاخوانيات) أيضاً بحيث كان يتألف من (إخوانياته) ديوان ضخم لا تقل ضخامته عن ضخامة أشعاره في المجالات الاخرى . وعلى ان لدي أضبارة تحوي الكثير من رسائله وبعض أشعاره فان الكثير الكثير منه لم يزل في اضابير اخوانه وأصدقائه من الأدباء . والشعراء . وليس لدي منه على كثرته الا النزر القليل الذي يمر علي لمناسبة من المناسبات .

الخليلي في عمامة الامام يحي وخنجره وسيف الامبراطور هيلاسيلاسي سبيفه وترسه التاريخي

ومن هذه الاخوانيات قصيدتان في الاستاذ جورج صيدح لم أعثر عليهما عند كتابتي هذه الكلمة لآتي بهما فعلاً . وقد ردّ الأستاذ صيدح على بعض رسائل الخليلي بمقطوعة نشرتها مجلة (الأديب) البيروتية يقول فيها :

وحياة أشواقـي اليـك ... وتربـة الصبر الجميل
ما من خليـل حلّ فـي ... قلبي كعبّـاس الخليلي
ليت الحيـاة كشعـره ... في الجود والنفس الطويل
نحنو عـلى شيخوخـتي ... كحنوّه السمح النبيل
لكنها بخلت علي فصرت ... كـالزمـن البخيـل
عيّا أردّ عـلى أغانيـه ... الكثـيرة بالقليـل
واكفكـف الأشعـار ... ان خفّت إلى رأسي الثقيل
فكـأنني دمع الغمامـة ... وهو عين السلسبيـل

الخليلي يحمل البندقية التي أصاب بها الهدف عدة مرات

وفي صيف سنة١٩٧١ زار أخي باريس . وعلم بأن الأستاذ صيدح يقضي صيفه في مصيفه الخاص فلم يشأ أن يكتب له بقدومه لئلا يحمله على ترك مصيفه والعودة إلى باريس اهتماما به . فلما عاد من باريس إلى طهران أرسل له من هناك يقول :

أما وهوى أمسى جوى بعدما اشتدا
لقد زادني قربي إلى (صيدح) بعدا
إلى بابه حلّقت في الجو مزمعـاً
ولكنني قد حدت عـن داره عمدا
دنوت إلى شيخ الكـرام لأنـني
قصدت . فردّ العجز عن بابه القصدا
تهيّبني بالفضـل حـتى حسبتـه
رتاجاً لمثلي عن هوى مثله انسدّا
وردت وفي باريس أعذب منهـل
من الفضل — والأوهام حرمت الـوردا
وما كنت الا طائراً حثّـه الظمـا
فلما رأى موج الخضمّ بهـا صدّا
أرى (صيدحاً) بحراً أخاف هياجه
فيغرقني بالفضل ان هاج او مـدّا
رجعت وفي نفسي من الشوق جذوة
ولكنني عن رجعتي لم أجـد بـدّا

ونشرت مجلة الاخاء ردّ الأستاذ جورج صيدح في مقطوعة جميلة مصحوبة بصورة من صيدح مهداة للخليلي يقول في مقطوعته :

قف حيث أنت مودعاً عهد الصبا
فالعصر لو ملـك الوقوف لما أبـى
يا ظالمي . ما كان ضرّك لو بدت
نفسي مصورةً . ولو جسمي اختبا ؟
واريت روحي عن عيون احبـتي
وأريتهم وجهـي خرابـاً مرعبـا

لـــكن (عباس) لفـــدى نظرة
منه تردّ لك الشباب الاعذبـــا
فانزل بناديـــه الذي هـــو مأربي
طول الحيـــاة ولم أنلـــه مأربـــا
واطبع على كفيّه قبلـــة هـــائـــم
واشرح له حال العليل معذّبـــا
يُغنيك عن حسن الملامح انها
تجلو من السيمـــاء قلبـــاً طيبـــا

(باريس ٩/١٠/٩٧١)

ومن هذه الاخوانيات قطعة قرأتها في مجلة الأديب وقد وجهها أخي إلى الأستاذ وديع فلسطين الكاتب العبقري المعروف يقول فيها :

هل لي إلى مصر سبيلْ ... أم ذاك أمر مستحيلْ
لأرى (وديعاً) مـــرة ... فليسمح الدهر البخيل
فأفوز منـــه بنظـــرة ... يشفي الغليل بها العليل
عزّت علي وانمـــا ... لجنابه عزّ الرحيـــل
تشتاقـــه عيـــني وان ... أخفقتُ . فالصبر الجميل
مصر (وديع) حيّهـــا ... وحياته للفضل نيـــل
عاش الكثيرُ بها ومـــن ... جرّ النبوغ لها قليـــل
وهو الغزير بفضلـــه ... وبفضل خلّته النبيـــل
والنيل يقصر عنـــه ان ... حدثت . فالبحر الطويل
حدّث ولا عجب فما ... في البحر الا السلسبيل
ان نابني خطب فـــلي ... جار عزيز او كفيل
نفس (الخليلي) الفدى ... لك انما أنت الخليـــل

* * * *

وفي صيف هذه السنة ١٩٧١ وهو يستشفي في استراسبورك بعث من هناك باحدى قصائده الاخوانية إلى المجاهد الأستاذ محمد علي الطاهر وقد خص جانبا منها بالأستاذ علي نصوح الطاهر ونشرت مجلة (الأخاء) هذه القصيدة مقدمة لها بهذه الكلمة :

قلائد المشاعر

بين الخليلي والطاهر

« قل من يعرف المجاهد الكبير الأستاذ محمد علي الطاهر المجاهد الفلسطيني القديم ، ولا يعرف مكانته في عالم الجهاد في سبيل العروبة جمعاء ، وفي سبيل فلسطين التي واكب الطاهر قضيتها منذ أول تاريخ المحنة حتى اليوم ، وقد كان لجريدته (الشورى) أثر كبير في الاقطار العربية بل وفي الاقطار الاسلامية ويعتبر بيته اليوم بلبنان ديوانا من أهم دواوين العرب قلما مرت شخصية لامعة ببيروت دون أن تزور هذا الديوان ، ويتلقى الأستاذ الطاهر في كل يوم حزمة كبيرة من البريد وفي بعضها تثمين لجهاد هذا الرجل وشهامته ، وعلو قدره . وقد نشرنا قبل أشهر قليلة قصيدة رائعة للشاعر الكبير شفيق الجبري كان قد أهداها له ، وهذه قصيدة جديدة للشاعر الدبلوماسي الكبير الأستاذ عباس الخليلي تتضمن الشيء الكثير من العواطف والتقدير لهذا المجاهد الكبير الذي تلقى تحية استاذنا العباس في أثناء استشفائه بمدينة استراسبورج بفرنسا . سلمه الله ورعاه :

الاخاء

إلى الطبيب الطاهر أبي الحسن محمد علي الطاهر :

سيري إلى العليا حسن ... لأحلّ عند أبي الحسن
فهو العليُّ محلـه ... لمن استجار به سكن
شيخ الكرام ومجدهم ... من أسس العليا وسنّ
تشتاق عيني نظرة ... منه وقد جفتِ الوسن

ان لم أفز بلبانتي ضيعت في الصيف اللبن
ألقي بحضرته العصا ولفضله أرخي الرسن
رب الفصاحة جاعل فن الصحافة خير فن
ببراعه وجهاده نصر العروبة والوطن
فهو المجاهد في الحمى ان حل يوما او ظعن
وان استقرّ وان سعى واذا استقل وان قطن
هو طاهر العرض الذي نقّى الحياة من الدرن
لاسم النبي قد انتمى واسم الوصي به اقترن
وله ابن عم ماجد أعني النصوح [1] المؤتمن
احرى واجدر بالعلى ان لم يكن أحرى فمن ؟
فاحفظ له (سرپانمك) [2] من ريقها سلوى ومن
جادت عليه بقبلة تشفي الغليل بغير منّ
خلٌّ الدعابة انها تقضي عليه بسوء ظن
فالطاهران هما هما بالروح طابا والبدن
نفسي الفدى لهما وما للنفس عندي من ثمن
وله الحبيب بتونس عادت بهمته [3] السنن
قد شيد استقلالها وحمى البلاد من الفتن
وأعاد مجدا تالدا وأباد عباد الوثن
هو سيّدٌ وبمثله بخل الحمى والدهر ضن

---

(١) المقصود به الاستاذ علي نصوح الطاهر
(٢) كلمة فارسية تقال للرجل المفعم بالملح وهي كناية عن الجاذبية .
(٣) اشارة الى الزعيم حبيب بورقيبه الذي تربط الطاهر به رابطة من الولاء والمحبة

يا سيد العرب الـــذي هانت لبغيتـــه المحـــن
شيّدت أعظـــم معهـــد بعد الدثور عـــلى الدمن
فاغـــنم صداقـــة طاهر والردن منـــه فالزمـــن
هو خير خـــلّ فاضل بخليلـــه جـــاد الزمن

استراسبورك عباس الخليلي

* * * *

فأجابه الأستاذ علي نصوح الطاهر بما يلي :

منقولاً من مجلة الآخاء ومن مجلة السياحة البيروتية :

عباس يـــا خـــل الوفـــا عباس يـــا كنـــز الزمن
الســـير للعليـــا حســـن ويحل عند أبـــي الحسن
وهو ابـــن عـــم أكـــرم أصحابـــه أهـــل الحسن
يشتاقـــه كـــل الالـــى في دمهـــم حب الوطـــن
خشي العـــدا من حربـــه في السر كـــان أم العلن
عرفـــوا رجولته فمـــا بهتـــوا بطعن أو بظن
لا أستطيـــع مديحـــه هل لابـــن عمي امدحن
وتمـــادح الأهلين فـــي عرف المحافل لـــم يسن
انت الخليـــل المصطفى في شخصك النبـــل كمن
من شعرك المجد ارتـــوى والنفس هاجت بالشجن
وبخلقك السامي أخذت قياد صحبـــك يا مفن
ولسقمـــك اهتـــز الفؤاد وأقلق القلـــب الحـــزن
قاسمتـــك الألم البعيـــد وخافق في العمق أنّ
فأنـــا الشجي محـــاولا تخفيف شجوى ذي شجن
ماذا أصابـــك يـــا حبيب الروح يـــا رمـــز الفطن

حتى فقـــدت وأنت مـــن ... كـــان الحبيب المحتضن
دعني أداعبـــك قليـــلا ... عـــلّ روحك تمرحـــن
هـــل كان في ستراسبورغ ... جنات خلد من عـــدن
حور يجـــددن الشبـــاب ... فينعش الحب البـــدن
او كـــان دوار الكليـــبر ... ملتقـــى غيـــد فـــتن
او كـــان دقـــاق الكنيسة ... جامعـــا أهـــل اللسن
فذهبت تسحر أهلهـــا ... في شعرك السامي الحسن
وأخذت تذرف للجموع ... دموع شجو قـــد هتن
ورويت ما فعل اليهـــود ... بقومنـــا فعل الافـــن
وهم الذيـــن تفـــردوا ... بين البريـــة باللعـــن
كم أوقدوا للحـــرب نارا ... من قلـــوب في لحـــن
تغلي مراجلهـــا الكراهة ... ثم تطفـــح بالاحـــن
ابليس مـــن آبائهـــم ... والمـــين حيهـــم سكن
هم يعبـــدون سبائكـــا ... لارب الا اذا الوثـــن
لا خلـــق لا روح ولا ... يرجون مـــن رب منن
زعموا بأن الرب قـــد ... جازاهم سلـــوى ومن
وبأنهم خـــير البريـــة ... واجتباهـــم في المحن
كذبـــوا اراهـــم كذبوه ... بمـــا أتـــوه مـــن درن
وبمـــا افتروه بـــاسمـــه ... في النص كان أو السنن
والله يعلـــم أنهـــم ... في الكـــون أسباب الفتن
فالقلب يـــا عباس فـــي ... يئس فبـــدد من وهـــن
وانفـــح بشعرك رائقـــا ... من روح قـــدس يستسن
واذا فعلـــت فـــان هـــذا ... مرتجى الفـــذ المفـــن
أنت الصديـــق الاكرم ... النفشـــات حـــر ترجحن
هـــلا حللـــت ديارنـــا ... حـــتى نراك ونكرمـــن

فالباسمـــات المشرقـــات بمثلهن الدهـــر ضـــن
والنيـــل والأشجـــار والأطيار في عرس علـــن
والقـــوم في لطف وفي دين وفي ظـــل المـــن
انـــا نجدد مـــن ضيـــاء الذكـــر ذا خير شدن
رحـــم الالـــه ربوعـــه وروده غيث مـــا هتن
والطاهران رجاهمـــا عباس محبوب الزمـــن
وأنا (النصوح) أخـــوك فاعلم أنـــي لا أنزعن
تقي وحبي أنـــت عندي في الرؤوس وفـــي المـــتن
حياك ربـــك اوحـــدا بين الملا ثـــم اسلمن
قد عشت رمـــزا للوفـــاء وللرجولـــة والوطـــن

* * * *

في حفل تكريم الادب العراقي بممثله احمد حامد الصراف
ويرى الخليلي في الوسط والى جانبه المحتفى به الصراف

ولم تقتصر صفات أخي على الشعر ، والأدب ، والثورة التي اتصف بها ، والجرأة التي رافقت مراحل حياته حتى في أحرج الاوقات ، وانما كان يعرف بالظرف ، وسرعة البديهة ، والنكتة ، فيتحول مجلسه كله إلى ضحك متواصل ليس لكثرة ما يروي من الشواهد والأمثلة المثيرة ، ولا لسعة باعه في التاريخ ، واحاطته بالغريب من الوقائع ، وانما (للمقالب) التي كان يحيكها والتي يروي عنها الأستاذ الصافي النجفي الذي عاشره سنين طويلة الشيء الكثير ، وقد لا تخلو رسائله وشعره من فكاهاته وتبسطه ومزاحه فيأتي بمزيج من الجد ، والدعابة التي ترتاح اليها نفوس الاخوان ، ولذلك شواهد كثيرة يعجب القارىء كيف تتأتى لهذه النفس الثائرة ، والمتحمسة الهائجة ، مثل هذا الظرف والمرح النفسي وابتكار (المقالب) بقصد التسلية ، والحق ان لأبي قسطا غير قليل من هذه الصفات باستثناء الثورة والحماس الذي لم يعرف طريقه إلى نفس أبي ولا مرة ، فقد كان أبي مرحاً وهادئاً ولين العريكة .

ومن لم يعرف أخي عباساً عن كثب يصعب عليه أن يتصوره على حقيقته تصوراً صحيحاً على رغم ما تفيض به رسائله وشعره في المناسبات الاخوانية .

وأنا معتاد ان أنزل ضيفا في كل صيف على الصديق الكريم الدكتور (أمين زهر) بسوق الغرب ومن عادة أخي مواصلة رسائله لي أينما صرت ، وكنت ، وفي ذات صيف كتبت له أربع رسائل ، ولم أتلق منه جواباً ، خلافاً لما اعتدته منه حتى اضطررت لمعاتبته في رسالتي الرابعة مع شيء من القلق عليه، فردّ علي برسالة اضافية ، وفيها هذه القصيدة التي يذكر فيها سوق الغرب ، و (أمين زهر) مضيّفي ويرد عليّ عتبي بهذه الدعابة التي هي من احدى سجاياه المألوفة ، والكثيرة الوقوع نظماً ونثراً : فيقول :

وقاك الله يـــا ابن أبـــي من الاوهـــام والريب
كتبت إليّ عـــن بطـــر تحاسبني على الكتـــب
تقول كتبت أربعـــــة فلم تحفل ولم تجـــب

تعاتبني وتهجرني بلا ذنب ولا سبب
أتعتب يا خليّ على شجيٍ بائس تعب
وما مثلي كمثل أخي وما فعلي كفعلك بي
فهل أنا أعجمي لاعدمتك أيها العربي
فواويلاه من ندب يمتّ إليّ بالنسب
وخير في الاخاء لنا جميعاً لحمة الأدب
فان كان الاباء لنا شعاراً كنت خير أبي
فلا لوم على لؤم ولا عتب على تعب
فعدْ واسمحْ وسُدْ واصفحْ وذُدْ وامرحْ وجُدْ وهَبِ
وعجّل واقترب مني تجدني خير مقترب
أياضيف (الامين) أقم بسوق الغرب واغترب
وصيّرني طفيليّاً وجُدْ أو جدَّ في طلبي
فقد طاب الثريد وان تركت أخاك لم يطب
واني يا أخي أدرى وأحرى منك بالنشب
على رأسي سأسعى لا على قدمي أو ركبي
إلى دار (الامين) إلى مغاني الأنس والطرب
بروض كله (زهر) ومن يقصده لم يخب
فقرّبني وأجلسني على تخت من الخشب
وقل لي يا أفندي ، يا أغا ، يا بيك ، يا چلبي
على اني انا (الپاشا) فحسبي في العلى حسبي
ولكن لست أقنع من ذوي الاحلام بالرتب
فبالألقاب يعرفني بيوم الفخر كل غبي
طغى في أرض أندلس بفخفخة ذوو اللقب

يصـــول الهـــر منتفخـــا فيحكي الليث في الغضب
وكم ليث بـــلا نـــاب وكم هـرٍّ بـــلا ذنب
وكم رجـــل بلا فضل وفضـــل جرّ للعطب
فخلّ الهجر واصفح ان خلقتُ الجدّ باللعب
تَرَ ابن المغربيّ هـــذا من الحمقى دَدَنْ دَدَني
أزفّ (الزهر) في قولي وهـــذا منتهـــى إربي
فقل يا رب صن واحفظ (أمين الزهر) للعرب

* * *

لا أدري من القائل : ان الكريم ليخدع . أو إن الكريم مخدوع . ولست أفسر الخداع أخي بغير هذا فقد كان سمحاً ما عهدته ردّ لأحد طلباً ولا ندم على تضحيته . وعطائه . سواء جاء ذلك منه في محله أم لم يجيء . ثم انه ليعتبر المال حقر من أن يغير طبيعة أو يبدّل خصلة في الانسان . وطالما كان يذكر للناس ما لقي من جوع . وعطش . وما قطع من الطرق مشياً على الاقدام . فلم ينقم على الحياة . ولم يحتقد على الظروف . كما لم يهتم يوم صار له بيت فخم وامتلك سيارتين حداهما له والأخرى لزوجته . وصار له رصيد في البنك . وأرض يزرعها . انه لم يهتم اذا فقد بعضاً ، أوكلا من هذا مرة واحدة . وقد حصل هذا بالفعل . فقد رأى مرة أن يبيع بيته الكبير . ويشتري بثمنه بيتاً على قدر الحاجة لسكناه . ثم يشتري بيتاً لأولاده الأربعة الذين كانوا يتلقون دراساتهم العالية بألمانيا . ليكون هذا البيت مقراً لهم . وليكون محط نزول أي واحد من أهل بيته اذا ما أزمع السفر الى أوروبا . فباع بيته الكبير وكتب لأولاده في أن يبحثوا لهم عن بيت تتوفر فيه كل الحاجة ما داموا هناك يتلقون علومهم . وتتوفر فيه كل الحاجة في المستقبل لمن يريد أن يقضي الصيف هناك . ثم راح هو يبحث عن بيت ملائم لمتطلبات حياتـــه بطهران . انه وهو في مثل هذا الحال من البحث عن البيت الملائم المنشود . وانتظار ما تتوصل اليه الاولاد : يزوره تاجر سجاد كبير يعرف باسم (فرشچيان) ويطلب ...

أن يتكفله لدى (البنك) بمبلغ كبير يزيد على ما أودع ويستنفد كل ما يملك من الرصيد (المكشوف) مؤكداً له بأن صفقة تجارية كبرى من السجاد قد عرضت له ، وان الربح الكبير المنتظر من هذه الصفقة قد حمله على الاستدانة من بعض الاصدقاء ومنهم هو . أي أخي . فقال له الخليلي : والبيت الذي أنوي شراءه هنا ، والبيت الذي أنوي شراءه لأولادي هناك ؟

قال فرشچيان سيكون المبلغ جاهزا في الساعة التي تعثر أنت على البيت المطلوب ، ويعثر أولادك هناك على بيتهم .

الخليلي يستعد لالقاء محاضرة والمقدم يقدمه للحاضرين

ولم تكن بين أخي وفرشچيان من الصداقة التي تستوجب مثل هذه المغامرة ، وكل ما كان هو أن (فرشچيان) من كبار تجار السجاد وان بينه وبين أخي كانت معرفة ما ، وإن لم تبلغ حدود الصداقة ، لذلك لم يتوان أخي عن الذهاب الى البنك وتوقيع الكفالة بما يساوي لديه من النقود التي حصل عليها من بيع بيته . ومن

الرصيد (المكشوف) لديه عند البنك .

وبعد يومين لا غير اختفى (فرشچيان) وأعلن افلاسه بعد ذلك ، واستولى البنك على كل ما كان يملك أخي . وطولب بأن يسدّد ثمن الرصيد (المكشوف) ، وكان من جراء ذلك أن باع ما يملك من السجاد والاثاث والسيارتين وصرف الخدم من بيته . فاغتمّ ولكن غمّه لم يطل كثيراً فما هي الا أيام قليلة ويعود الى ابتسامته التي لم تفارقه طوال حياته ، وكان هذا مزاجه في حياته ، وراح يذكر للأئمه ما سبق له أن تجرّع من مرارة العيش ، وكان يقسم انه وجد شيئاً من اللذة فيما فعل . وأن الأيام تمضي وتعود ، والمهم في حياة الانسان راحة (النفس) وقال انه مرتاح كل الارتياح لكونه سيبدأ الحياة من جديد .

ذكرتني هذه القصة بقصة نظيرها وقعت للشاعر الكبير عبد المحسن الكاظمي في دمشق ، وذلك قبل أن يهاجر الى مصر ، وقد كان يعمل في التجارة ، فجاءه شخص لم يكن بين الكاظمي وبينه كبير معرفة يطلب منه أن يكفله لدى الحكومة بمبلغ بالغت القصة في تقديره ، فتقدم الكاظمي الى دار الحكومة ، وكفل الرجل بالمبلغ المذكور ، وفي اليوم التالي فرّ المكفول ، وأمسك بتلابيب الكفيل وسيق الى المحكمة ، والشاعر الكاظمي معروف بالارتجال حتى لقد ينظم عشرات الابيات في مجلس واحد فيثير الدهشة . لذلك لم يكن من الغريب أن يرتجل الكاظمي شرح حاله بالشعر أمام المحكمة ويفتح قصيده بهذا البيت .

تجني المروءآت على أهلهـــا أضعـــاف ما تجني الجنايات

ولا أعرف بعد ذلك ما تبع هذه الابيات من أبيات .

* * *

لقد شكا أخي في السنين الأخيرة من ارتفاع ضغط الدم فكان ذلك سبباً كبيراً لملازمته البيت ، وقلة احتكاكه بالناس ، وكان يعوض عن كل ذلك بالانكباب على التأليف ، والكتابة ، ومع ذلك فلم يخفف انشغاله هذا

من شعوره بالعجز بعد كل ذلك النشاط والحماس ، وكان أكثر ما ينغّص حياته هو فقدان الانسجام بينه وبين زوجته وبعض اولاده ، حتى لقد بدأ يحس بالغربة غربة النفس وقد أشارت غير صحيفة الى فقدانه الراحة بسبب اختلافه مع اهل بيته ، وكتب لي مرة في احدى رسائله يقول :

«... انما أنا غريب » ويختم قوله بالبيتين التاليين :

وارحمتا للغريب في البلد النـــازح ـــــاذا بنفسه صنعـــا ؟
فارق أحبـــــابه فمـــا انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعـــــا

ومع كل ذلك فقد كانت رسائله كلها تفيض بالمرح والظرف ، وحلاوة النكتة الى جانب فيض من الامثلة وأبيات من الشعر .

وفي أوائل شهر كانون الاول من سنة ١٩٧١ حدث بينه وبين زوجته وابنه الكبير الدكتور مهيار الذي كان يساكنه اختلاف طالما كان يحدث من قبل فكان يتصبر عليه ، ويتجلد ، أما في هذه المرة فقد خارت قواه ، ولم يعد له ذلك الصبر على تجرّع المرارة ، فقد اضطر الى أن يترك بيته ويخرج .

ولما لم يكن في حالة طبيعية من حيث صحته ، وارتفاع الضغط عنده ، فقد فضّل أن ينزل المستشفى حتى اذا خفّ الضغط عنده وعاد الى حالته الطبيعية انتقل الى أحد الفنادق ريثما يهيء له بيتاً مفروشاً ، ويعدّ لنفسه أسباب الراحة اللازمة ، فقد صمّم على عدم الرجوع الى بيته ، في حين ظل ينفق على زوجته ما كان ينفق سابقاً وأكثر .

وقد كتب لي من هناك يقول لي انه يحس الان براحة لم يحس بها من قبل ويقول لي ان الصديق الدكتور مصطفى الزاقي ، قد مرّ بالمستشفى لعيادة أبيه الذي كان ينزل هذا المستشفى ، فعلم بوجوده فزاره ، وعلم بما وقع بينه وبين زوجته وابنه الدكتور مهيار ، فألح بأن ينقله الى بيته ساعة يتم له الشفاء ويخرج من المستشفى ، وألح الدكتور الزاقي وأصرّ ، ولما لم يجد استجابة من أخي أقسم له بأنه سيترك له

الحرية ساعة يجد البيت الذي تتوفر فيه له كل وسائل الراحة ، ولن يعارض انتقاله من بيته حين يتم ذلك ، أما الآن فيجب أن ينزل في ضيافته ، وهكذا نقله بسيارته الى بيته وكان البيت واسعاً ، وكان جانب منه يؤلف جناحاً تتوفر فيه كل وسائل الراحة ، وقد رتّب له هذا الصديق كل متطلبات الخدمة ، وتنظيم الطعام ، وما يقتضي له من أمور تكفل له الهناءة ، حتى لقد كتب لي بأنه وجد في بيت هذا الصديق ما لم يجده طوال عمره في بيته الخاص مع زوجته وأولاده ، على أنه كان يحبّ زوجته وأولاده كثيراً ولحد العبادة .

وجاءت زوجته وابنه الكبير والصغير الى بيت النراقي يستغفرونه ، ويطلبون منه الرجوع الى بيته ، فقال لهم — على ما كتب لي — أما العفو فهو حاصل قبل أن تطلبوه ، وأما العودة فهذا ما لا يجب أن تتوقعوه ، فاني خرجت من بيتكم ولن تروني بعد اليوم ؟

كيف كان يعلم أن مقابلته هذه لأهل بيته ستكون آخر مقابلة له ، وأنه سيلفظ أنفاسه في غير بيته ، وفي المستشفى ، وكان يعني ما يقول حين قال :

(انما أنا غريب) .

وفي بيت هذا الصديق : الدكتور مصطفى النراقي الذي كان يتفانى في محبته ، واخلاصه ، عادت اليه النوبة ، وارتفع ضغط الدم بصورة مفاجأة ، فنقل الى المستشفى ، وفي تلك الأثناء ، كان نادي القلم يحتفل بيوبيل الخليلي الذهبي بناء على مرور أكثر من نصف قرن وهو يحمل قلمه بين أنامله ، وقد كانت حفلة باهرة وقد أعدّت لها العدة منذ بضعة شهور شارك فيها عدد كبير من أهل العلم ، وحملة الأدب ، والمستشرقين ، وقد أفاضت في نقل أخبارها الصحف ، ودعا المحتفلون له بالشفاء ، ولكن مشيئة الله التي لا رادّ لمشيئته اقتضت أن تستأثر به رحمة ربه فتوفي في يوم ١٠ شباط ١٩٧٢ مبكياً عليه من قبل كل من عرفه أو سمع باسمه .

ولست في حال تساعد على شرح ما لقيت من أثر هذه الصدمة على نفسي ، ويكفي القارىء أن يعلم بأني طالما كنت أدعو الله أن لا يفجعني به وأن لا يجعل يومه قبل يومي ، ولكن الله لم يستجب دعائي ، فكان جرحي به عميقاً ، وحزني

عليه سرمداً ، حتى لقد جفت آخر مـا كان بامكان عيني أن تذرفاه من الدموع ، ولا أنكر اني لقيت من عطف أهل المحبة من العلماء والادباء والاصدقاء فيضاً من المواساة والتعزية . وقد كانت رعاية سيادة رئيس الجمهورية العراقية المهيب أحمد حسن البكر الذي أوفد من ينوب عنه في تقديم التعزيـــة بمجلس تأبينه (الفاتحة) في طليعة العوامل التي خففت من أسى هذه الأسرة . كما كان لمواساة سيادة محمد أنور السادات رئيس الجمهورية المصرية التي نقلها السفير المصري بطهران الى أولا [illegible] أثر في نفوس أولاده . كما عزى جميع سفراء الدول الاسلامية والبلـ [illegible] بصورة خصة آل الفقيد بطهران .

في تشييع جنازة الخليلي محفوفة باكاليل الزهور التي قدمتها السفارات الاسلامية بطهران ، وقد سار خلفها ممثلون لمختلف الطبقات

مراث ومواساة

وهكذا كان أثر ما فاضت به نفوس بعض المعزّين في رسائلهم وقصائدهم التي جادت بها قرائحهم عفواً من الذين عرفوا الفقيد عن كثب أو الذين عرفوه بالسماع رأيت أن أقتطف منها بعض الجوانب وأثبته هنا بدون ترتيب كصور للاحاسيس الادبية والعواطف التي شملوني وشملوا الاسرة الخليلية بها ، واذا كان هناك ما ينبغي الاعتذار منه فهو في ترك ما ورد من الاطراء على المؤلف في هذه الرسائل على حاله ، خلافاً لما كنت اعتدته من قبل في أغلب ما كتبت وألّفت .

وان مثل هذا المقتطف من الشعر ، والرسائل ، والصحف ، كاف لاعطاء فكرة عن أثر فجيعة الادب بالفقيد ، ومواساة حملة الأقلام للمفجوعين به .

* * *

وهذه قصيدة للعالم الروحاني والشاعر الكبير السيد محمد جمال الهاشمي يرثي فيها الفقيد ويقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

لحضرة الاستاذ الجليل والكاتب والمحقق الكبير الاخ جعفر الخليلي المحترم دام بقاه ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

انما الدنيا قنطرة الآخرة وقد عبرها الخالد أخوك رحمه الله وكلي امل أن تتقبل

هذا الحادث بجلد وصبر واناة وثبات ، وأنت المرجو في الملمات ودم لأخيك

محمد جمال الهاشمي

من يكون الخلود بعض رواتـــه ... لانيال الممـــات ذيل حيـــاته
كيف يفنى الذي يُغنّي به الدهر ... فتصحو العصور من أغنياتـــه
والاديب الاريب من أسكر الأفكار ... فيما يفيض من نفحـــاته
ولقد أدهش العبـــاقر عباس ... بما قد أجاد من معجزاتـــه
فتـــآليفه الجليلة تبقـــى ... عنه ذكري ، والمرء في ذكرياته
شاد فيها حياتـــه ، فهي نجـــم ... يهتدي الحائرون في جلواتـــه
ونجوم التاريخ يحضنهـــا الخلد ... فتبقى تشع في ظلمـــاتـــه
وحيـــاة الأديب آثاره الغرّ ... وسحر الهزار في نغماتـــه
وبهذا المقياس ما زال عبـــاس ... يثير الاعجـــاب في وثبـــاته
انما اجتاز من حضيض المـــآسي ... لفضـــاء يموج في لذاتـــه
سار فيه لطف الآلـــه ليبقى ... في نعيم السمـــا وفي جناته

* * *

يا خليلي لك البقاء وهـــذي ... عاطفات ، والمرء في عاطفاتـــه
أنت تغريدتي يصلي بها قلبي ... فتحلو الحيـــاة من صلواته
فلتعش وليفُزْ أخوك بنعمى ... الله من عفوه ومن رحماته

النجف الاشرف ... الهاشمي

* * *

وهذه رسالة من المؤرخ الكبير والعربي المجاهد العلامة عجاج نويهض يقول فيهـــا :

سيدي الاخ المؤمن الاستاذ جعفر الخليلي أمتع المسلمين به .

أما بعد ، فقد كتبت الى سيدي الاخ الكريم في أول هذا الشهر ، وأخذت في هذه الايام الأخيرة رسالة من الأخ الحبيب الاستاذ صبيح الغافقي وبما ينقله اليّ ،

والتاع له قلبي : ان العبقري الفريد . والطائر الغرّيد : صدر الأدباء ، والعلماء ، والشعراء ، وقدوة الباحثين ، وهادي الثائرين . وعنوان المجاهدين في ثورة العراق ، السيد العباس قد اختاره الله الى جواره ، رحمه الله أوسع الرحمات ، وجعل منزلته مقعد صدق عند مليك مقتدر .

هو . عليه رضوان الله . أخوكم ، ولكنه في النبل والفضل والمروءآت أخ لكل مسلم ، واذا كان العلماء ورثة الأنبياء . فالعباس — طيّب الله ثراه وكان في أعلى الجنان مأواه — في طليعة من جعله العلم في الصدور نورا ينطلق في السطور ، يمحو الدياجي والديجور . فهو صاحب المقام المكرم والطراز المعلم .

نعم . اني كنت أعلم انه من قلّة الاساطين ، وحوضه مورود ، ولكني ما كنت أعلم قبل أن قرأت رسالة الاخ صبيح أن كتبه التي وضعها وترجمت الى عدة لغات بلغت الثمانين ، فهذا من فضل الله ؟

ان فقد السيد العباس خسارة عظيمة على اللغتين الشقيقتين في المحاورات العلمية : العربية والفارسية ، فهو في شعره البرج العالي فمن يضاهيه .

علم ، ووطنية ، وأخلاق عالية ، وأريحية ، ويمثل تراث بيت من أجلّ البيوتات في العراق العربي العزيز ، اني أعزيكم ونفسي . وبيتكم معدن الفضل الباقي على الايام ، ومعين العلم الفياض . ودامت شموس هذا العلم مشرقة . ولكم طول البقاء وانّا لله وانا اليه راجعون .

رأس المتن — عجاج نويهض

* * *

ولم يكتف المجاهد الكبير عجاج نويهض برسالة تعزيته الأولى بل أردفها بهذه الرسالة بعد أسبوع والتي يقول فيها :

سيدي الأخ المستظل بظلّه . المقتبس من عقله ، ونبله ، وأبدأ القلوب مشتاقة الى وصله ، وديم وبله . الأستاذ جعفر الخليلي دام الملاذ والمنار ، بفضله المدرار ، ونعم الدار .

أشرقت عليّ رسالة الأخ السند ، وهي منه باشعاعها الايماني كاشعاع الشمس

ينعش ، ويضيء ، ويحيي ما يحيي ، فمنك أيها البلسم للنفوس يتزود المصابون بالايمان ، وعنك يأخذ الناس آداب بثّ ما في النفس من شكوى الصدر ، والتجمّل بالصبر .

ولا يزال مصاب «العباس» رحمه الله . هو المزلزل للقلب ، ومنزل الدوار ، مع الايمان بالرأس ، فاني اذا عزّيتك مرة فلعمري ماذا فاعلة التعزية ولو كانت الف مرة فهو اليوم في ذلك الفردوس عند ربه في عالي الجنان . ولكنه حكم الله في عباده يختار جواهرهم ، وكأن الحكمة في ذلك ، بعد نزول القضاء والقدر ، الامتحانفي الايمان، وليعلم الناسأن الموت اذاكان حقاً فيبقىلهم أن يلاحظوا مجتمعهم انما يزيد أو ينقص بأهل الفضل ، والعلم ، زادوا أو نقصوا ، وفقيدنا الغالي : العبّاس هو فينا الميزان ، وعوّض الله على العرب والمسلمين عنه خيراً ، بالجاري على البركات ، من مناهل فضائله ، وشمائله في البيت الكريم ، ورجالاته ، وحفظكم الله وأعلى بكم اللواء ، وكنتم لنا نعم الامل المحقق وكتب لكم طول البقاء .

٢٤ / ٣ / ١٩٧٢ رأس المتن – عجاج نويهض

* * * *

وكتب الكاتب العبقري الكبير وديع فلسطين يقول :

أخي الأحبّ الأكرم العلامة الكبير الأستاذ جعفر الخليلي

دام في حفظ الله ورعايته

بينما كنتُ أتهيأ للرد على رسالتك الكريمة المؤرخة في ١٣ من فبراير التي تلقيتها هذا الصباح ، باغتني نبأ وفاة حبيبنا الغالي عباس الخليلي فوجمت ، ثم انفجرت ، وبكيت بالدمع السخين هذا الرجل العظيم الذي أكرمني دون أن يلقاني ، وغمرني بفضله وأنا أنأى الناس عنه ، ومنحني من مودّاته وعطفه ما جعلني كبيراً بين القوم ، وإذا كانت فجيعتي أنا فيه على هذا الغرار القاتل ، فكيف بالله تحتمل أنت هذا الرزء الجسيم ؟ وأنت قد أحببت الغرباء فأنزلتهم في أعزّ مكان من

قلبك ، فكيف وكيف تكون محبّتك للشقيق الغالي ، بأخلاقه الملائكية ، وعلمه المتبحر ، وفضله العميم ، وكرمه الذي لا يُحدّ ؟

ويزيد في حزني عليه أنه لقي في أخريات أيامه من جحود ذوي القربى ما يفاق الصخر ، فمات مكمّداً ، مغيظاً ، حسيرا ، عوضاً عن أن تكون وفاته مرجأةً ، وحياته ممدودة ، بين أحباء أصفياء ذاكرين مقدّرين ، يكرمون شيخوخته ويترفقون بضعفه .

ولا أدري ، وأيم الله ، بماذا أعزّيك ، وأنا بالعزاء أحقّ ، وإليه أحوج ، بعدما نعمتُ بمكرمات هذا الأريحيّ الثمين ؛ وكيف أمحضك عزاءً والدنيا جميعاً لا تعوّضك عنه ، ولا تستخلفه في ذريرة من ذريرات فضائله الكثار ، وليتني إلى جوارك ، يشجّع واحدنا الآخر على الاحتمال والاصطبار ، فأنا مشفق عليك ، وعلى صحتك ، من وقع هذا النبأ المزلزل ، وأنت رجل مفطور على رقّة الأحاسيس ، ودقّة المشاعر ، ورهافة الصحة ، فتجلّد يا أخي ، واستقو على الحادثات الكريهات ، وسبّح ربّك الذي تعلو حكمته على حكمة البشر ، وكن حامداً ، لأن ألسنة الخَلْق قد أشادت بهذا الرجل الفاخر ، ولم تضنّ عليه بثناء ، أو إطراء ، فسيرته المبسوطة تراثٌ يُزْدَهى به ، وما أجمل هذا التراث لكلّ خليلي من أصلابه أو ذويه .

واعذرني مقصراً في مناسبة العزاء ، لأن قلمي صعب الاقتياد في هذه المواقف الثقيلة ، وهو — مهما أوتي من بلاغة التعبير — عاجز عن أن يكفكف دمعةواحدة من دموعك السخينة الغزار على الأخ الأبر الأغلى .

ليحفظك الله يا حبيب الروح من كل كريهة وسوأة ، ودمت لأخيك ومحبك

القاهرة — وديع فلسطين ٢٤ / ٢ / ١٩٧٢

* * *

وهذه رسالة من الشاعر العربي الفذ الكبير جورج صيدح يقول فيها :

أخي الكريم المفجوع بأعزّ الاخوان

وصلت باريس لساعتي بعد الاستشفاء شهراً من آثار العملية الجراحية وبادرت الى فتح الرسائل التي تنتظرني قبل فتح حقائبي فوجدت بينها ذلك النعي المشؤم الصاعقي بوفاة أحب خلق الله ، وأكرمهم ، وأعظمهم قولاً ، وفعلاً ، وأدباً ، وعقيدة ، وجهاداً ، فأنا أبكيه كما تبكيه أنت ، وأعدّد أياديه عليّ فيتفطر قلبي من الحزن والوجد . وأسأل ربي لماذا اختاره وأهملني وهو يصغرني بسنوات فأذكر قول الشاعر :

والموت نقـــــادٌ على كفّـــه جواهر يختار منها الجيـــــاد .

آخر آثاره المأثورة عندي كان شعره المنشور في مجلة الاخاء في وصف زيارته لباريس دون أن يتخطى عتبة داري . وصفاً مبتكراً ، رائعاً أدهشني ،وأفحمني . فأخذت أراسله منذ ذلك الحين للترويح عنه بدعابات كان آخرها قصيدة بنت باريس أرسلتُها في ١٢ شباط الفائت وربما وصلت طهران بعد وفاته لأنني لا أعلم تاريخها بالضبط ، أكيداً أنها في أواخر شباط لأنك في ١٥ منه أرسلت الي كتابك (النجف بيئة شعرية) وانت خالي الباني مما خبّأه لك ولي القدر الغشوم . أما الان وقد نفذت مشيئة الباري ، وفارقنا الأخ الغالي ، فلا حيلة لنا سوى الجلد والصبر ، إلى آخر العمر ، ولله النهي والأمر .

عفوك عن هذه العجلة القلقة فأنا أكتب بلا روية ولا صواب ، متمنياً لو كنت قربك لأواسيك أو لتؤاسيني ، وسائلاً الله أن يرعاك بعنايته ويعوض بسلامتك عمن فقدتا .

باريس — ١٣ / ٣ / ١٩٧٢ جورج صيدح

* * *

وجاء في رسالة العالم الأديب الدكتور صفاء خلوصي

اخي الكريم الاستاذ جعفر

تحيةً دامعةً لأخ عزيز ، وصديق وفيّ ، في مصابه الاليم ، فقد كنت أرجو أن أسمع أخباره السارة الطيبة فأهنئه ، لا أنباءَه المؤسفة المؤلمة فاعزّيه ، ولكن هكذا شاءت الأقدار ولا رادَّ لمشيئتها ، فليس لنا إزاء ذلك كلّه الا التجلد والتأسي والصبر .

والحق انني كلما سمعت بموت عزيز أو قريب لعزيز تجسمت عندي تفاهة الحياة وسخفها ، وازداد التياث الامر في فهم معنى هذا الدّور الذي تمثله على مسرح الحياة لفترة جد قصيرة في عمر الزمن ثم تمضي .

على أنه مما خفف من وقع المصاب ما ذكرته الصحافة العراقية من أن الفقيد الراحل قد ترك وراءه ثمانين كتاباً ونيف ، وانه لعمري لتراث جليل ، وما مات انسان ترك كل هذه الثروة الفكرية بعده ، فهو حي في ثمانين صورة ، أو يزيد ، ومع أكثر من لسان ، فطوباه في الدارين وهنيئاً له في دنياه وأخراه ، فقد مضى حميداً كما عاش حميداً .

وعزاؤنا نحن الذين نعيش بعده بأخيه جعفر ، وأنعمْ ، وأكرمْ ، من مفخرة بجيلنا المعاصر ، وعينٍ لقلادة أدبنا الحديث . وهذا ما سيذكره التاريخ إنْ لم يكن اليوم ففي القابلات الحافلات من الأيام .

لقد بدأت رسالتي اليك بتحية دامعة ، فاسمح لي بأن أختمها بنظرة ساخرة من الأقدار التي بدلاً من أن تهيء لنا المناسبة لتكريمك على أوسع نطاق ممكن لما قدمته من جلائل المآثر الأدبيه في العراق والعالم العربي اذا بنا نروّع بخطبك الفادح وننكس رؤوسنا خاشعين لنقدم السلوى والعزاء بها .

لندن ــ ٩ / ٣ / ١٩٧٢ صفاء خلوصي

* * *

وهذه رسالة من الكاتب الاجتماعي الكبير عبد المجيد لطفي يقول فيها :

سيدي العزيز – الاستاذ الكبير جعفر الخليلي المحترم

تحية حارة ، وبعد فإن عظم الفاجعة التي ألمّت بأسرة الخليلي الجليلة بوفاة عميدها الكبير الراحل المرحوم – عباس الخليلي – تجعلني أجدد عزائي بكل حرارة لكم من هذا المصاب الجلل فان الرجال قلة في هذا الزمان ، ويأبى الزمان الا أن يختار منها الجياد ، ومع أن جيلاً عاقاً قد انتهك كثيراً من قيم الماضي ، ونسي خلق الاولين ، وأعمالهم البطولية ، لتأسيس كيان هذا الوطن ، فان الاستاذ الكبير عباس الخليلي يظل في صميم ثورة العراق لحماً ودماً واخلاقاً يسطع عبر أكثر سنوات النضال ، بانبل ما في الانسان الحر من بسالة ، وتضحية ، وهو بشعره الحاد ، وكلماته القوية ، وبروح الشباب المتدفقة فيه ، أعطى الوطن أمجد ما يملك الانسان الشجاع : رقبته ، أكثر من مرة لمشانق الخونة الحقيقيين والعملاء الكبار ، في ما بعد ، وهم حكام !

ان عباس الخليلي – لمن يعرف نضاله ، وجهاده ، وسجونه ، وملاحقات العدوان له – شيء باق في ذهن كل حر وفي صميم التاريخ حين يتحدث عن البداية الرائعة والدامية أيضاً لكيان هذا الوطن الذي يتنازعه اليوم من لم يكن حتى علقة في صلب مجهول !..

ولو كان لي الخيار والقوة على الجهر بالحق لكتبت كل هذا للناس في خدمة ناصعة للتاريخ المعاصر ولأولئك الذين وجدوا الحاضر ثراً ومحدوداً ، وقائماً دون ان يلقوا نظرة على الثمن الباهظ الذي دفعه الآباء والاخوة أكداساً من الرمم الغالية ، فوق تراب هذا الوطن . وعزاؤنا جميعاً ، اننا نمضي وفق ما جبلنا عليه ، فطرة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ...

أثابكم الله الأجر ، وعوّضكم عن الراحل بطيب رياه ، وذكراه ، ومتعكم بكل خير ، وعافية ، وأبقاكم للمخلصين من أصدقائكم ، والمعجبين بكم في كل مكـــان .

مع تعزيتي الخاصة الى جميع أفراد عائلة الخليلي الكبيرة في كل مكان .

بغداد ــ ٢ / ٣ / ١٩٧٢ أخوكم عبد المجيد لطفي

* * *

وفي رسالة من الشاعر العبقري المجدد الياس فرحات جاء فيها :

أخي الحبيب الاديب الكبير الاستاذ جعفر الخليلي

كنت الوم نفسي وأعنفها لأني غفلت في رسالتي الماضية أن أكتب اليك كلمة تعزية عن فقيد الادب صديقك الاستاذ (شبّر) ؟ وإذ بي اليوم أتسلم الخبر الفاجع الذي جعلني أقول مع القائل : « لقد صارت الصغرى التي كانت الكبرى » فها أناذا أقف اليوم أمامك خاشعاً دامعاً ، أردد كلمات التعزية عن فقيد الادب العربي ، والفارسي ، وفقيد آل الخليلي الكرام . الشاعر الناثر ، الأديب الصالح ، الزعيم الاستاذ عباس الخليلي ، وماذا تراني أقول ؟ وكيف آتي بكلمات التعزية يا أخي ؟ ان أخاكم هذا هو أخ لكل أديب وأخ لكل عربي ، وعفوك إذا كنت عاجزاً عن ايجاد الكلمات التي تفي بما اريد .

أنا أكتب ولا أقرأ فبصيرتي تبصرني ، وباصرتي تخذلني فاعذر واسلم لأخيك

البرازيل ــ الافق الجميل ١٦ / ٣ / ١٩٧٢ الياس فرحات

* * *

ورسالة من الطبيب البارع والشاعر الكبير الدكتور سليمان داود يقول فيها :

أخي الحبيب جعفر !

اليوم بلغني نعي المرحوم أخيك عباس فأحزنني وأبكاني ، فلقد عرفته يوم كانت مجلة الاخاء تصلني ، ولقد كان رحمه الله من أقطاب العروبة وسادات الادب ، واللغتين العربية والايرانية ، ومما زاد في ألمي هو تاريخه أيام الاحتلال ، وما قاسى من الأهوال ، والغربة عن النجف ، وكربلاء وبغداد موطن آبائه ، وأهله ، واخوته ، وأجداده ، كان الله معك ومع عائلته يا حبيبي

ان الايمان بالخلود هو أكبر تعزية للذين فقدوا أحبتهم مثلك ومثلي .

دعني أضمك يا جعفر إلى صدري فان أوجاع وآلام الحياة تشدد أواصرنا . لك ولعائلتك تعزيتي ودعائي بالعمر الطويل والسعادة لك ولعائلتك ولعائلتهم .

أخوك

هيوستن – الولايات المتحدة ١ / ٣ / ١٩٧٢ سليمان داود

* * *

وجاء من الباحث الكبير شاعر الاهرام المجلي الأستاذ محمد عبد الغني ما يلي :

أخي الكريم الأستاذ الكبير جعفر الخليلي

الآن حمل إلي الأخ (الوديع) – وديع فلسطين – عن طريق الهاتف نبأ أليماً ، وخبراً محزنا بوفاة الأستاذ الجليل شقيقكم الشاعر ، الباحث ، الأديب ، عباس الخليلي من أول سيوف الله المسلولة على الأنجليز في العراق ، والذي ما كدت أقرأ له أخيرا في بعض المجلات ومنها (الإخاء) حتى فجعنا الموت فيه فجيعة كبرى ، فانفرط عقد الاخاء الأدبي التالد الذي كنت ضنينا به لأنه أوثق وآكد من كل الروابط .

وكأنما أراد الأخ (الوديع) أن يخفف عليّ أثر النبأة المؤلمة ، فأمدني ببعض أنباء أخر حول مساءات الأيام لبعض الصحاب . ولكنها لم تزحزح نبأ شقيقكم عن مكانه من النفس الهلوع ، وأذكر أن الاخاء قد نشرت للفقيد بعض الشعر الرصين ، فألفيتُ فيه نفسا عاليا ، وبناء عربيا متينا ، ونسجا محكما ، مما ذكرني ببعض شعره الذي جاشت به نفسه عقب فراره من سلطان الأنجليز ، فبعث إلى العراق وأهله بداليّة مؤثرة قرأت ثلاثة أبيات منها أو أربعة في الرسالة التي كتبها في سيرة حياتكم الأستاذ مشكور الأسدي .

ويظهر أن هذا دائماً دأبنا مع الزمان ، ودأب الزمان معنا ، فلا أكاد أظفر بمودة فكرية لصديق روحي ، حتى يستلّه القدر . وما كدت أتطلع إلى مأثورات المغفور له شقيقكم الأستاذ عباس في « الأخاء » وأمنّي النفس بمتابعة بيانه الناصع ، ومطالعة أدبه الرائع ، حتى حمل إليّ الهاتف نعيه ، فاسترجعت ،

وسألت له الله واسع الرحمة والمغفرة ، وسألت لك الله صبرا على الخطب، وإيمانا في المصيبة ، وإجمالا في العزاء .

يا أخي ! لقد كنت أعتزم الكتابة أليكم في شأن من شئون الحياة ، فاذا القدر الغالب يحملني على الكتابة اليكم في شأن الموت ... ونحن أمام القدر الذي لا يغلب ، والقضاء الذي لا يرد ، لا نملك إلا أخلص تعازينا نقدمها إلى الأخ الكريم ، داعين له بالصبر ومضاعفة الأجر .

والله يحفظكم من كل سوء — المخلص

القاهرة — ٢٦ / ٢ / ١٩٧٢ — محمد عبد الغني حسن

* * *

ومن الأديب الاردني الكبير الأستاذ روكس بن زائد العزيزي ممثل الرابطة الدولية لحقوق الانسان رسالة يقول فيها :

سيدي الأخ الحبيب أبا فريدة حرسه الله

نبأ الفاجعة بالمغفور له أخيكم العباس أمضّ قلبي ، مشاركة مني لقلبك الحساس الكبير !

لكن ما حيلتنا ونحن نواجه قضاءً آلهياً لا مرّد له ؟

اليس هو القضاء الالهي الذي نجّاه من حبل المشنقة ، وخيّب كل وسائل الطغاة الذين أرادوا أن يضعوا حداً لجهاده ، ويحرموا الامة من جهوده الخيرة ؟

واليوم يطلب القضاء الالهي الوديعة ، في الوقت المحدد لاسترادها ، واللحظة المقررة ، فتطير النفس الزكية إلى بارئها راضية مطمئنة مرضية وتبقى لنا الحسرات !

ان في الآثار الوطنية والانسانية والأدبية والعلمية التي أبقاها الفقيد ما فيه خير عزاء ، وفي ابنه الدكتور الذي كان لقائي له في عمان شهادة لعظمة الوالد الذي فقدناه ! ... مثل سيدي قدوة في الصبر ، والحكمة ، والتعقل لا شك انه لن

يسمح للحزن أن يستولي عليه كمثل الذين فقدوا الايمان بحكمة الخالق ورحمته التي لا تحد .

طيب الله قلبك ، وعظّم أجرك ، وأبقاك ذخراً للعلم والحكمة ولمكارم الاخلاق .

باخلاص

عمان — المملكة الاردنية الهاشمية مشاركك الاحزان : أخوك

روكس العزيزي

ممثل الرابطة الدولية لحقوق الانسان في الاردن

* * *

وأردف العزيزي رسالته باخرى يقول فيها :

سيدي الأخ الحبيب

العلامة جعفر الخليلي حرسه الله

كان الله عوناً لك !

ان فقد الأصدقاء رهيب حقاً ، فكيف اذا كان الصديق أخاً مثل المرحوم أبي مهيار ! والشقيق الصديق أثمن ما في حياة الانسان ، ولا يعرف هذا ، الا الذي حاول أن يجد بين أشقائه وأقربائه صديقاً يفهمه فلم يجد ! ...

لكن يا أخي ما فائدة حزننا الذي يدمّر أعصابنا ؟ ونحن نعلم أن كل من خلق الله ، وما خلق ، لا يمكن أن يردّوا ما كتبه القضاء في لوح القدر !

فاسأل الله أن يهب لك العزاء ، ويصونك من الاسترسال مع العاطفة أعود لأقول لسيدي الأخ الحبيب :

« خير من العباس ، أجرك بعده والله ، خير منك ، للعباس ! .. »

باخلاص

عمان ١٩٧٢/٣/١٨ روكس بن زائد العزيزي

* * *

ورسالة من المجاهد العربي الكبير الأستاذ محمد علي الطاهر يقول فيها :

أخي الأعز الأغلى الأستاذ جعفر الخليلي حفظه الله ورعاه

الآن ساعة تسطير هذه الرسالة الحزينة علمت بالمصاب الذي حل بكم وبنا جميعاً ، وبالعالم الاسلامي قاطبة ، بفقد أحد أساطينه وقادته الكبار ، شقيقكم العظيم المرحوم المبرور السيد عباس بك الخليلي ، سفير ايران في اليمن والحبشة سابقا ، بل أستاذنا وفخرنا وتاجنا ، فهو الملقب بالسفير الكبير ، ويا له من أسد مزير ...

فمنذ خمسين عاماً ، وفي ذات شهر من أعوام ١٩٢٢ حظيت بالاتصال الكتابي بشقيقكم عباس بك على صفحات جريدته اليومية العظيمة « إقدام » التي كانت تصدر باللغة الفارسية في طهران ، وقد أريتك في بيروت حين تلاقينا وتعارفنا لأول مرة بعض قصاصات جريدته « إقدام » التي نشر لي فيها ما أرسلته اليه عن فلسطين ومصائبها باليهود والاستعمار الانكليزي بعد أن ترجم أخوك عباس بك مقالتي بقلمه البليغ للغة الفارسية ونشرها فيها . فرحم الله تلك النفس الزكية التي ما لبث القدر أن فجعنا بها بعد اطمئنان بالنا عليه إثر رجوعه من المعالجة في ستراسبورج بفرنسا إلى وطنه طهران ، ثم تشرفنا بقصيدته العظيمة وتحياته العطرة لي ولأبن عمي نصوح الطاهر — تلك القصيدة الشريفة البديعة التي كانت لنا شرفاً ومجدا ، وكان نشرها بمجلة الاخاء ثم بمجلة السياحة اللبنانية عزة ورفعة شأن .

وختاما فأني أسأل الله أن يتغمد هذا الفقيد الغالي برحمته ويسكنه جنته ، وأن يعوضنا الله بسلامتكم وطول حياتكم الكريمة ، وأن يحسن عزاءكم والامة جمعاء .

أخوكم الحزين

بيروت ٥ / ٣ / ١٩٧٢ محمد علي الطاهر

* * * *

ومما أنشد في حفل تأبينه (بمجلس الفاتحة) قصيدة للشاعر المعروف الأستاذ طالب الحاج فليّح جاء فيها :

يا أبا المكرمات

مالت الشّمس في الضحى للمغيب ... في غياب الندب الأديب الاريب
وأتى البدر يسأل الانجم الزهراء ... عن كوكب العلى الموهوب
أين (عباس) مَن به الفضل أمسى ... خافق البند في الربى والسهوب ؟
أين (عباس) خلف العلم يبكي ... ما له اليوم بعده من ربيب
قد أضلّت مسيرها الشهب لما ... حرم الأفق من سناه العجيب
غاب فالكل كاسف البال حسرى ... نفسه من غيابه في لهيب
أو يغدو الثرى مغيباً لنجم ... ضاق فيه مدى الفضاء الرحيب
لهف نفسي على السجايا لطافاً ... عابقات بكل عرف وطيب
يا أبا المكرّمات والخلق السمح ... وحلاّل كل أمر عصيب
ما عسى أن يقول فيك بيان ... هو من فيض لطفك المسكوب
أيها العالم الجليل تركت ... الحفل ضجّتْ أنحاؤه بالنحيب
أيها الشاعر المجيد رويداً ... بعدك الشعر عاد غير رتيب
أيها الكاتب الذي لا يجارى ... أنت نور لفكر كل أديب
تندب الكتب والتآليف ندباً ... فيك قد جلّ شخصه عن ضريب
إن بيتاً نشأت فيه رفيع ... منجّب أيّ عبقري نجيب
(أسد) [1] الغاب معقب كل ليث ... يدفع الشرّ عن حماه غضوب
لم تزل تذكر (الغريّ) فتاها ... شاهراً سيفه بوجه الغريب
قادها ثورة وخاض لظاها ... دون عزّ البلاد غير هيوب

---

(١) اشارة الى اسم ابيه الشيخ اسد

لم يُرد غير خدمة الشعب قصـــــداً وسواه يبغـي ثواب المثيـب
لك بين الجنـــان أسمـى مقـام يا (خليلي) تزهو ببرد قشيـب
ولنـا عيشة الحيـاة بـــــذل ولك العز في مقيـل خصيـب
بعدك العين دمعهـا ليس يرقـا ولظى الحزن في الحشى في شبوب
إن يكن غيّب الثرى منك جسمـاً فستبقى مخلـداً في القلوب

الحارثية / بغداد ١ / ٣ / ١٩٧٢ الحاج طالب الحاج فالّيح حسن

* * * *

ورسالة من الحقوقي الأديب البارع الأستاذ قاسم الخطاط جاء فيها :

أخي الحبيب الوفي الأستاذ جعفر الخليلي حفظه الله ورعاه

تحية واجلالاً

وبعد ، فلست أدري كيف أبدأ رسالتي اليك . ولكن هل مات ذلك الطود الشامخ ؟ وهل يموت انسان ملأ أسماع الدنيا وأبصارها ، جاهد من أجل وطنه وحكم بالاعدام، ونفذ من بين براثن المستعمرين، وهاجر من بلده، ثم إذا به يشقّ طريقه في بلد غريب ، فيملأ الأسماع والأبصار هناك أيضاً ، ويملأ الافئدة بأناشيده ، فيتناقل الركبان أناشيده . ويعرف أخباره القاصي والداني . وهل ينطبق الا عليه وعلى أمثاله قول المتنبي

وتركك في الدنيـــا دويّاً كأنما تناقل سمع الدهر أنمله العشر ؟

لقد ترك ذلك الرجل العظيم تاريخاً حافلاً ، وأمجاداً سامقة ، تقصر دون بلوغها همم أعاظم الرجال، ورجل مثل هذا لا يمكن أن يحسب في عداد الأموات .

انني من أعماق قلبي الحزين أشاركك أيها الاخ الحبيب ما تعاني ، انه رحيل الشقيق الغالي ، الذي يطمئن القلب ما دام موجوداً وان بعدت الدار ،

ويجزع حين يرحل ويغيب ، وأنا أعلم ما انطوى عليه قلبك الكبير من حنان ورقة ، كان الله في عونك ، وأسأله تعالى أن يمنحك الصبر ، والعزاء ، وأن يعظّم أجرك ويعوّضك خيراً ، وأن يحفظك وأهل بيتك ومن يلوذ بك وأن يحميكم من كل مكروه .

وانا لله وانا اليه راجعون

أخوك

القاهرة — ١٣ / ٨ / ١٩٧٢ قاسم الخطاط

* * * *

ورسالة من الأديب الكبير الشاعر الاستاذ خليل الهنداوي يقول فيها :

أخي الأديب الكبير الأستاذ السيد جعفر الخليلي

تلقيت خبر الفاجعة المروّعة ، فطلبت من الله أن يمدك بالصبر والجلَد ! ويخطىء من يظن أنه في أمان ، من حوادث الزمان، والعاقل من وطّن نفسه على انتظار السيء ، قبل الحسن ...

وان قلبك ؛ هذه العضلة الضعيفة ؛ بالرغم مما سلطت عليه الأحداث ، لا بد أن يتمثل بقول المتنبي :

رماني الدهر بالأرزاء حتّى فؤادي في غشاء من نبال
فصرتُ اذا أصابتني سهام تكسّرت النصال على النصال

وأما فجيعتك بأخيك العالم الأديب فهي فجيعة الأدب كله ، ولكن الذي يؤلم في فجيعته ، أنه توسّد تراباً غريباً عن تراب وطنه ! وأما الذي يعزي عنه فأنه ترك آثارا خالدة ، تطوف على روحه الخالدة ... رحمه الله !

حلب — خليل الهنداوي

* * * *

ومن الدبلوماسي الاديب الا مع . السفير العربي بطهران سابقاً ، الأستاذ علي نصوح الطاهر هذه الرسالة والمقطوعة الشعرية :

سيادة الأخ الأكرم الشاعر الكبير الأستاذ جعفر الخليلي حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد يعلم الله كم تألمت يا أخي جعفر حين أعلمني ابن العم الأستاذ أبو الحسن عن وفاة صديقنا الغالي شقيقكم الشاعر الكبير الذي لا يعوض المرحوم السيد عباس الخليلي فالبقية في حياتك ، والبركة في أولاده ، والمصاب مشترك ، فلنا جميعا الصبر على فقده .

لقد كانت للفقيد مكانة خاصة في قلبي وكانت بيننا أواصر صداقة قلبية وطيدة الأركان ، وكان لنا في طهران نعم الأخ الوفي ، والصديق الكريم الذي تعتز به المجالس . فكم اجتمعنا ، وكم أطربنا بأشعاره ، وأشجانا بموشحاته ، وأمتعنا بدعاباته ، وكم حلّقت جلساتنا بوجود الفقيد الكبير دولة الأستاذ ضياء الدين الطباطبائي ، وكم تسامرنا وتناشدنا وقضينا أسعد الأوقات في (سعادة آباد) في جو من المحبة رائع ، وكم حيّاني رحمه الله بقصائده الغراء ، وخصني بمحبته ، ففقد عباس هزّ الفؤاد هزّا ، وصدع القلب يا أخي جعفر صدعاً .

أسأل الله له الرضى ، لأن نفسه كانت آمنة مطمئنة ، ولا بد أن يدخله ربّه جنات عدن ، ويمتّعه فيها بما يستحقه لحسن جده في الاسلام ، والمسلمين ، والانسانية ، ويرحمه رحمة واسعة ، ويلهمنا وآله ، وذويه ، وأصحابه الصبر على فراقه ، وتفضل يا أخي بقبول أسمى عبارات العزاء مقرونة بالمحبة والاحترام .

أخوك المخلص
علي نصوح الطاهر

٢٧ شارع سليمان باشا السيد
مصر الجديدة (الحي الثاني)
القاهرة (ج . م . ع)

١٩٧٢ / ٢ / ٩

* * *

أما قصيدة الاستاذ علي نصوح الطاهر فهذه هي :

إلى أخي الأستاذ جعفر الخليلي من قلب مكلوم

ايه يـــا جعفر شعري كان من شخصي بديلا
هل يعيد الشعر حيّـــا هجر الدنيـــا رحيلا
عاش (عبـــاس) هماماً عبقريـــا وجليـــلا
شاعراً للحـــب يشدو بسحر اللب طويـــلا
فعشقنـــاه هـــــزاراً وبكينـــاه عليـــلا
حلّ في القلب مقيمـــا قرة العـــين نبيـــــلا
فسقى الدهـــرَ ثـــراه أطيبُ المزن نـــزولا
هـــو عنـــد الله بَـــرٌّ حلّ في الخلد نزيـــلا
أحسن الله جـــــزاه وسقـــاه سلسبيـــلا
وحبـــاه الحـــور بشرا ومياهـــا وظليـــلا
ذي دموع العين تبدي في الأسى قولا جميلا
فتقبّلهـــا عـــــزاءً واحمـــد الله أصيـــلا
قدر الموت على الاجيال جيلا ثم جيـــــلا
ذا طريـــق لا سواه للبرايـــا لـــن يـــزولا
فاقبل الواقـــع انـــــا رغم دهر لـــن نطيلا
وسواء عيش يـــــوم أو قطعنا الدهر قيلا
مُرّةٌ كـــأس المنايـــا مَنْ سُقيها زنجبيلا ؟
كلنـــا للمـــوت ماش يقطع الدرب كليلا !

علي نصوح الطاهر

****

ورسالة من الأديب الكبير اللامع الأستاذ أحمد حامد الشربتي :

أخي العلامة الكبير الأستاذ جعفر الخليلي المحترم ، لا أراك الله مكروهاً بعد هذا !

تلقيتُ ببالغ الأسف والأسى نبأ انتقال شقيقكم المغفور له الأديب الكبير والشاعر الشهير والمؤرخ القدير الأستاذ عباس الخليلي — طيب الله ثراه — إلى جوار ربه . فأنا في الوقت الذي أشاطركم فيه هذا المصاب الجلل أدعو الله سبحانه وتعالى أن يطيل بقاءكم ويهب لكم من الصبر أحسنه ، ومن العزاء أجمله ، ومن التسليم أكمله ، ويضاعف لكم الأجر والثواب ، ويجعل هذه الرزية خاتمة الرزايا .

رضي الله عن الفقيد الغالي وأرضاه ، ولقّاه من رحمته أوسعها ، ومن مرضاته أفضلها ، ومن مغفرته وكرامته أكرمها وأجلّها .

وإنّا لله وإنّا اليه راجعون

بغداد — سبع أبكار ٢٨ / ٢ / ١٩٧٢ أخوكم الآسف
أحمد حامد الشربتي

* * * *

ومن الصحافي الكبير المعروف الأستاذ سلمان الصفواني

الأخ الأستاذ الكريم السيد جعفر الخليلي المحترم

تحية طيبة :

لم تسعفني صحتي بسبب الانفلونزا من حضور مجلس الفاتحة المقام على روح أخيكم العلامة المرحوم عباس الخليلي الذي كان له في عـالم العلم والأدب مكان مرموق ، وباع طويل . اني — وأنا أشعر بالخسارة الكبيرة لفقدان علم خافق من أعلام المجتمع — أشاطركم الأسى العميق بهذا المصاب الأليم

سائلا المولى عز وجل أن يتغمد الفقيد الجليل بواسع رحمته وأن يثيبه أضعاف خدماته الجلى لهذه الأمة . كما أسأله أن يلهمكم الصبر ويعوضكم جزيل الأجر ، وانا لله وانا اليه راجعون .

هذا وتفضلوا بقبول فائق الأحترام والتقدير من المخلص

بغداد ــ ١ / ٣ / ١٩٧٢ سلمان الصفواني

* * * *

ومن رسالة للصحافي الكبير والأديب الجليل عبد الكريم غلاب مدير جريدة العلم المغربية :

الصديق الكبير الأستاذ جعفر الخليلي

بعد التحية ،

علمت بمزيد الأسى والأسف بنبأ وفاة أخيكم العلامة الشاعر عباس الخليلي وقد فجعنا فيه بمقدار فجيعة الأدب والعلم والخلق .

تعازينا الحارة لكم وللأسرة الجليلة ولعائلة العلم والأدب في العراق والعالم العربي ، ونفع الله بجهوده وكتبه وأثابه برحمته وكرمه على ما قدم . حفظكم الله ورزقكم الصبر .

الرباط ــ المملكة المغربية عبد الكريم غلاب

* * * *

ومن الباحث المحقق الدكتور أحمد مختار عمر رسالة يقول فيها :

الأستاذ الفاضل والمحقق الكبير والبحاثة الجليل الأستاذ جعفر الخليلي

تحياتي وتمنياتي المخلصة وبعد

فقد حزنت ــ والله ــ حزنا شديدا ، وأسفت أكبر الأسف لخبر وفاة

شقيقكم الكبير المرحوم المغفور له الأستاذ عباس الخليلي . وعلى الرغم من أنني لم يسبق لي التعرف عليه أو التشرف به فقد كان الحديث عنه ، وانتماؤه إلى أسرتكم العريقة من أسباب إحساسي بالأسف الشديد لهذا المصاب الفادح ، وشعوري بالخسارة الكبيرة التي لحقت بالأدب والبحث والشعر والتأليف من ناحية ، وبالجهاد المخلص والكفاح الوطني من ناحية أخرى .

أرجو أن تقبلوا خالص عزائي ، لكم وللأسرة الكريمة ، وللامة العربية جمعاء في هذا الفقيد الجليل ، والمصاب الفادح ، كما أرجو أن تدعوا الله معي أن يلهم الجميع الصبر والسلوان وأن يعوض الأمة العربية عن مصابها الجلل . أما الفقيد الكريم فله منا صادق الدعاء ومن الله جنة الخلد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

طرابلس (ليبيا) الجامعة الليبية — ١٩٧٢/٣/١٤ أحمد مختار عمر

* * * *

ومن الصحافي البارع والوطني المجاهد الكبير الأستاذ عبد اللطيف يونس صاحب جريدة الأنباء البرازيلية الرسالة التالية :

أديبنا وعلامتنا الكبير الأستاذ جعفر الخليلي الأكرم

تحية واعتباراً ،

وبعد : فقد تلقيت بمزيد من الأسى واللوعة نبأ وفاة المغفور له شقيقكم الراحل — العالم والشاعر الوطني المجاهد الأستاذ عباس الخليلي .

وكم آذاني وآلمني تأخر وصول الرسالة إلي — نظراً لغيابي عن سان باولو هذه الفترة .. والا كنت أرغب أن أبعث للجنة التأبين كلمة عن فقيدنا الكبير .

وفي عدد « الأنباء » المقبل — وهي ترسل لكم باستمرار طبعا — سأكتب كلمة عن هذه الكارثة الأليمة والمصاب الفادح ، والأمر لله من قبل، ومن بعد .

من وراء هذه الأبعاد الشاسعة أمد لكم يدي — ومعها قلبي — معزيا بهذا الرزء الأليم والخطب الجسيم ، مستمطراً ، شآبيب الرحمة على ضريح الراحل العظيم ، تغمده الله برحمته ورضوانه ، وعفوه وغفرانه .

والأمر يومئذ لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

حفظكم الله لنا ، وللأدب والعروبة ، خير ذخر ، وأكرم فخر .

سانباولو — البرازيل ١٣ / ٥ /١٩٧٢ عبد اللطيف اليونس

* * * *

ومن رسالة للعلامة الدكتور احسان حقي :

سيادة الاخ الاكرم أطال الله بقاءكم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد ،

فقد تلقيت ، بكل ألم وحسرة نعوة شقيقكم . واني وان لم أكن أعرف شقيقكم المغفور له الا أن ما اشتهر عنه يكفي ليجعله في أرفع منزلة في نفسي ويكفي أنه شقيقكم لكي أتألم لألمكم ، ولذا فأني أمام هذه المصيبة لا أستطيع أن أعزيكم بفقد هذا العزيز بكلمات ، لأن الكلمات تعجز عن القيام بواجب العزاء في مثل هذا المقام لا سيما بعد أن وصف الله تعالى الموت بأنه مصيبة وعزّانا على فقد الاحباب بكلمة واحدة هي جماع حقيقة الحياة وهي : انا لله وانا اليه راجعون . وما دام الموت هو غاية كل حيّ ، فان عزاءكم وعزاء الأدب ، والعلم ، والفضل ، انه لم يمت اعتباطا أو ظلما كما مات رفاقه الاحد عشر بل مات على فراشه تاركا آثارا خالدة ، وأدبا رفيعا ،

وثناء عاطرا ، تغمده الله بواسع رحمته وألهمكم وأهله وذويه الصبر الجميل ، على هذا المصاب الجلل ، وأمدّ لنا في حياتكم وأبقاكم للعلم والأدب ذخرا وللفضل أهلا .

بيروت ٢٣ / ٣ / ١٩٧٢ احسان حقي

* * * *

ورسالة من الشاعر الكبير والأديب المبدع الأستاذ محمود غنيم يقول فيها :

« ... تحية طيبة ، وعزاء جميلا ، أثلج صدري خطابكم بمقدار ما بلغ مني التأثر عند وروده ، لكم وددت لو كنت بجوارك في بغداد حتى أواسيك في محنتك عن كثب ، أحمد الله على أن لقي أخوك منيته على فراشه لا تسلقاً بحبل المشنقة ، وان كان في كلا الحالين شهيداً ، ماذا عسى أن يقول لك معزّيك وأنت أدرى منه بسنة الحياة ، مدّ الله في أجلك ، وجعل أيامك حافلة بجلائل الأعمال .

القاهرة محمود غنيم

* * * *

ومن الشاعر الالمعي والأديب المبدع السيد علي ابراهيم هذه الرسالة التي يقول فيها :

سيدي الاخ الجليل

لم أحس منذ نشأت بهول الفاجعة إحساسي يوم سمعت النبأ الذي انتشر عنك ، أنك انتقلت من دار أنت فيها خالد لحوار الله ملتحقا بركب الأعلام الكبار الذين نهضوا بعبءِ الرسالة وأدوا الأمانة [1] ، ولا أستطيع أن أصور لك

---

(١) كانت جريدة الثورة البغدادية قد نشرت خبر وفاتي اشتباها بدلا من خبر وفاة أخي المؤلف

ذهولنا ووجومنا ، وكيف نزل علينا هذا النبأ نزول الصاعقة ، وبعد اتصالنا بعراقنا الحبيب ، علمنا أنه حصل خطأ في الموضوع ، فالعناية اختارت أخاك عباسا للمصير المحتوم الذي ينتظر سائر عباد الله وأنبيائه ورسله ، ولم يتغير في مجال إدراكنا وشعورنا شيء من الألم والحسرة ، فانك حفظك الله وأمدّ في عمرك ، وإنه تغمده الله برحمته ووسع له في دار الصالحين الأبرار ، من دعائم نهضتنا الوطنية والعلمية ، وركائزنا الثقافية والأدبية وإنني أعود في ذاكرتي للماضي البعيد ، يوم كنت في مطلع العمر أتصيد الكلم الطيب من أفوا النابهين ، يوم وفدت على مدينة (علي) كغيري من طلاب العلم ، من سائر بقاع الأرض ، وكان اسمك واسم أخيك منارة نصبت لهداية السارين في ذلك العهد ، قدتما معركة النضال في مواكب الشرق وساعدتما الحرف العربي على التحرر والانطلاق من عبودية الزخرف والتقليد ، والمواطن العربي على الخلاص من ذل الإستعمار وهوان الظلم والطغيان ، أذكر كيف كانت (الهاتف) للأقلام الحرّة مسرحا ، وكيف وقفت في زحمة الأقدام ، داعيا للحق ، مطالبا بالإصلاح ، تقول للسادرين الغافلين : إنكم قريبون من لجة الزمن الجارفة ، فلا تحسبوا أنفسكم بمعزل عن ركب التطوّر ، ويقول للمستعمر : لست سوى دخيل بغيض ، لا نصيب لك في أرضنا وسمائنا ، ولا حق لك بتقرير مصيرنا .

ثم يمشي الزمن مسرعا وأدخل في دوّامة الحياة هنا في لبنان ، ولا أزال أحنّ لمبعث النور ومصدر الفيض للنجف الأشرف أناجيها بقولي :

أرض (الغريّ) وكلُّ ما بعث الحجى
للناس من فضل فمنـــك المبتـــدى
وبكـــل دار للعروبـــة سيـــدٌ
من فيض وحيك زان صدر المنتدى
وبكل نفح من عواطف شاعـــــر
طيب من النجف ، امترى ، وتزودا

همنا بذكرك فالسواجع لم تثـــر
لولاك لحنـــا والمغرد مـــا شدا
بقي الحنين العامليُّ على المـــدى
شعراً ونـــثراً للوصيّ مخلـــدا
ولسادة حلّـــوا بجـــيرة حيـــدر
باتوا لآمـــال البريـــة مقصدا
لي أوبة لحمـــى (عـــلي) انتشي
من قدسه وارى بترتبـــه الهـــدى
وأجدد العهـــد القديـــم وأنثـــني
ومعي البرائة فهو أصـــل للنـــدى

سيدي الأخ الجليل

اننا نعرف شعورك ومبلغ ألمك ، فقد كان طيب الله ثراه لك المعلم ، والمرشد ، والدليل ، احتذيته وتأثرت خطاه ، وهو بعدُ بقية أهلك وأسلافك الصالحين الذين مضوا أعلاماً بررة ، وتركوا للاسلام وتراث العرب والانسانية آثارا خالدة لا يقوى عليها الزمان ، بماذا أعزيك والمصاب كأنه مبتكر بين الأرزاء ؟ ليس لي الا الرجوع لحلمك وعلمك ، وصدرك الرحب ، ورجولتك المثالية ، والتأسي بمن فقدوا أحبابهم من رجال العلم والفكر ووقفوا أمام المصيبة موقف العقل والحكمة ثم ما تبقى في حياتنا من خير وجمال نأسى عليه ، ونخشى فقده ، فالدنيا قد تنكّرت ، وأدبر معروفها ولم يبق فيها غير صبابة كصبابة الأناء ، وانك تعودت هذه النوائب والكوارث ، ينطق بذلك كتابك النفيس (هكذا عرفتهم) فهو ينبوع من الشعور الحي ، الجريح المتألم ، تلتقي عنده النفوس العطشى ، تحدثت فيه عن أحبابك ولداتك الذين مضوا ، بمنتهى الروعة والحنين ، وهو فيض من نفس زاكية ، أعطت للأريحية ، والنبل ، والمروءة ،

والوفاء ، سماتها التي تنعش وتحيي . ولم يزل بجانبي ، منذ عرفته ، أنهل من معينه العذب الصافي واني بختام كلمتي أعود لمحرابك خاشعا أسأل الله لك الصبر وحسن العزاء .

بيروت – لبنان علي ابراهيم

* * *

ومن رسالة للأديب المعروف والأستاذ الجليل علي حيدر الركابي .

حضرة الاخ الكريم الأستاذ جعفر الخليلي المحترم

بمزيد من الاسى والأسف بلغني نبأ ارتحال المرحوم أخيكم الذي لا تقتصر خسارته عليكم وحدكم بل هي كذلك خسارة عامة للعلم والفضل والأدب . وأنا اذ أبعث لكم بصادق تعازيَّ القلبية لواثق من ان الايمان الذي يعمر به قلبكم لكفيل بجعلكم تسلمون بحكم من لا مرّد لحكمه وان الاخلاق الرفيعة والرجولة الحقة التي هي من صفاتكم ستزودكم بالمدد اللازم للصبر على المصاب والصمود في وجه الحدث الفاجع . فللفقيد الرحمة والجنة ، ولكم طول البقاء وانا لله وانا اليه راجعون .

المخلص

بغداد ٤ / ٣ / ١٩٧٢ علي حيدر الركابي

* * *

ومن المؤرخ الباحث المحقق المعروف الأستاذ يوسف أسعد داغر هذه الرسالة التي يقول فيها :

أخي العزيز جعفر

بمزيد الاسف والاسى واللوعة المحضة تلقيت اليوم نعي فقيد العلم والأدب والوطنية والجهاد المجاهد المغفور له شقيقكم المرحوم عباس الخليلي صاحب الأيادي البيضاء على البحث والتأليف وكم أود لو كنت قريبا منكم لاضمكم

إلى صدري أمزج دمعتي الحرة بدمعتكم مؤاسياً معزياً لهذا المصاب الجليل الذي كان ركنا وطيداً من أركان الجهاد العلمي والوطني يحفل بالادب والسياسة والتأليف .

لم يسبق لي أن عرفت الشقيق الراحل معرفة شخصية . الاّ اني لم أكن لاجهل ما له من خدمات جلى على الفكر والبحث العلمي بالعربية والفارسية التي كان يجيدها إجادة أبنائها الخُلّص .

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه وألهمكم وذويه الصبر والعزاء والسلوان. لقد وقع نعيه في قلبي وقع الصاعقة. أفليس هو شقيق أخي العزيز وصديقي الوفي جعفر الخليلي الذي أفديه بالمهج وأرجو له من الصميم كل خير وأتمنى له كل ما يتمناه المرء في هذه الفانية والباقية .

أنا في سبيل طبع الجزء الثالث من مصادر الدراسة الأدبية وبودي أن أثبت ترجمته في مظانها من هذا الكتاب . ولذا فأني أتقدم اليك بالرجاء بأن تتكرم فتعدّ لي ترجمة تضم العناصر التالية ١ – من هو – بحيث يطلع الباحث على مقومات شخصيته الأدبية والخلقية ومميزاتها العلمية مع ترجمة موجزة لأهم وقائع حياته – ٢ – مؤلفاته ، مع ذكر عنوان الكتاب المطبوع ، وتاريخ النشر ، وعدد الصفحات ، وغير ذلك من المعلومات المميزة – ٣ – مصادر ومراجع البحث عنه من كتب خاصة به – ومراجع عامة حوت أبحاثا خاصة عنه – ومقالات المجلات العربية حوله، راجياً أن تتكرم فتبعث لي بذلك بأسرع ما يمكن لاثباته في هذه الحلقة من مصادر الدراسة الأدبية التي تضم ترجمة ٥٥٠ أديباً من أدباء النهضة الراحلين بين ١٨٠٠ – ١٩٧٢ . بينهم حوالي ٩٠ من أدباء العراق البارزين .

هذا متمنياً للأخ العزيز أطيب التمنيات ، جعل الله مصابكم هذا آخر ما ترزؤون به .

المخلص

بيروت ٢٨ / ٣ / ١٩٧٢ يوسف أسعد داغر

• • • •

ورسالة من الطبيب الاختصاصي المعروف الدكتور محمود الهاشمي يقول فيها :

أخي الأستاذ جعفر الخليلي المحترم

بلغني خبر انتقال الأخ عباس إلى دار الآخرة ، وأنا في زيارة للبنان لبضعة أيام ... فأردت ان أكتب لك معزياً ... ولا أحب ان أسطر الجمل التقليدية وأؤبّن الفقيد بالعبارات الجوفاء لأن ما أشعر به من الأسى مبعثه أعماق قلبي وشعوري ... انك فقدت أخاً لم يكن كباقي الاخوة ... عاش عباس طول حياته رجلاً بكل معنى الكلمة ومثّل دور الرجولة بالطريقة التي اختارها هو ، كان نموذجاً خاصاً من الرجل الذي يعتز به كل من عرفه ، وارتبط به ، فكيف بمن كان أخاً له . ان عباساً رحل عن هذا العالم الذي أصبح غريباً عنه ... عالم لا ينسجم معه بمفاهيمه ... عالم قل فيه كلّ خير لا الرجال فقط بل حتى أشباه الرجال . لقد سجل عباس ، ضمن ما هيأت له ظروف الحياة ، سجلاً طافحاً بالرجولة ووقّع ألحانه بقوة وجمال وشجاعة .

في الوقت الذي اشعر فيه بأن الموت ظاهرة طبيعية لا فائدة من الجدل فيه ، وهو انتقال من حالة إلى حالة فاني أشعر أيضاً بأن العواطف ، خاصة عواطف الاخوة هي جزء أساسي من حياة الانسان ، فاني أشعر بما يحزّ أعماق قلبك من حزن عميق لفقده ، وقبلك شعرت أنا بمثل ما تشعر به الان . اشاركك وجميع الأهل والأقرباء شعور الالم والحزن بفقدانه . ألهمكم الله الصبر .

بيروت ــ ٢٥ / ٣ / ١٩٧٢ الدكتور محمود الهاشمي

* * * *

ورسالة من الصديق الكريم الأستاذ حنّا كرومي يقول فيها :

أخي جعفر الخليلي المحترم

من الكويت أشارككم الاحزان. لقد تألمت لهذه المصائب التي أحاطت بآل الخليلي .

أيها الأخ الكريم ، اني أؤمن وأنت تؤمن معي بأن هذه سنّة الله في خلقه وأنا أؤمن وأنت تؤمن كذلك بأن كل شيء زائل فلا يدوم غير وجهه الكريم وان حياة ثم موتا ثم حشراً ليس بحديث خرافة .

نعم انها سنّة الله في خلقه . ولكن بماذا تواسي أولي العواطف الحساسة المرهفة والرصافي يقول :

وكذا الحزين اذا تهيـج حزنه يبكي فيسكن حزنه بعويلـه

أخي جعفر انا أؤمن وأنت تؤمن معي بذلك الكتاب الذي لا ريب فيه فارجع اليه واذا (بليّم فاسترجعوا) واذكر دائما أنا لله وأنا اليه راجعون .

كلمة تعزية من صميم القلب أبعث بها من الكويت ولو كانت متأخرة وأرجو أن لا أكون قد أثرت أحزانكم . وأنا أذكر الفضل وكرم الاخلاق والانسانيه وقد أخذت تفقد قيمها في زمان طغت فيه أنانيات وضاعت مقاييس.

فاقبل من أخيك مشاركة في الشعور ولو عن بعد ورغم التأخير تشاركني السيدة تعزيتي ودم لي ولآل الخليلي جميعاً .

الكويت حنا كرومي

* * *

ومن الأديب الحقوقي الفاضل محمود المظفر رسالة هذا مضمونها :

الأستاذ الجليل السيد جعفر الخليلي حفظه الله

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، والسؤال عن صحتكم ... سائلا الله تعالى لكم أفضل الصحة والراحة .

وبعد فقد بلغني وأنا في غمرة التحضير لرسالتي : نبأ وفاة شقيقكم الباحث العالم الأستاذ عباس الخليلي ، وقد تأثرت لذلك بالغ التأثر ، لما نعرفه في الفقيد

الغالي من فضل، وسعة علم، وأدب، ولا غرو فأنه من هذه الأسرة الجليلة المعروفة باتساع آفاقها في العلم والأدب وشتى حقول المعرفة ...

تغمد الله الفقيد الجليل بواسع رحمته ورضوانه وألهمكم وأفراد الأسرة كافة الصبر والسلوان ، وأطال الله تعالى في بقائكم ذخراً للأدب والمعرفة .

ودمتم مؤيدين المخلص

محمود المظفر

القاهرة ٢ مدينة الاعلام

١٥ / ٤ / ٩٧٣

* * * *

وارخ وفاته الباحث الأديب الفاضل الأستاذ محمد حسن الطالقاني بهذه الأبيات :

عَبّاسُ يا نهرَ نُورٍ سَقى الحياةَ لِتَنهَضْ
أدّيت حقَّ المعالي ورِحتَ والعرضُ أبيض
والنِسرُ مِن بَعد لأيٍ طَوى الجَناحَ وأغمَض
أسفتُ للفجر يَخبو وللمَعين يُغيَّض
خسارةٌ أنتَ كبرى أرّخ (له لن تعوّض)

النجف الاشرف ١٣٩٢ هـ

محمد حسن آل الطالقاني

هكذا عرفتهم ج٤ (١٢)

مقتطفات صحافية

عن عباس الخليلي

هذه بعض المقتطفات من بعض الصحف التي وقعت تحت اليدو التي مرت على حياة الخليلي من بعض الزوايا والوجوه ناقلة خبر نعيه للقراء ، نوردها هنا كنموذج مبسط لما عثرنا عليه .

مجلة الاخاء العربية

نشرت مجلة الاخاء العربية كلمة تحت عنوان (دمعة الاخاء) بقلم الشاعر الدكتور نادر نظام جاء فيها :

« ما كنت أود ان أنعى عباس الخليلي ، وانما وددت لو أتحدث عنه وأقرظه ، ولكن قائلاً قد يقول : ما فائدة المنعي والتقريظ ؟ وحمام الموت قضى ، وغراب البين نعق ، وهو تساؤل قد يجوز لو أنه كان انساناً عادياً او رجلا عابراً طرق الحياة ثم ودعها دون أن يشعر به أحد . أما مع الخليلي فواقع الأمر مختلف ، فلا زال الخليلي بيننا يعيش بأدبه وشعره ، ولا زالت كلماته ترن في آذاننا ، وآثاره تحكي قصة البقاء والخلود ، والخلود كلمة عادية كثيراً ما تتردد في الأفواه دون أن تمس شغاف القلب والوجدان ، ولكن خلود (الخليلي) خلود يتفجر بألف هدف ومعنى . انه خلود الأدب الاصيل والشعر الاصيل والاخلاق الأصيلة .

لقد عرفت (الاخاء) الخليلي منذ صدورها ، وعرفته أنا منذ بدء عملي في هذه المجلة قبل ثماني سنوات .

عرفته صديقاً لها يرفدها تارة بشعره وأدبه . ويداعبها تارة اخرى بنقده وآرائه . وكان يجود عليها بعاطفته بقدر ما يجود عليها بعقله. فعقدت بيننا صلة الأدب والشعر وتأصلت جذور اخوة كان مهدها صفاء القلب والذهن ، وكان هدفها العطاء بكل معانيه وثماره .

كان يزور مكتب المجلة بين الحين والاخر حاملاً رافداً من روافده الأدبية فنقضي بعض الوقت نجول في دنيا الكلمة . ونغوص في عالم الترجمة والتأليف . فاذا به البحر لا يدرك غاربه . وصائد المحار يتفتح عن أثمن اللئالىء وأروع الكنوز .

وكان ضعف جسمه يمنعه من الصعود إلى المكتب الذي كان قبل سنتين في الطابق السابع من البناء القديم ولم يكن فيه مصعد فكان يتصل بنا بالهاتف فأنزل اليه ونجلس هناك نتحدث ،ولا زلت أذكر ذلك اليوم حينما جلبت له معي العدد الأخير من (الاخاء) وكان يحوي قصيدةً له كما كان يحوي قصيدة لي أنا أيضا ، وأخذ يقف عند كل بيت من أبيات قصيدتي ويقول : أستطيع ان أجزم بأنه لا يمكن أن يفهمك هنا أحد غيري ، وأنت الذي تفهمني جيداً ، وابتسمت آنئذ دون أن أنبس ببنت شفة ، ولكني كنت أردد في نفسي : أحقاً ، يمكن أن أدرك ما يموج به المحيط .

وتتعاقب الأيام والاتصالات بيننا لا تزال قائمة في الحفلات أو بواسطة الهاتف حتى كان لقاؤنا في الذكرى الثانية عشرة لمجلة الاخاء قبل ثلاثة أشهر في البناء الجديد .

وقبل شهر أو أكثر اتصل بي هاتفياً وأعطاني عنوانه الجديد ورقم هاتفه ، وشكا لي مرارة الأيام ، وتنكّر الأهل والخلان ، وهو حديث طويل لا مكان له هنا ، وأخبرني بأنه أرسل للاخاء قصيدة جديدة قال لي عنها بالحرف الواحد :

« انني أعتبر هذه القصيدة خاتمة قصائدي وهي من أحسن الشعر ، وقد بخلت بها على غير الاخاء فلا تبخلوا في دقة التصحيح » .

وبعد أسبوع اتصل بي ثانية فهنأته على القصيدة وكانت قد وصلت إلى الاخاء فألحّ علي بحضور حفلة التكريم التي أقامتها له جمعية الكتاب (نادي القلم) بطهران ووعدته المجيء ، ولكن في اليوم الذي أقيمت الحفلة أصيب بجلطة دماغية نقل على أثرها إلى المستشفى ، فكان كالشاعر الفردوسي الذي ما أن دخلت جائزته من باب حتى خرجت جنازته من باب آخر .

واذا بالقضـــاء يهوى سريعاً ... فيزيل الحجاب والاستارا
وينام الصديق نوم قريـــــر ... بعد أن فجّر الثرى أنهـــارا
(ليخطّ الضياء في اللوح سطراً) ... أبديـــاً يشع نـــوراً ونـــارا

مجلة الاخاء

الدكتور نادر نظام

* * * *

مجلة (تهران مصور)

وهذا ملخص لترجمة ما نشرته مجلة (تهران مصور) في عددها ١٤٨٠ وهو يحتوي عدة مواضيع منها كلمة بعنوان (من كان الخليلي وماذا عمل) بقلم تحرير المجلة ، وكلمة اخرى بقلم الأستاذ عبد الله والا صاحب امتياز المجلة ومديرها المسؤول ، وبحث تحليلي مهم لشخصية الخليلي بقلم العلامة الأستاذ محيط الطباطبائي بعنوان (الموت حق طبيعي لنا جميعا) ومقطوعة شعرية حزينة في رثائه للشاعر الكبير ابراهيم صهبا ، زيادة على مقدمة للمجلة تصدرت مقال الأستاذ الطباطبائي وتعزية أسرة المجلة لآل الفقيد

وفي هذا العدد نفسه إلى جانب ذلك كله فصل جديد من مذكرات الفقيد التي كان قد شرع في أيامه الأخيرة بكتابتها ونشرها في الصحف ، وهذا الفصل يتعلق بفترة سياسية قديمة عايشها الخليلي من الفترات القلقة المشحونة بالاضطراب ومن المؤسف — كما تقول المجلة — ان هذه المذكرات لم يتح لها أن تتم بعد ان اخترم الموت صاحبها وهو في عزّ حماسه في كتابة هذه المذكرات بأسلوبه المتميز بين أئمة أرباب القلم .

* * * *

كلمة المجلة

وفي كلمة المجلة (تهران مصور) المشار اليها استعراض لحياة الفقيد وذكريات عنه. وقد وصفه كاتبها بأنه رجل صادق ومتواضع إلى أبعد الحدود، وكان من أصدقاء المجلة الأوفياء ، وكان يحترم انتاج الشباب من الأدباء فاذا أخطأ أحدهم انبرى له ناصحاً نصح الأب لأبنائه. وفي اليوم الذي اجتمع فيه (نادي القلم) في طهران لتكريمه سقط مريضاً بالجلطة الدماغية ونقل إلى المستشفى وبعد ١٥ يومأودع هذه الدنيا الفانية .

ولد عباس الخليلي في النجف الاشرف وأبوه المرحوم الشيخ أسد الخليلي العالم المجتهد الأديب المعروف وقد رباه فأحسن تربيته .

وتحدث كاتب الكلمة عن هجرته الى ايران واشتغاله بالصحافة ، واصداره (جريدة اقدام) التي تعتبر من أوائل الصحف الايرانية التي صدرت قبل ٤٠ سنة . ثم اطنب قلم التحرير في بيان أهميتها وأثرها وما نشر الخليلي فيها من المواضيع الادبية والسياسية والاجتماعية والتاريخية ، ومن المترجمات والقصص وغيرها ، وقد ترجم (الشاهنامة) الى العربية نظماً وبذلك قدم خدمة ثمينة للادب العالمي وكانت له مواقف اجتماعية وسياسية معروفة وكان له دور بارز في مقارعة الاستعمار وهو في هذا معروف لدى الجميع . ثم عدد الكاتب المناصب التي تولاها في حياته والاعمال التي قام بها في وزارات العدل والداخلية والخارجية، ثم ذكر اولاده وهم خمسة بينهم الكيميائي، والمهندس، وبينهم ابنته سيمين التي تعد من أحسن الشواعر المعاصرات . وأنهى الكلمة بقوله « لقد ذهب الخليلي وطار مثل طير ذي أجنحة خفاف ، وترك بعده فراغاً واسعاً سعة البحر وأكثر . هذا ونحن مكلومون حزانى بل جدّ مكلومين » .

* * *

ملخص مقال صاحب المجلة .

أما مقال الاستاذ (عبدالله والا) صاحب مجلة (تهران مصور) ففيه نتف من ذكريات الكاتب مع الفقيد وذكر لبعض خدماته لمجلة (تهران مصوّر) منهـــا مذكراته التي نشر منها في هذه المجلة جانباً كبيراً .

قال الكاتب : «كان الفقيد رجلاً فاضلاً ، عالماً ، كاتباً قديراً ، صاحب بيان رائق ، كان يسحر السامع بحديثه الشائق ويجتذبه إليه. وكان متمكناً من النثر والنظم ، صاحب ذاكرة نابهة ، قوي الحافظة حتى أنه ليذكر حديثاً جرى معه قبل ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة . وكان عاملاً مؤثراً في السياسة يبرز من خلال افتتاحياته بجريدته (اقدام) ذات النفوذ الواسع . وكان رجلاً مقداماً وشجاعاً وفي شبابه – كما جاء في مذكراته – حارب تحت ازيز الرصاص ودوي المدافع ، وكان فريداً في بديهته حين يتحدث . ويكفي أن يجد من يستمع إليه فيمضي على رسله في الحديث الجميل الذي لا ينتهي عن حياته ، وماضيه ، وعن كل شيء »

ثم تحدث الكاتب عن براعته في الخطابة أمام الجماهير وسحره لهم ثم قال : « ولكنه في سرير مرضه الاخير كان ساكناً مغمى عليه، ان المرض سلب منه كل شيء وقد بلغ ثقل هذا المرض انه سلب منه الروح أيضاً » وبعد أن أشـــار الكاتب الى منزلة الفقيد في البلاد العربية أنهى مقاله بقوله : « لقد فقدنا به رجلاً فاضلاً وأديباً يفتخر به ، رحمه الله ..»

* * *

ملخص مقال الطباطبائي

أما مقال الاستاذ العلامة محيط الطباطبائي في نفس المجلة : فقد استهله صاحبه بقوله : « وأخيراً استسلم للموت عباس الخليلي ذو النشاط والفعالية وأنهى حياته المليئة بالمتاعب رحمه الله وألهم آله وذويه وأصدقاءه وزملاءه العزاء والصبر »

ثم تحدث الكاتب عن أول تعرفه بجريدة(اقدام)لصاحبها ومحررها المرحوم عباس

الخليلي في طهران قبل ٤٠ سنة ، وكانت في سنتها الثانية يومذاك ، وكانت أشهر جريدة . قال : «وكان الفقيد يستمد اسلوبه من كتّاب الغرب ، وقد اتخذ اسم جريدته من جريدة (اقدام) التركية الشهيرة . وكان ينشر فيها المقالة والخبر والقصة والاسطورة والشعر كما يوحي اليه ضميره وذوقه بحيث كانت جريدة تتلاقفهـــا الأيدي فتنفد حال صدورها » وبيّن الكاتب موضع ادارة الجريدة، ووصف كيان صاحبها يومئذ كما تحدث عن عمله في الصحافة قبل اصداره جريدتـــه ، وقال « انه بعد تعطيل جريدته عمل في الترجمة والقى محاضرات قيمة في اللغة العربية ، وممن تتلمـــذ عليه بهذه اللغة الشاعرة المشهورة (پروين اعتصـــامي) وقال : ان جريدته كانت منذ أن صدرت تؤيد السيد ضياء الدين الطباطبائي السياسي الايراني المدوى الاسم ، كما كان لها دور كبير في نتائج انتخابات المجلس النيابي في دورته الخامسة ، ولما سقطت احدى حكومات ذلك العهد اتخذت الجريدة جانب المعارضة العنيفة بافتتاحياتها الملتهبة ، وكان الناس يقبلون على الجريدة اقبالاً شديداً ، وهم دائماً يحبون الاسلوب العنيف والصحيفة المعارضة ، ثم أشار الى أنه كانت تصدر جريدته بأسماء أخرى حين كانـــت تعطلها الحكومة وكان له أصدقاء كثر يمتلكون امتيازات صحف فكانوا يقدمون لـــه صحفهم عندما تقدم الحكومة على تعطيلها مثل (پيام) و (پيام حق) ، وغيرها ، وعندما استنفد كل هذه الصحف المستعارة .. أصدر جريدة بلا امتياز باسم (مرك) — أي الموت — بكل جرأة واندفاع »

وذكر الاستاذ محيط عن نفسه بأنه كان ينشر بعض مقطوعاته الشعرية في جرائد الفقيد قبل أن يتعرف عليه شخصياً ، وعندما قابله بعد عودة الخليلي مـــن منفاه في العراق قال له الخليلي انه كان يظن بأن ناظم تلك الاشعار قد ذهب الى لقاء ربه ، لأنه لم يصله شيء منها بعد ذلك ولم يقرأ له مثلها في أية صحيفة أخرى.

قال الكاتب : « وكان الخليلي قوياً في نظم الشعر باللغة العربية ، يلقيه بأسلوب شعراء النجف ، وقد فاز بالجائزة الثانية في مسابقة شعرية أجرتها مجلة المقتطف المصرية الا أن قصيدته كانت في نظري أحسن من قصيدة حليم دموس الذي فاز

بالجائزة الاولى ... » وبعد أن أورد الطباطبائي مزيداً من ذكرياته قال ان الفقيد أغلق جريدته بصورة نهائية لأنه رأى أن دور شيوخ الصحافة قد انتهى ليحل محلهم أصحاب الاقلام الفتية الذين يستطيعون أن يعايشوا اسلوب العصر ، ويتعرفوا على قضايا الناس أحسن من غيرهم .

ثم قال : «وانصرف الخليلي بعد ذلك الى مزاولة الترجمة والقراءة ومن آثـــاره المترجمة الى الفارسية فجر الاسلام وضحى الاسلام لأحمد أمين ، والقسم الكبير من كتاب (الكامل) لابن الاثير وهذا ما طبع له من هذه المترجمات . وهناك كتب أخرى لم تطبع منها ترجمة الى العربية لجانب من أشعار الفردوسي وأشعار سعدي وقد انصرف في سنواته الاخيرة الى تدوين مذكراته المفصلة ونشرها في مجلة (تهران مصور) وفي غيرها ولم يمهله الموت لانجازها مع الاسف » ثم أشار الى أن أهم مواقفه الحافلة هو اشتراكه في ثورة النجف في الفترة الاولى من حياته وسفارته الى الحبشة في الفترة الثانية منها . وقال : «وكان في صداقته غاية في الوفاء والثبات والتضحية . وكان شديد البأس متحفظاً مالكاً روح العزيمة حتى آخر يوم من أيام حياته.» كما أشار الى أنه كان ينشر آثاره النثرية والشعرية في مجلة (الاخاء) التي تصدر في طهران باللغة العربية وقال ان له شهرة عريضة في العالم العربي . وختم مقاله المسهب بقوله : «مات عباس الخليلي ، ويستحيل أن يملأ شخص آخر مكانه بمثل صفاته ومزاياه » .

* * *

جريدة كيهان

أما جريدة (كيهان) الصادرة بطهران في ١٠ / ٢ / ٧٢ فقد نشرت نبأ وفاة الفقيد بكثير من الاسف والحسرة ، ومما قالته عنه انه خدم الادب في حياته كما ساهم في ميادين السياسة ، ثم تحدثت عن مولده في النجف ونشأته وهجرته الى طهران وعمله في الصحافة ، ومشاركته في التأليف وتحرير الموضوعات المختلفة الألوان والترجمة وأشارت الى أعماله ووظائفه التي تولاها . وختمت كلمتها بتقديم تعازيهـــا ومواساتها الى زملائه الاحياء الى حملة القلم وأرباب الصحافة .

* * *

ملخص كلمة مجلة سپيد وسياه

ونشرت مجلة (سپيد وسياه) في عددها (٢٨) من سنتها التاسعة عشرة (مذكرات الاسبوع) بقلم الدكتور علي بهزادي وقد كرسها كلها على المرحوم الخليلي .

واستهل الدكتور مقالته بحديثه عن كيفية معرفته بحادث الوفاة الفجيع ، الذي لم يصدقه أول الامر . وما بعث في نفسه من هياج ، ثم يتحدث عن أول اتصاله بآثار الخليلي قبل أن يعرفه شخصياً ، ثم تكلم عن الخليلي الصحفي ، والوطني الجريء المقدام الحساس ، والكاتب الذي اختلف اسلوبه — كما قال — في أواخر سنيه عن أوائل كتاباته ، بأن كان هذا الاسلوب من قبل مغلقاً الى حد ما ومعقداً.

وقال : «لقد كان عباس الخليلي مبارزاً في شبابه ، حمل السلاح وحارب الانگليز والى آخر حياته كان يحمل معه السلاح . وقال عن جريدته (اقدام) ان القراء كانوا ينتظرونها كل يوم انتظار الظمآن الى الماء ، لذلك فقد تعرضت مراراً الى المصادرة والاغلاق بأمر الاجانب ، ولكن الخليلي لم يكن يرهب شيئاً ، بل انه لم يكن يعرف الخوف أصلاً . ان الاقبال على كتاباته جعل منه رجلاً شهيراً وذا نفوذ قايل المثال ، وكان رجال الحكم حتى رؤساء الوزارات يحسبون لكتاباته أكبر حساب ويحاولون كسب رضاه ، ثم قال : وقد كان هذا الرجل ممن أفاد بنفوذه المئات من أرباب القلم وأهل الأدب »

ثم قال : « وفي العام الماضي وعندما مرض الخليلي ، نشرت المجلة خبر مرضه وعندما شفي شكرنا على نشر الخبر ، وقال للكاتب لقد عاده على أثر ذلك الكثيرون من الشخصيات اللامعة أو أرسلوا اليه باقات الورد .. » وتحدث الكاتب عن ذكرياته مع الفقيد وعن رسائله اليه ، وعن حياته الصحفية . ومما ذكره عنه « انه عندما أبت القوات المحتلة أن تغادر ايران بعد انتهاء الحرب الثانية استطاع أن ينظم مظاهرة كبيرة ضدهم في شوارع طهران » وقد أبرز الكاتب دور الفقيد في السياسة وفي الحياة الثقافية والأدبية .

• • •

وفي الصحف الأخرى

ونشرت الصحف صورة تشييع جثمان الفقيد . وقد شيع في الساعة العاشرة صباحاً من المستشفى الى مقبرة (جنة الزهراء) وسار في جنازته أفراد أسرته وجمع كبير من أبرز الشخصيات والسفارات الاسلامية والعربية تتقدمها أكاليل الورد .

* * *

وقبل وفاة الفقيد ، كانت احدى الصحف الايرانية قد نشرت — بعد أن نوّهَت بمنزلته الادبية في ايران وفي العالم العربي — بأن الرئيس المصري السيد أنور السادات كان قد أرسل الى الاستاذ عباس الخليلي رسالة تقدير وثناء على أدبه وفضله كما أرسل للسفارة المصرية بطهران لتنوب عنه في تقديم التعزية .

وتضمنت الصفحات التي نشرت فيها الكلمات والمقالات في رثاء الفقيد وبيان منزلته الكبيرة الكثير من صوره التي تمثله في أدوار حياته المختلفة .

* * *

مجلة الاديب

ونعت مجلة الاديب الخليلي بالكلمة التالية :

« توفي في طهران العالم الشاعر العراقي عباس الخليلي الوطني المجاهد المعروف عن ٧٦ عاماً وهو الشقيق الكبير للاديب الباحث جعفر الخليلي ، وكان الفقيد أحد أركان حركة الثورة النجفية في وجه الاحتلال الانكليزي عام ١٩١٨ ، فحكم بالاعدام وتمكن من الفرار الى طهران ، وله أكثر من ٨٠ مؤلفاً في مختلف المواضيع والبحوث وترجم البعض من بحوثه الى الانكليزية والفرنسية والروسية وهو الذي نقل تاريخ ابن الاثير وأجزاء (ضحى الاسلام) الى الفارسية ، وكان قد حصل على جائزة (المقتطف) في مسابقة (الرائد) الشعرية بين مئات من الشعراء وقد وردت ترجمته في الكثير من المعاجم والانسكلوبيديات ، فنقدم أحر التعزية لصديقنا جعفر الخليلي »

وجاء في جريدة الانباء التي يصدرها الصحافي الكبير والوطني المجاهدالمعروف الاستاذ عبد اللطيف اليونس بسانبولو في البرازيل ما يلي :

العلامة الراحل عباس الخليلي

« وأخيراً .. وضع القلم جانباً، وكان قد وضع قبله السيف، وأغمض عينيه واستسلم لارادة القدر ، ومضى — بعد أن خلف بيننا أكثر من ثمانين مؤلفا في مختلف المواضيع والبحوث ، ترجم بعضها الى لغات عدة : منها الفرنسيةوالانكليزية والروسية . وترجم الى الفارسية تاريخ «ابن الاثير» وأجزاء «ضحى الاسلام» وكان يعد من الشعراء العباقرة ، وقد ربح جائزة «المقتطف» في مسابقة «الرائد» بين مئات الشعراء العرب . لقد عاش طوال حياته للقلم ، وللعلم : يكتب ويخطب ويؤلف . وكان الى جانب كونه عالماً .. أديباً حقاً .. تقرؤه فتشعر برغبة متابعته ، والسير معه الى النهاية — وأنت تعبء من معين أدب لا ينضب ، وقارورة طيب لا تجف . وله في الجهاد صفحات بيض ، وسيرة كريمة . فقد كان أحد أركان الثورة العراقية سنة ١٩١٨ وحكم عليه المجلس العسكري البريطاني بالاعدام ، ومن بين سبعة عشر شخصاً أعدموا كلهم استطاع أن يفر وينجو — لأن له مع القلم عهداً لا ينقض ، ومع التأليف موثقا لا يمحى .

وهكذا كانت حياته مدرسة — وستظل سيرته مدرسة . فهو ينبوع عطاء .إن أغلقت دواته ، وصمت قلمه ، فان آلاف الصفحات التي تركها بعده ستبقى نواة لعقيدة ، ومنطلقا لايمان .. وسيظل الشعاع ينهمر من أحرفه فتزهو معالم ، ويشرق أفق ، وينطلق ضوء ويسطع طيب .

رحم الله علامتنا الكبير الجليل الراحل — ذلك المجاهد العربي الذي ما استكان لطغيان ، ولا سلست ارادته لعدوان . وحفظ لنا أخاه الاديب العلامة جعفر الخليلي — الذي نذر نفسه للادب وللعلم .. يكتب ويؤلف ، وتتلقف الاعين والايدي كل ما يكتبه وينشره بتهافت قل أن يوجد له مثيل ،

وندر أن يوجد له شبيه . ومعذرة من « لجنة التأبين » الكريمة — فقد وصلت رسالتها متأخرة . وسقياً لتلك الذكريات الاليفة على شاطىء الرافدين . والامر لله من قبل ومن بعد .

جريدة الانباء — العدد ١٥٩ — ١٧ أيار ١٩٧٢ عبد اللطيف اليونس

• • •

وجاء في مجلة (السياحة) اللبنانية نعيه على هذه الصورة :

« غيّب الردى أخيراً الشاعر والدبلوماسي الكبير عباس الخليلي عن عمر ناهز الثمانين بعد مرض طويل نقل من جرائه للمعالجة في مدينة استراسبورغ الفرنسية حيث وافته المنية بعد ذلك بطهران .

والمرحوم عباس الخليلي من عائلة عراقية ، اشتهرت بالعلم والادب وهـــو شقيق الاديب والكاتب العراقي المعروف الاستاذ جعفر الخليلي ، وكان المرحوم عباس الخليلي قد عارض الانكليز في العراق ثم لجأ الى ايران للاقامة فيها والجهاد ضد الاستعمار حيث شغل عدة مناصب دبلوماسية ، منها منصب سفير ايران ايران في الحبشة ، واليمن وغيرها ، وكان رحمه الله معروفاً بأدبه الرفيع ، وأبحاثه الفكرية ، ثم أصدر في طهران جريدة يومية هي(اقدام) الشهيرة ، وقد فطر على الظرف وخفة الروح وحافظ على اتصالاته مع أكابر وشعراء العالم العربي يتبادل معهم المراسلات الشعرية حتى آخر أيامه وقد سبق (للسياحة) أن نشرت مداعبة شعرية جميلة بينه وبين الشاعر الكبير جورج صيدح ، وكان آخر ما نظمه في هذا السبيل طرفة شعرية أرسلها وهو في استراسبورغ الى الاستاذ علي نصوح الطاهر أحد وزراء الاردن اللامعين وكان سفيراً للاردن بطهران سابقاً وفيها الشيء الكثير من العواطف نحو المجاهد الكبير محمد علي الطاهر ..»

• • •

مجلة العرفان

ونعت مجلة العرفان الفقيد بالكلمة التالية :

فقيد العلم والادب

عباس الخليلي

توفي في منتصف شهر شباط من هذه السنة العالم الجليل والشاعر العبقري الكبير الاستاذ عباس الخليلي عن ٧٦ سنة كانت كلها كفاحاً وطنياً ، وجهاداً في ميدان العلم والادب ، وكان قد فرّ من النجف على أثر الثورة النجفية في وجه الانكليز فكان أول من نجا من حبل المشنقة من الذين شنقوا في الكوفة من عمداء الثورة .

وفي طهران انصرف للصحافة والبحث والكتابة فألف ٨٦ كتاباً في مختلف المواضيع بالعربية والفارسية ، ونقل الى الفارسية تاريخ (الكامل) لابن الاثير ، وفجر الاسلام ، وضحى الاسلام ، وظهر الاسلام ، لأحمد أمين ، ونظم ١٧ الف بيت من الشاهنامة بالعربية ، فضلا عن التراجم التي نشرتها له مجلة المقتطف والهلال بالشعر عن سعدي ، وحافظ ، والمثنوي ، وأسس جريدة (اقدام) التي دامت أربعين سنة ، وشغل عدة وظائف كان آخرها سفارة ايران في الحبشة واليمن ، وعاش للعلم والادب »

* * *

وكتبت لي السيدة الجليلة وجيهة شاكر حرم المغفور له الدكتور عبد اللطيف حمزة من مصر بأن التلفزيون العربي واذاعة القاهرة والصحف المصرية الاهرام والاخبار والجمهورية قـــد نعت عباس الخليلي ولكني لم أحصل على نسخة منها لآتي ببعضها مثلا هنا .

هذا بعض ما وقع تحت اليد من الصحف التي أشارت الى وفاة عباس الخليلي وقد لخص ما نشرته الصحف بالقدر الذي يكفي لاعطاء صورة موجزة عن حياته ولم يتم الاطلاع على الكثير من الصحف التي تناولت صفحة أو صفحات من حياته باسهاب ومع ذلك فان هذا التلخيص يكفي ليلقي الضوء ولو بصورة مجملة على حياتـــــه .

اللـــوح

هذه القصيدة آخر ما نظم عباس الخليلي من الشعر وذلك قبل وفاته بأيام قليلة ، وقد بعثها لي ضمن رسالة يقول فيها انه ربما يرسل لي آخر منظومة له — ولم يكن حينذاك يشكو من شيء — ثم توفي بعد ذلك بأيام فكانت الرسالة وهذه القصيدة آخر ما تلقيته منه .

اللوح

ما على الصبح لو أزال الإزارا ... فمحا الليل ثم خطّ النّهارا
بمداد من عسجد ويراعٍ ... من شعاع الشمس استمدّ النضارا
وبسفر زمّردي وكفٍ ... من بلجين تنمق الاسفارا
هي كفُّ الفجر التي لاح فيها ... رمز خطٍّ تمحو به الاسحارا
قد بدا أصبع الشهادة منها ... ناصعاً حيث بالضياء أشارا
فاذا بالظلام يعدو سريعاً ... هارباً يصرخ الفرار الفرارا
فرّ جيش الزنج العرمرم لمّا ... ساقت الروم جحفلاً جرّارا
أترى كاتباً يخط زبوراً ... أم ترى فارساً يشق الغبارا
قلم ما جرى على اللوح حتّى ... خط بالنور للحياة شعارا
فشعار النهار نورمفيضٌ ... هدم الليل سيله فانهارا
انما الشّمس وهي حمراء حق ... من عقيق زاه يزيد احمرارا
والشّعاع اليراع فهي دواةٌ ... حبرها التبر ذاب فيها وفارا
فار منها التنور بالنّور لمّا ... كشف الصبح عن سناها الستارا
فخذي اللوح يا ذكاء وخطي ... فيه من تبر حبزك الاسطارا
وابعثي في الحياة حراً ونوراً ... ساطعاً ينعش النفوس الحرارا
مسّ عين الشمس الشعاع بميل ... فجرى دمعها دماً مدرارا
جمّدت بعد ما جرت بعبيطٍ ... من دمٍ سال في الفضا ثم حارا
فليفض منه في الفضاء ضياءً ... فيمدّ البحور والانهارا

ويواري بـالزّهـر نجـم الدياجي ... ويبـاري بنوره النـوارا
وليخطّ الضيـاء باللوح سطـراً ... فيولّي الظلام أو يتـوارى
وليحطّ الاثقـال عن متن حُـرٍ ... تعب بات يحمـل الاوزارا
تعب والظلام أظلم بـاغٍ ... سلبٌ النوم منه حيث أغـارا
وعيـون النجوم تنظـر شزرا ... نحو كنه الوجود وهي حيـارى
قـد عـرفت الهلاك منهـا بطرف ... ساهر حائر يرى الجهل عـارا
فـاذا بي والطبع ينكر عيشـاً ... لجهول لا يعرف الانكـارا
حيث انكرت كـل شيء بدهر ... جاء بالموبقات عمداً و جـارا
أنا أدري والجهل عـمّ البرايـا ... ما هو الدهر والجهول يـدارى
مجبر أم مفوض غيـر اني ... استفزّ التوفيض والاجبـارا
عبث كل مـا رأيت وجهـل ... سال من منبع الوجود وسـارا
يجرف النـاس بالضلال ويزجي ... سحبـاً تمطر الفنـا والبوارا
طـال ليلي وزاد ويلي فسحقـاً ... لفتى لاذ بالدجى واستجـارا
انما الليـل وهـو داج دخـان ... فترى النجم وهو زاه شرارا
ان قـرن الشمس المضيئـة عضب ... ذو شفـار يمزق الاستـارا
يفضح النـائمين تحت غطـاء ... من ظلام ويكشف الاسرارا
يمحق الاسود الكثيف ويجلـو ... ابيضـا شفّ بالضيا وأنـارا
يخلف الشهب وهو أسنى سنـاء ... كسنـا البرق يخطف الابصارا
ظلمـات وبعضها فـوق بعض ... مثقلات تخفف الانـوارا
غلب الظلـم والظلام عليهـا ... حيث أفنى ضياءها وأبـارا
تحسب النجم نـاسكاً مستكنـاً ... وتـرى الليل كافرا جبـارا
يسترقّ النجوم عنفـاً ويخفي ... بين جـون الغيـاهب الاقمارا
فكـأن الظلام كـافور مصر ... وهـو عبد يستعبد الاحـرارا
وجـوارٍ امسين سبي مليكٍ ... أسود سـاق للزنوج الاسارى
حلبـات تجول فيهـا خيولٌ ... ثـابت صدّ سـابقاً سيـارا
وكـأن السّهـاد أثرّ فيهـا ... فترى في عرى الجفون انكسارا

وامقـــات أو رامقـــات بخفض ... واضطراب تتـــابع الانظـــارا
تستمد الصبـــاح حتى كـــأني ... قد سمعت الصياح منها جهـــارا
ألهـــا منطق يفـــوه وعين ؟ ... ترمق الســـاهرين والسمـــارا
مـــا أخـــال النجوم الا جماراً ... ساقطـــا والظلام يرمي الجمارا
أو جمـــانا بقعر بحـــر خضـــمٍ ... تفلق الســـابحات عنه المحـــارا
في سمـــاء زهت بـــدر الدراري ... فالثالي تري الليـــالي بحـــارا
وأراهـــا أنـــا بحارا وانـــي ... سابح في الدّجى أخوض الغمارا
ألقط الدرّ مـــن بطون بحـــارٍ ... مائجات فـــانظم الاشعـــارا
وأوافي بكـــل در ثميـــنٍ ... جاعلاً منـــه للغواني ســـوارا
أو أنـــا النسر والقوافي القدامـــى ... سرح الطرف بالنجوم وطـــارا
طـــار يصطاد كل معنى رفيع ... وتجافى أن ينشب الاظفـــارا
قد أصاب العمى عيون الـــدرارى ... دق في كل مقلة مسمـــارا
ثبت العرش بالمســـامير وانقش ... فيه رسمـــاً أودر به حيث دارا
ثم دار الزمـــان وأقنع بفضـــل ... فـــائق واتخذ من الشهب دارا
ان عمراً قضيتـــه بشقـــاء ... وعنـــاء زاد الحيـــاة اعتبارا
كـــن حديداً فالدهـــر قين شديدٌ ... كي يفلّ الحديد يصليك نـــارا
أو لجينـــاً أو عسجداً وهـــو خير ... انمـــا ينقد العلى الاخيـــارا
والحديـــد المصقول أولى فيمسي ... بيد الدهـــر صارماً بتّـــارا

نموذج من خط عباس الخليلي

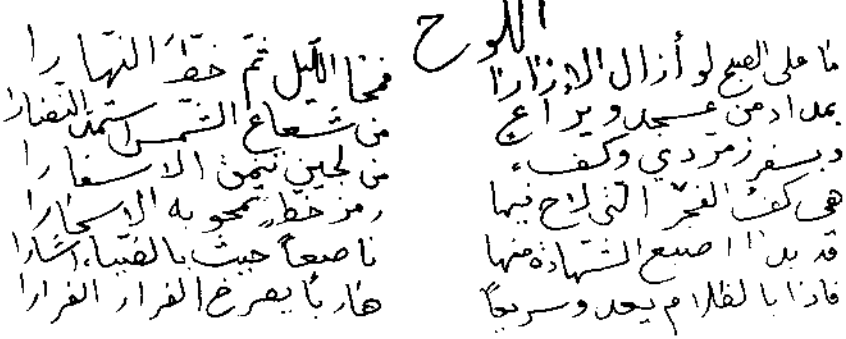

فصل خاص

بجعفر الخليلي

هذا فصل لو خيّرت لما اخترت درجه في هذا المكان ، وذلك لافتقاره إلى المناسبة التي تستدعي ذكره هنا ، بعد أن نشر غير مرة في كراسات مستقلة كرؤوس أقلام لمن يعنيهم مثل هذا الموضوع ، ولأنه مكتوب بقلم غير قلمي ، ولكن اقتراحاً مبعثه غير جهة واحدة مصحوباً بالتأكيد على وجوب درجه في آخر الجزء الرابع ليساعد على شرح الكثير من الخواطر والتعليقات والعروض الواردة في الأجزاء الأربعة من (هكذا عرفتهم) متى تم الوقوف على جانب من حياة المؤلف ، فاقتضى بناء على ذلك درجه هنا مع الاعتذار .

جعفر الخليلي

رؤوس أقلام عابرة

عن الاستاذ جعفر الخليلي

سجلها مشكور الاسدي

بناء على طلب الأستاذ أحمد حامد الشربتي

المفتش الاختصاصي بوزارة التربية سابقاً

كتبت في سنة ١٩٦٤ وأعيد النظر فيها سنة ١٩٧١

كلمة موجزة

هذه لمحات خاطفة ، ورؤوس أقلام عابرة . وخطوط رفيعة عن الأستاذ جعفر الخليلي جمعت بعضها من مذكراتي ، والبعض الآخر مما احتفظت به ذاكرتي ، وبعضاً من استقصائي حين طلب مني الاستاذ الجليل احمد حامد الشربتي المفتش الاختصاصي بوزارة التربية سابقاً ان أسجلها ليعتمدها في ترجمة مشاهير أدبائنا ، وهي مجموعة تراجم انفرد بها أستاذنا الشربتي بين جميع التراجم لكونها مكتوبة بأقلام أصحابها باستثناء ترجمة الخليلي ، ولكون مؤلفها (الشربتي) بحاثة له في ميدان البحث والأدب أكثر من صولة وجولة ، واذا ما كتب لمجموعته من التراجم أن تخرج إلى حيز الطبع فستسد فراغاً جد كبير في عالم البحث والاستقصاء . وستغنينا عن مشقة البحث والتتبع في سير مشاهير رجال الادب المعاصرين في العراق .

ومن باب الاتفاق أن تصبح هذه اللمحات ورؤوس الاقلام عن الأستاذ الخليلي مرجعاً للدراسة عنه لدى الباحثين من طلاب الجامعة ، أو المؤلفين الذين يعنيهم البحث عن تاريخ الصحافة والصحافيين . أو تاريخ القصة والقصاصين ، او تاريخ العتبات المقدسة ، او الادب والشعر في العراق . فاضطررت لطبع العشرات من هذه النسخ بالطابعة لتسهيل دراسة (الخليلي) على ضوئها . ولما كثر طلابها التجأت لطبع كمية

منها بالمطبعة ، ثم التجأت لاعادة النظر في بعض فصولها وطبعها من جديد لنفاد ما طبع منها ، وبذلك أكون بسبب أستاذنا (الشربتي) قد وفرت لمن يعنيهم الأمر حاجتهم من هذه اللمحات التي بدأ يزداد الطلب عليها من لدنّ كتّاب التراجم وطلاب الجامعات بقصد الدراسة وليس لدي منها ما يسد الحاجة .

بغداد كرادة مريم — مشكور الاسدي
آب (اغسطوس) ١٩٧١

تعليق الخليلي

يقوم الاديب اللوذعي الكبير الاستاذ أحمد حامد الشربـــتي المفتش الاختصاصي بوزارة التربية والتعليم بجمع عدد من التراجم لعدد من العلماء والشعراء والكتاب ، والأستاذ الشربتي فضلاً عن كونه أديباً ، وباحثاً ، وكاتباً لامعاً فان لعاطفته المشبوبة أثراً غير قليل في دنيا المحبة والصداقة ، ومن هذه العاطفة وقوع اختياره عليّ لأكون من ضمن تلك المجموعة التي اختارها من التراجم ، وبناء على ذلك طلب مني أن أضع بنفسي ترجمة حياتي على غرار ما قدمته أنا في كتاب (هكذا عرفتهم) من تراجم ، فاعتذرت ، وأصرّ هو ، وأصررت أنا ، لأنني واثق من اني ان فعلت ذلك فلن أنجو مهما بالغت في الحيطة من الانانية وحب الظهور ، ولاحقني هذا الصديق الكريم ولكن دون جدوى حتى وقع على الخبير وتركني مشكوراً .

والخبير هذا هو الكاتب الالمعي المعروف الأستاذ مشكور الاسدي الذي ولع بجمع طائفة من المذكرات والخواطر ، والشذرات ، عمم عرف في حياته من رجال الادب ، وقد أفاد من دراسته الجامعية وتطوافه بالأقطار العربية والاجنبية حيوية علمية وتجارب فنية ساعدت كثيراً على أن يبدع في جميع ما يكتب من البحوث والمقالات .

وجاءني الاستاذ مشكور يعرض عليّ مسودة ما كتب عني وطلب مني قراءة

كمية هذه الصفحة التي سماها (بلمحات خاطفة) او الخطوط (الرفيعة) عن جعفر الخليلي كما قال ، والتي خططها ليسهل استخراج الخطوط العريضة منها لمن يعنيه أمري كما يقول ، فقرأتها ، وليس عندي ما أقوله عن هذه الخطوط (الرفيعة) من حيث الحوادث وتاريخها ، ولكني لم أنس ان مجرد التفكير في وضع ترجمة عني بخطوط (رفيعة) او (عريضة) لا يخرج عن كونه ضرباً من ضروب العاطفة .

جعفر الخليلي

— ١ —

ولد جعفر الخليلي في مدينة النجف عام ١٣٢٢ هـ في بيت علم وأدب ، ودين وطب . تولى غير واحد من أسرته المرجعية الكبرى للزعامة الروحانية الشيعية ، كان منهم جده المولى الحاج ملا علي الخليلي ، وكان منهم عم أبيه الحاج مرزا حسين الخليلي وقد تولى هذا المرجعية بعد السيد المرزا حسن الشيرازي الذي كان من تلاميذه : — أي من تلاميذ الشيرازي — السيد جمال الدين الأفغاني ، وقد أشار السيد جعفر الحلي الشاعر الكبير إلى تولي الحاج ميرزا حسين الخليلي الزعامة الروحية في قصيدة تهنئة عامرة مورّياً بها اسم الزعيم السابق السيد ميرزا (حسن) الشيرازي والزعيم اللاحق الحاج ميرزا (حسين) الخليلي ومشبّهاً تولّيهما بتولي (الحسنين) بن علي (ع) الامامة من (الحسن) (ع) قائلاً :

قد كادت الفتنة الكبرى تحلّ كما
بعد النبي فشت في الامـــة الفـــتن
حتى أتى النص ان الديـــن رتبتـــه
موروثة (لحسين) ان مضى (الحسن)

أما والده فهو الشيخ أسد الخليلي من رجال الفضل والادب والطب القديم وكان من أساتذة علم المنطق المعروفين .

ومن مشاهير الاسرة الذي توفي اخيراً الاستاذ عباس الخليلي الشاعر السياسي والأديب المتمكن من اللغتين العربية والفارسية ،والمبرز في الحركات الوطنية في النجف والذي استطاع أن ينجو من مشنقة الانكليز في ثورة النجف المعروفة التي قامت قبيل الثورة العراقية عام ١٣٣٦ هـ ١٩١٨ م وقد أرخ لها المؤرخون في وقتها بقولهم : (حصار وغلا) ١٣٣٦ هـ فقد تخفى عباس الخليلي في الآبار وهرب إلى ايران وحكم عليه بالاعدام غيابياً في حين اعدم زملاؤه الشهداء الذين لم يستطيعوا الهرب مثله ، وكانوا أحد عشر شهيداً وله تاريخ مشحون بالغرائب وقد يكون أول من سل السيف في وجه الانكليز في العراق وقد قال حين فرّ وأخفقت الثورة النجفية من قصيدة له منشورة في مجلة العرفان :

رويداً رجـــال الانگليز ورأفة ... ان اليوم أسرفتم فان لنا غدا
وان قصرت أقدامنا عن خطاكُمُ ... مددنا إلى ما فوق هامكم يدا

ومنها يخاطب أهل العراق :

يحيّيكم أهـــل العراق عـــلى النوى
فتى في سبيل المجد أمسى مشردا
تحية عـــانٍ كلمـــا هبّت الصبـــا
ينوح كمـــا نـــاح الحمام مغـــرّدا

ان اليوم أطلقت اللسان بحبكم ... فبالأمس عنكم قد سللت المهندا
عواطف لا تنفك تغلي بمهجـــتي ... إلى أن أرى فوق الصعيد موسّدا

الخ ...

وقد ذكر الأستاذ ابراهيم الوائلي وهو من أساتذة جامعة بغداد ان عباس الخليلي كان أول شاعر ورد في شعره ذكر فلسطين كما علمت .

ومن أفراد الاسرة الأديب الطبيب المرحوم الشيخ محمد الخليلي ابن عم جعفر الخليلي وصاحب كتاب أدباء الاطباء ، والبحاثة الأديب المرحوم محمد علي

ابراهيم الخليلي وبين آل الخليلي عدد من أدباء الشباب والشعراء كعبد الغني الخليلي ، وعلي الخليلي ، وجعفر صادق الخليلي ، وهو غير مترجمنا جعفر أسد الخليلي هذا وبينهم تجار معروفون منهم الأستاذ صادق الخليلي المحامي التاجر والعضو الاداري بغرفة تجارة بغداد . والاستاذ باقر الخليلي والمهندس عبدالآله الخليلي والمهندس رجاء الخليلي وغيرهم .

— ٢ —

تمثل الاسرة بمجموعها جانبين أحدهما الطب القديم وقد مارس عدد كبير من رجالها في التاريخ القديم الطب اليوناني كان آخرهم الشيخ محمد الخليلي ومحمد صادق الخليلي ومحمد صالح الخليلي كما أن بينهم أطباء تخرجوا في الجامعات الحديثة وبرزوا ومن هؤلاء الدكتور أحمد الخليلي ، والدكتور حسين الخليلي، والدكتور عبد الهادي الخليلي، والدكتور باسم الخليلي، والدكتور رضا الخليلي والدكتور عباس الخليلي وغيرهم إلى جانب عدد من حملة الشهادات العالية من مهندسين وأساتذة ، أما الجانب الثاني فهو الدراسة الدينية كما أشرنا إلى ذلك ، وللأسرة مدرستان دينيتان معروفتان في النجف وهما مدرسة الحاج مرزا حسين الخليلي الكبيرة والمدرسة الخليلية الصغيرة . كما أن لهم مسجداً اشتهر باسمهم في النجف ، ومقبرتين معروفتين باسم الاسرة أيضاً وفي المدرستين المذكورتين مكتبتان كبيرتان موقوفتان على طلابهما . وقد ورد تاريخ هذه الأسرة في جميع المصادر وكتب التراجم في النجف .

— ٣ —

ارخ الشيخ حسين العاملي (وقيل انه العالم الكبير الشيخ عبد الحسين صادق) ، ولادة جعفر الخليلي بن الشيخ أسد بقوله :

عوذّت مولـــوداً أتـــى لشيخنا : (الشيخ أسد)

من كيد كـل كـائـد وحـاسد اذا حسد
يـا فرحة مـا جاءنـا بمثلهـا قبـل أحـد
إن قيل من ؟ ارخ : (أنا الشبل من ذاك الاسد)

١٣٢٢ هـ

— ٤ —

أذكر أن جعفر الخليلي حدثني يوماً عن سيرته مع أبيه رحمه الله فقال :

اذا استثنينا بعض مراسيم الاحترام والطاعة نحو أبوينا فنحن الاخوة (الابنان عباس وجعفر) والبنات الثلاث وهن أكبر من الابنين (والأستاذ جعفر أصغرهم جميعاً) كنا نعيش مع أبوينا كأصدقاء على وجه التقريب فقد فسح لنا أبونا في مجال الحرية حتى عودنا أن نقول في حضرته شيئاً كثيراً مما قد لا يسوّغه الاباء الآخرون لأبنائهم في تلك العصور ، ولذلك لم يتوان أخي عباس أن ينتقد من أبيه بعض ما كان يقرأ علينا من نظمه ويناقشه في السهو والغلط ولا أزال أذكر جدلاً وقع بين أبي وأخي حول بيت من رباعية من نظم أبي نسيت البيت الأول منها وبقي البيت الثاني الذي جرى الجدل حوله وهو قول أبي :

فمـا لهذا التمنّي قيمـة أبـداً
اذا أتاك جواب القـول لم تـرني

وقال أخي لأبيه ان الذي أفهمه هو ان مقصودك هو أن تنفي المستقبل وتقول (لن تراني) ولكنك نفيت الفعل في الماضي وهذا خطأ ... وبعد مناقشة أيّد أبي اعتراض أخي عليه وأحسب انه كان رحمه الله يتحاشاها او يتحاشى بالاحرى أخي عباس في النظم فقط ، أما في القواعد العربية الاخرى من نحو وصرف ومعان وبيان فاليه يرجع فضل تقويمها فينا .

وقال الخليلي جعفر : وأذكر ان أبي سألني يوماً عن أسباب نصب كلمة

(كريمَ) ثوابه – من الجملة التالية : (فقبضك اليه باختياره لك كريمَ ثوابه) فلم اهتد للسبب ، وسأل أخي فلم يهتد هو الآخر أيضاً لأن أبي كان قد فصل بين الجملة وقرأها كما لو كانت جملتين واقفاً عنه كلمة (باختياره) فأضاع علينا اعرابها كمعمول للمصدر ، ولا تسل هناك عن الضحك والسخرية بنا من أبينا تشفّياً مما قد كنا نؤاخذه عليه في نظمه أو يؤاخذه أخي على الاصح .

— ٥ —

ومن ذكريات طفولة جعفر ان أهله كانوا يزيّنون رجليه بالجلاجـــل (الجناجل) من الفضة تدليلاً وتحبباً ، فخرج يوماً وحده إلى الشارع وهو ابن ثلاث سنوات او أربع فرآه سقاء يحمل قربته على ظهر حماره فحمل الصبي وأركبه على الحمار ونزع من قدميه الجلاجل وهو غافل عن ذلك ، مسرور بركوب الحمار ! ومن الغريب حقاً أنه وقع لابنه (هاتف) مثل هذا بالضبط مع سقّاء يحمل الماء على حمار أيضاً وهو ابن ثلاث سنوات أو أربع والفرق هو ان جلاجل (هاتف) الأبن كانت ذهباً ولم تكن فضة كجلاجل أبيه .

— ٦ —

ومن ذكريات طفولته كذلك أنه كان كبعض لداته كثير البحث عن أعشاش العصافير يتسلق لأجلها الجدران و (الشناشيل) حيث يستطيع الوصول إلى تلك الأعشاش ومرة كان قد تسلق أحد (شناشيل) دار يسكنها الشيخ صادق الايرواني في النجف فطرق أحد رفاقه من الأطفال باب دار الشيخ وهرب ، ولم يسع الخليلي النزول من الشناشيل والهروب ، فخرج الشيخ الايرواني والخليلي لا يزال معلقاً خوفاً من بطش صاحب البيت فطمأنه الرجل بأنه لن يصيبه بأذى إذا ما نزل ولكنه ما كاد ينزل وتطأ قدماه الأرض حتى انهال الشيخ صادق عليه

بالضرب ولا يزال هذا الشيخ الفاضل حيّاً يرزق وقد كبر الخليلي وكلما رآه الايرواني في الطريق سلّم عليه ولا يدري الخليلي هل يذكر الشيخ الايرواني ذلك الحادث الذي مضت عليه السنين أم أنه نسيه . وهل أنه يسلّم عليه اليوم تكفيراً عن الماضي ؟ أم أنه يسلّم عليه لمجرد الاحترام .

— ٧ —

ومن ذكرياته التي حدثني بها مرة عن طفولته هي ان أطفال محلته في النجف قد جعلوه — لجرأته — رئيساً عليهم في (حربهم) مع (المحلات الاخرى ..) وكان أولاد المحلات في بعض الاحياء يغزو بعضهم البعض حيناً . وفي إحدى الغزوات التي قام بها الخليلي وجماعة من أبناء محلته وهي محلة (العمارة) على محلة (الحويش) خرج عليهم جمع من سكان الحويش وكان أغلبهم من البنّائين وفي أيديهم (آلات وأدوات البناء) ووقعوا بهم ضرباً الا أن الخليلي استطاع التخلص بحيلة وهو أنه لم يهرب بل مثّل دور المتفرج المستطرق الذي لا علاقة له بهذا الغزو .. !! فانطلت الحيلة على هؤلاء ولم يمسّوه بسوء .

ومن الحوادث التي مرت به في الصغر ، وهو طالب في المدرسة ولا يزال يذكرها بألم أنه رأى زميلاً له يسرق بعض الادوات المدرسية وكثيراً ما كان يقع مثل هذا ولم يعرف السارق فأخبر الخليلي المعلّم ثم مدير المدرسة وكان من نتيجة ذلك أن طرد التلميذ السارق وظلّ ضمير الخليلي يوبّخه لأنه هو وليس غيره الذي كان سبب ذلك الطرد وحرمان الطالب من المدرسة . وأنه ليذكر الحادث ويحس بالكثير من وخز الضمير أن يكون قد سبّب الحرمان لطالب من الطلاب وان كان مستحقاً العقاب .

— ٨ —

عرف السيد الخليلي منذ الصغر بحب الفكاهة والنكتة وصنع (المقالب) التي توقعه في بعض الاحيان في الاحراج وقد شب عليها .

وقرأت مرة أحد المقالب عنه ملخصاً كما يلي :

كان في الكوفة شاعر شعبي اسمه الشيخ (خضيّر) وهو رجل تغلب عليه السذاجة والطيبة . وكان الخليلي وأهله قد اعتادوا الخروج إلى الكوفة وقضاء بعض الأيام فيها . وفي احدى المرات كانوا قد استأجروا بيتاً كبيراً في الكوفة وذلك قبيل صدور جريدة الراعي وكان الشيخ خضيّر يزور المجلس الأدبي الذي كان ينعقد في بيت الخليلي و يضم فريقاً من الادباء والشعراء الذين يجتمعون عند الخليلي ليلاً . وعرف الخليلي ان الشيخ خضيّر قد نظم قصيدة باللغة الشعبية وأهداها إلى شاه ايران رضا شاه بهلوي ولكن لم يتلق ما يشعره بأن القصيدة قد وصلت إلى الشاه . كما أنه لم يتسلم حتى كلمة شكر على الاقل على هذه القصيدة من أية جهة من جهات البلاط الايراني فحرّك ذلك روح المرح والتنكيت في السيد الخليلي وهو مجبول عليها كما ذكرت فتوجه إلى الشيخ خضيّر وقال له لا بد ان الشاه سيشكرك على قصيدتك فان مدة الأشهر الثلاثة التي مضت على ارسالك القصيدة إلى طهران ليست بالمدة الطويلة وان لدى الملوك مترجمين يعرفون كل اللغات فلا بد أن قصيدتك الشعبية الآن في دور الترجمة . فلا ينبغي أن تيأس !

وفي النجف . وبعد ذلك بيومين . كان الخليلي يزور صديقاً له من التجار فوجد عنده ورقة تجارية عليها عناوين بالانكليزية فأمسك بالورقة وحرّر عليها خطاباً موجهاً إلى الشيخ خضيّر كأنه صادر من البلاط الايراني وكان الخطاب باللغة الفارسية يخاطب فيه بلسان الشاه الشيخ خضير . ويقول له ان قصيدته

وصلت وكانت جميلة وبليغة وأنه اي الشاه يشكره عليها وقد خصص له (٢٠) تومانا كهدية تدفع اليه في كل شهر من قبل القنصل الايراني في النجف بالاضافة إلى مبلغ (٢٠٠) تومان يقدم له نقداً من القنصلية حين يراجعها وكان توقيع الكتاب توقيعاً همايونياً فخماً ليس فيه ما يشعر باسم او يدلّ على شيء ، وعلى الرغم من أن الطابع كان عراقياً فان (الشيخ) لطيبته وسذاجته لم يشك بصحة الرسالة حين وصلت اليه بالبريد إلى الكوفة في اليوم الثاني ، وجاء الشيخ إلى محمد الخليلي ، ابن عم جعفر الخليلي وقد كان يسكن الكوفة يومذاك ، ومعه الرسالة ليقرأها له لمعرفته الفارسية التي يجهلها الشيخ خضيّر ، وقد قرأها له وكان محمد الخليلي يعلم بالقصة تماماً... وكان القنصل الايراني في النجف يومذاك هو الميرزا يحيي وهو من فضلاء طلبة العلم الروحانيين وقد درس الفقه والأصول في النجف قبل أن ينهج نهجاً عصرياً ويدخل الوظيفة ، وكان من المتوقع أن يزور الشيخ خضيّر هذا القنصل ليستوفي منه المبلغ النقدي الذي جاء ذكره في الرسالة وليعرّفه بشخصه ويريه الكتاب الوارد اليه من الشاه ...

وفي نفس ذلك اليوم تلقى الخليلي إشعاراً من قريبه المرزا صالح في الكوفة بأن الشيخ خضيّر قد أدخل سجن التوقيف في مركز الشرطة في النجف لأنه كان قد ألح على القنصل في المطالبة بالمبلغ ولم تنفع معه تأكيدات القنصل بأن الموضوع غير حقيقي وان أحد العابثين قد استغل طيبته فعبث به بالاضافة إلى ما كان قد ركب طبيعة القنصل من ضيق الطبع وسرعة الانفعال والهيجان وانتهى الامر باتصال القنصل بالشرطة واخبارها بمضايقة هذا الرجل للقنصلية وما كال لها من شتائم . فأوفدت هذه الجهة إلى الشيخ خضير من قبض عليه في دار القنصلية وأوقفه في المركز ، ويقول جعفر الخليلي على ما ورد في هذه القصة التي نشرتها ذات يوم احدى الصحف كدليل على مرح الخليلي وحبه للنكتة و(المقالب) يقول : وزرت على الأثر معاون الشرطة وسردت له القصة كلها كما كلفت أحد الأصدقاء لكي يذهب إلى القنصل فيقنعه بالتنازل عن حقه في رد الاهانة التي تصورها صادرة من الشيخ خضير حين اتهمه هذا بحجب الهدية

الشاهانية عنه لغرض في نفس يعقوب . وأخيراً وبعد مساع كثيرة أفرج عن الشيخ خضير وهو يعتقد بأن حقه قد هضم ، وأنه قد حرم من الهدية ظلما ، والراجح أنه لا يزال حتى اليوم يعتقد بصحة الرسالة الواردة اليه من الشاه وان القنصل هو الذي استولى على المبلغ !!

ومن ظرفه ما روى الخليلي نفسه في الجزء الثاني من كتاب (هكذا عرفتهم) يقول : « وظلت أمنية التقائي بنظير زيتون تراودني زمناً طويلاً دون أن يكتب لي التوفيق بتحقيقها على قرب حمص من بغداد وعلى كثرة زيارتي لسوريا ولبنان ، وفي صيف سنة ١٩٦٦ كنت ببيروت وكنت قد اتخذت من مكتب الصديق السيد محمود صفي الدين صاحب دار بيروت للنشر مقراً لي . وكنت في ذلك اليوم على موعد مع المطبعة لتعرض علي هناك (الملزمات) التي تم طبعها من موسوعة العتبات المقدسة ومعي الصديق العلامة السيد حسين الحسيني مفتي بيروت الجعفري الممتاز ، وكنت قد شغلت مكتب صاحب دار بيروت في تلك الساعة لتغيبه في أوروبا ، واذا بشخصين يدخلان علي في المكتب وقد تمّ سيماؤهما على انهما وجهان كريمان وشخصيتان محترمتان . وتقدم أحدهما بنصف خطوة عن الثاني وقد ظنني خليفة السيد محمود صفي الدين بدار بيروت او أني وكيله ، او أحد موظفي مكتبه ، وقدم إليّ صاحبه قائلاً :

ــ انه الأديب الشهير الكبير نظير زيتون .

وبدل ان أشهق شهقة الفارح الذي حقق الله له أمنيته اذ أعطاه الدنيا برمّتها بهذا الالتقاء أمسكت نفسي وتجاهلت الأمر . فقد لذني أن أمزح في تلك الساعة وسألت الرجل الذي قدم نظير زيتون قائلاً :

ــ وما هو عمل الرجل ؟

ــ قال ــ انه الأديب الكبير وقد طبقت شهرته دنيا العروبة ، والأوساط الأدبية فكيف تجهله ؟ ولا تعرف اسمه ؟

وتمالكت نفسي ، وقلت له :

– وحضرتك من تكون ؟

– قال – أنا محمد علي الطاهر ...

يا لله ما أعجب ما تفعل الاقدار وتجيء به المصادفات فهذا رجل آخر من رجالاتنا الكبار المحبوبين الذين طالما تمنيت أن أراهم . وطالما فكرت في السعادة التي ستغمرني اذا ما كتب لي أن أحظى بلقيا أحدهم . فأنا أعرف الأستاذ الطاهر من عهد بعيد . ومنذ أن كان يصدر جريدة (الشورى) التي كانت تصل الي عن طريق المبادلة مع جريدتي (الفجر الصادق) وهي أول جريدة أصدرتها في النجف . او الأصح كانت تأتيني مبادلة مع جريدتي الثانية (الراعي) . اذا لم تخني الذاكرة ثم لم أعدم الوسائل التي تجعلني أعرف هذا المجاهد الكبير . والوجه العربي المشرق بفضائله ، وايمانه . وتضحياته .

يا لله ما تفعل المصادفات ؟ كيف جمعت بين هاتين النعمتين وأنزلتهما علي كما تنزل الرحمة من السماء . وكدت أثب من الفرح ولكني تمالكت نفسي – كما قلت – وعدت إلى ما عرفت به من طبيعة الدعابة وتظاهرت بجهلي الرجل وقلت : –

– ولكن ما هو عملك أنت ؟

ويظهر ان الأستاذ (الطاهر) ضيق الصدر . شديد الغضب فقد برم وسئم وظن أن هذا الجالس وراء المكتب والذي استخلفه السيد محمود صفي الدين في محله – وهو أنا – أقرب إلى السوقة منه إلى أهل الثقافة . فكرّر قوله بشيء من العصبية والحملقة قائلاً :

– أنا محمد علي الطاهر ...

قلت – ولكن ألم تقل لي انك زيتون ؟

قال – لقد قلت لك ان صاحبي هذا هو نظير زيتون . ولم أقل لك أني أنا نظير زيتون .

قلت – لا فرق فلتكن أنت الزيتون أو هو ...

ثم عدت مرة اخرى للتباله – وكان قد ضاق صدر أبي الحسن الطاهر أكثر ولم أكن أعلم يومها أنه اذا ضاق صدره فلن تكون العاقبة حسنة . لقد عدت اليه أسأل :

– إذن فمن يكون صاحبك هذا ؟

قال : – وقد بدا على وجهه الامتعاض – لقد قلت لك انه الأديب الكبير نظير زيتون ، فاذا كنت لم تسمع به ولم تعرفه فما الذي أستطيع أن أفعل أنا ؟ والمهم أن تعلم ان للأستاذ زيتون (مجموعة) كاملة من كتاب (لسان العرب) هنا بدار بيروت وقد جئت به ليتسلمها فهل ستسلمها له أم لا ؟ قلها مرة واحدة .

ويبدو لي أن صديقي الحسيني مفتي بيروت قد أحس بما صممت عليه من القيام بتمثيل مسرحية هزلية صغيرة ذات فصل واحد لن يستغرق أكثر من ربع ساعة لو اقتضى أن يطول فابتلع الابتسامة الحلوة التي لم تكن تفارق شفتيه وجمّد نفسه على خلاف سجيته .

وبعد أن جلس نظير زيتون وجلس الطاهر وجيء لهما بالمرطبات نفد صبري ، فقمت من وراء المكتب وتقدمت اليهما وقلت :

– والآن قد جاء دوري لتعريف نفسي لكما فانا فلان، وقفزا في وجهي وتعانقنا طويلاً وضحكنا طويلاً » .

أما النكات العارضة التي تأتي في عرض كلام الخليلي والدالّة على سرعة البديهة فهي كثيرة ومنها ان احدى الصحف العراقية وهي (الأيام) نشرت ما يلي :

قيل للأستاذ جعفر الخليلي : : انك أبو الصحافة العراقية ، فقال أنا أبوها حين يريدون شتمها ولعنها بقولهم لعن الله أبا الصحافة ، أما قصورها وسياراتها فليس لي منها شيء .

ونشرت جريدة (الزمان) مرة على لسان الخليلي قوله وهو يشكو من مرض النقرس — والنقرس يسميه العرب بمرض الملوك — قائلاً : لست أدري لماذا ليس لي من الملوك الا مرضهم ، أما رفاههم وهناؤهم فلهم وحدهم دون غيرهم .

وللخليلي أمثال وحكم تتخلل الكثير منها الدعابة وقد نشرت الصحف كثيراً من هذه الأمثال ولا سيما مجلة (البيان) الكويتية بل لقد انتشر بعض هذه الأمثال حتى ترجمت احدى الصحف الالمانية شيئاً منها خصوصاً هذه الحكمة التي يقول فيها الخليلي :

« ينبغي أن يكون للانسان عمران ، عمر يجرّب به وعمر يفيد من التجارب »

ولقد قلب الخليلي الكثير من الأمثال المشهورة فكانت من النكت البارعة ومنها المثل المعروف :

(رمتني بدائها وانسلّت) .

فقال يجب أن يقال : (رمتني بدائها ولم تنسل .) لان الوقاحة قد تبلغ في بعض الاحيان بأن يرميك الرامي بدائه ويظل يحملق في وجهك ، ويحدق اليك كما لو كنت أنت المذنب حقاً .

وقد قلب المثل المعروف : « المكان بالمكين » فقال بل كثيراً ما يكون « المكين بالمكان » لأن هناك من يخلق المكان له الجاه والعظمة لا الملكة والقدرة الشخصية .

ومثل هذا الكثير الذي وان كان يدل على حكمة ملموسة فأنه ليدل على الظرف الذي اتصف به الخليلي قولاً وعملاً .

والكثير من مقالاته ومؤلفاته ولا سيما كتابه (هكذا عرفتهم) يحوي ضروباً من الفكاهة الطبيعية التي تأتي عفواً في أثناء الكلام إلى ما كان يستمع اليه من الأحاديث والمساجلات العلمية في مجالس أسرته والمجالس النجفية الاخرى مما عرفت به مدينة النجف خاصة .

أما مكتبة والده هذه فقد انتقلت بعد وفاة صاحبها الى ابنه جعفر وكانت نواة لمكتبة كبيرة اضطر إلى بيعها في عام ١٩٣٧ على الأكثر لتلافي أزمة مالية كان يعانيها يومذاك حين كان يصدر جريدة الهاتف الشهيرة وينفق عليها من غير عائد .

— ٩ —

كان والده كما تقدم رجلاً فاضلاً ، وطبيباً ، واستاذاً في المنطق ، ومتقناً لآداب اللغتين العربية والفارسية يقول الشعر باقلال ، كما كان من أوائل المقبلين على ادخال أولاده وأولاد الأسرة في (المدرسة العلوية) التي تأسست في النجف الأشرف ، تلك المدرسة الحديثة التي كان من مؤسسيها على النمط العصري

عم أبيه الزعيم الروحاني الحاج المرزا حسين الخليلي وقد كان المرجع الروحاني الكبير في عصره وقد تضمنت فتواه وجوب انفاق بعض الحقوق الشرعية على هذه المدرسة وكان من طلابها أو من أكثر طلابها أبناء الاسرة الخليلية وأسرة آل (الاخوند) وهو أحد مشاهير مؤسسيها ومن المراجع العليا . وكانت أول مدرسة عصرية تنشأ في النجف فتدرّس فيها اللغات الفرنسية والانكليزية والتركية والفارسية إلى جانب العربية وكانت مدرسة في مستوى المدارس الثانوية درس الأستاذ جعفر الخليلي في هذه المدرسة ولا يزال حتى اليوم يرطن ببعض الكلمات الانكليزية والفرنسية التي تعلمها في تلك المدرسة . وقد كان من أساتذتها السيد كاظم العصّار وهو رجل تخرج من السوربون وجاء النجف للتخصص في دراسة الفقه والأصول . ولبس العمامة وطفق يطلب العلم في الحوزة ويتفقّه بالفنون الاسلامية والعلوم العربية وكان يدرّس الفرنسية المذكورة . في هذه المدرسة كما كان أيضاً (الشيخ مصباح الاطباء) من أساتذة الفرنسية والخط وهو والد مصباح زاده صاحب جريدة كيهان بطهران الذي تعتبر جريدته من كبريات الجرائد في الشرق اليوم . كما كان السيد حسين وهو من مشاهير المتفننين في الخط من مدرسيها .

وعالج جعفر الخليلي الشعر وهو تلميذ في هذه المدرسة وعمره لم يتجاوز الثامنة او التاسعة وقد وشى به تلميذ من زملائه في أثناء الدرس لدى المدرس ذات مرة قائلاً بأن عند جعفر الخليلي دفتراً يكتب به ما لا علاقة له بالدرس ، فجاء المدرس وأخرج الدفتر من درج الطالب جعفر . ووجد فيه أشعاراً بالعربية وبدلاً من أن يعاقبه كما كان يتوقع راح يشجعه على قول الشعر ولكن من غير تفريط بالواجبات المدرسية . ونصحه بأن يزاول هذا العمل في أوقات الفراغ ، ويظهر من هذا أنه كان ذا قابلية أدبية منذ طفولته وكان (انشاؤه) جيداً كما كان يحفظ شيئاً من طرائف الادب والشعر نتيجة نشأته في بيت علم ، وأدب ، وفضل ، وكان أبوه كما تقدم من الفضلاء ولديه مكتبة كبيرة فكان اليافع جعفر يرد هذه المكتبة ويفتح عينيه على ما فيها من كتب . وقد حدثني بأن أول كتاب

قدّر له أن يقرأ فيه حينما صار يستطيع القراءة كان كتاب (زهر الربيع) للسيد نعمة الله الجزائري فكان ينقله من المكتبة إلى غرفته الخاصة في الدار ويقرأ فيه ، فرآه أبوه مرة وهو يقرأه فزجره ومنعه من قراءة هذا الكتاب فكان ذلك دافعاً له على الحرص على قرائته والاطلاع على ما فيه . ثم قرأ كتاب (أنوار الربيع) للسيد مير علي خان كما قرأ بتوالي الايام إلى جانب كتبه المدرسية كتباً أدبية ، ودواوين شعرية ، وتواريخ مما كانت تحفل به مكتبة والده والمكتبات الاخرى وهذا ما قوى فيه الملكة الأدبية ووجّهه توجيهاً فنياً بالاضافة إلى ما كان يستمع اليه من الأحاديث .

— ١٠ —

ومن الكتب التي قرأها في أول عهده بالقراءة غير القرآن الكريم وغير المقدمات العلمية في المدرسة كالالفية و (القطر) ومغني اللبيب ، وحاشية الملا عبد الله في المنطق ، كان أنوار الربيع ، وكليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة ، وگلستان سعدي ، وديوان حافظ في اللغة الفارسية وديكامرون لبوكشيو الايطالي باللغة الفارسية أيضاً . وقد نشر (الهاتف) وكذلك (الفجر الصادق) و (الراعي) قصصاً من (ديكامرون) مترجمة بقلم محمد الخليلي ثم بقلم السيدة ماهرة النقشبندي . وغير ذلك كالمستطرف ، وأعلام الناس ، و (الاغاني) . بصورة خاصة . وكل هذا من أوائل ما قرأ الخليلي .

وقد تأثر بما في القرآن الكريم خاصة بقصص الأنبياء التي حملته فيما بعد على قراءة الكتاب المقدس . ومن الجائز أن يكون هذا العامل القصصي نواة لاتجاهه إلى معالجة فن القصة بعد ذلك وكانت مجلات المقتطف ، والهلال ، والعرفان من أوائل المجلات الأدبية التي قرأها لأنها كانت ترد إلى أخيه عباس الخليلي قبل الحكم عليه بالاعدام من قبل المجلس العسكري الإنكليزي في ثورة النجف سنة ١٩١٨ وفراره إلى ايران ، وكان لأبيه ولأخيه عباس الفضل الأكبر في توجيهه الأدبي .

— ١١ —

ومن الشعراء الذين قرأ لهم وأعجب بهم كان : بشار بن برد ، والمعري ، وأبا نواس ، والخيام ، وحافظ ، وسعدي .

— ١٢ —

أول ما صدرت له قصة باسم (التعساء) عام ١٩٢١ أو ١٩٢٢ ثم طبعت بعد ذلك مرة اخرى في النجف ، عالج فيها ناحية انسانية . وهو يقول أنه لا يريد أن يذكر هذه القصة وذلك خجلاً من ركتها ، وأن من أوائل آثاره كراساً بعنوان (حبوب الاستقلال) تصور فيه ان الشعب المستعمَر الذي يتناول شيئاً من هذه الحبوب لا بد وأن يصاب باسهال قوي يلقي بمستعمريه الانكليز في البحر وكل حبة منها مكونة من أجزاء تتألف من العلم ، والجرأة ، والاخلاص بنسب معينة . وقال ان الصيدليات التي تركب فيها هذه الحبوب هي صيدلية جعفر ابي التمن في العراق ، وغاندي في الهند ، وسعد زغلول في مصر ، وديفاليرا في ايرلندا . وصادرتها الحكومة في حينها وهي في حوالي (٤٠) صفحة وتم طبعها على نفقة بعض الشباب المتحمسين منهم المرحوم عبد علي ناجي ، ومحمد رشاد عجينة ، والحاج علي البهبهاني والمرحوم السيد حسن زيني .

— ١٣ —

شارك الخليلي في أثناء الاضطرابات والثورات التي قامت ضد المحتلين بُعيد الثورة العراقية وهو لم يزل يافعاً بكتابة مناشير على صورة صفحات صحفية لهياج الرأي العام ضد السلطة الاجنبية وكانت توزع او تلصق على بلاطات الصحن الشريف وكانت تكتب باليد وبخطوط مختلفة .

— ١٤ —

وما دمنا بصدد هذه المناشير الثورية أذكر أن الشدة الكبيرة التي واجهته في حياته وحدثني عنها ذات يوم هي انه خلال ثورة ١٩٢٠ كان في بيت الشيخ عمران الحاج سعدون رئيس قبائل بني حسن اذ ان للعائلة الخليلية صلة رحم (بآل عباس) أسرة الشيخ عمران ترجع إلى الامهات ، وجاءت طائرتان انكليزيتان حربيتان إلى قرية (الشيخ عمران) التي كانت قد خلت الا من العجزة والأطفال والنساء اذ ان القادرين على حمل السلاح من الرجال كانوا في ميادين القتال على خط (السدّة) و (المسيب) و (الحلة) والقت الطائرتان قنابلها على القرية ، وكان بالقرب من الخليلي زنجي أسود يسمى (فهداً) وكان فهد هذا هو الموكل بقهوة (المضيف) الذي يعفى عادة من حمل السلاح لئلا يغلق (المضيف) سواء أحضر أهله أم غابوا — فرأى الخليلي جثة العبد تتلاشى أمام عينيه بسبب شظية من قنبلة سقطت بالقرب منه ورأى الموت لأول مرة وجهاً لوجه كما عرف حين نجا كيف تقع المعجزة . وقد قتلت القنابل كثيراً من الناس والمواشي في القرية المنكوبة .

مؤلفات

جعفر الخليلي المطبوعة

— ١٥ —

١ — **يوميات** — الجزء الاول — خواطر وسوانح ، وملاحظات يومية .

٢ — **يوميات** — الجزء الثاني — خواطر وسوانح ، وملاحظات يومية .

٣ — **الضائع** — قصة فتى ضاع من أهله ثلاثين سنة .

٤ — **في قرى الجن** — عرض للحياة المثالية الواقعية في قصة مطولة .

٥ — **من فوق الرابية** — مجموعة قصص من حياتنا العامة

٦ — **أولاد االخليلي** — ٢٦ قصة منتزعة من واقع الحياة .

٧ — **هؤلاء الناس** — مجموعة قصص عابرة .

٨ — **حديث القوة** — استعراض لمجموعة من الخواطر في قصص مروية .

٩ — **مجمع المتناقضات** — قصص مختلفة النوازع يؤلف بينها التناقض .

١٠ — **اعترافات** — حوادث مروية على شكل اعترافات للعظة والعبرة .

١١ — **عندما كنت قاضياً** — عروض للأحوال الشخصية من : زواج ، وطلاق ، ووقف ، وميراث .

١٢ — **تسواهن** — سوانح عن الجمال ، والغناء ، والرقص العراقي .

١٣ — **التمور العراقية قديماً وحديثاً** — دراسة عن التمور العراقية من أول غرسها إلى آخر مرحلة من مراحل استهلاكها ، وتجارتها في مختلف أنحاء العالم ، وقيمتها الغذائية والكيمائية .

١٤ – **على هامش الثورة العراقية** – مستدركات مما لم يتطرق اليها مؤرخو الثورة العراقية الكبرى .

١٥ – **كنت معهم في السجن** – عرض لأهم الأسباب والعلل الآيلة إلى الجريمة ، وشواهد من قصص السجن والمساجين في العراق .

١٦ – **مقدمة للقصة العراقية الحديثة** .

١٧ – **آل فتلة كما عرفتهم** – عرض لحياة إحدى قبائل الفرات المعروفة .

١٨ – **نفحات من خمائل الادب الفارسي** – أبيات ومقطوعات مترجمة من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي .

١٩ – **العوامل التي جعلت من مدينة النجف بيئة شعرية**– رسالة تحصر مجموعة من الأمثلة لبواعث قول الشعر بين سكان النجف .

٢٠ – **ما الذي أخذ الشعر الفارسي من العربية ،والشعر العربي من الفارسية**– رسالة يدل اسمها على مضمونها .

٢١ – **القصة العراقية قديما وحديثا** – عرض مجمل لتأريخ القصة العربية والقصة العراقية الحديثة .

٢٢ – **هكذا عرفتهم** – الجزء الأول – عرض لجانب من حياة أشخاص عاشوا فترة من الزمان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم .

٢٣ – **هكذا عرفتهم** – الجزء الثاني – عرض لجانب من حياة أشخاص عاشوا فترة من الزمان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم .

٢٤ – **هكذا عرفتهم** – الجزء الثالث– عرض لجانب من حياة أشخاص عاشوا فترة من الزمان لغيرهم أكثر من عاشوا لأنفسهم .

٢٥ – **هكذا عرفتهم** – الجزء الرابع – عرض لجانب من حياة أشخاص عاشوا فترة من الزمان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم .

٢٦ – **جغرافية البلاد العربية** – عرض مختصر لجغرافية البلدان العربية من المحيط الى الخليج .

حلقات من سلسلة

أ ـ حبوب الاستقلال ـ ٢٧

ب ـ السجين المطلق ـ ٢٨

ج ـ خيال الظل ـ ٢٩

د ـ حديث السعلى ـ ٣٠

موسوعة العتبات المقدسة

٣١ ـ المدخل إلى موسوعة العتبات المقدسة

٣٢ ـ الجزء الأول من مكة المكرمة

٣٣ ـ الجزء الأول من المدينة المنورة

٣٤ ـ الجزء الاول من القدس الشريف

٣٥ ـ الجزء الثاني من القدس الشريف

٣٦ ـ الجزء الاول من النجف الاشرف

٣٧ ـ الجزء الثاني من النجف الاشرف

٣٨ ـ الجزء الاول من كربلا

٣٩ ـ الجزء الاول من الكاظمين

٤٠ ـ الجزء الثاني من الكاظمين

٤١ ـ الجزء الثالث من الكاظمين

٤٢ ـ الجزء الاول من خراسان

٤٣ ـ الجزء الاول من سامراء

— ١٦ —

الصحف التي أصدرها

أصدر جريدة (الفجر الصادق) في النجف عام ١٩٣٠ وكانت أسبوعية عاشت سنة واحدة وأوقفها صاحبها لازمة ادارية .

وأصدر جريدة (الراعي) بعد ذلك سنة ١٩٣٤ وعاشت سنة أيضاً فأغلقتها الحكومة ولُوحق الخليلي بسببها من قبل الحكومة شهوراً لاتهامه بالعمل مع سماحة الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء الذي كان يقود التمرد والثورة في وجه حكومة حزب الاخاء وحكومة الهاشمي يومذاك .

وأصدر (الهاتف) عام ١٩٣٥ في النجف وانتقل بها إلى بغداد عام ١٩٤٨ وفي ١٩٥٤ أغلقت الهاتف مع الصحف الاخرى بموجب مرسوم صدر في ذلك العام وقد صدرت قبل اغلاقها يومية سياسية مدة أربع سنوات فكان مجموع عمرها عشرين سنة كاملة صدرت في النجف وبغداد دون انقطاع .

— ١٧ —

كان لصحف الخليلي وخاصة الهاتف فضل كبير على كثير من مشاهير الادباء والشعراء في العالم العربي وتعتبر سنينها العشرون اليوم تاريخاً ذا شأن كبير في دراسة الادب .

— ١٨ —

ربما كانت المنشورات الثورية (الفقرة ١٣) بداية المحفّز او المحبّب للخليلي على العمل في الصحافة وكانت هذه المنشورات تحمل أسماء قد يكون

منها اسم (الراعي) وبعد ذلك في عام ١٩٢٤ عندما كان معلماً في الحلة (بمدرسة الحلة الابتدائية الاولى) أصدر جريدة مع بعض زملائه كانت تكتب على الآلة الطابعة ويطبع منها ما لا يزيد على (٨) نسخ وتقع في ٢٤ صفحة ومن زملائه المشاركين له في التحرير كان المرحوم الأستاذ عبد الستار القرغولي والأستاذ فريد توما والسيد قاسم العطار . وكانت أدبية بحتة . وكان السيد نوري شقيق السيد قاسم هو الذي يقوم بطبعها على الآلة الطابعة .

ثم لما صدرت مجلة (الحيرة) الشهرية للشيخ عبد المولى الطريحي حرر السيد الخليلي القسم المدرسي فيها وقد صدرت منها أعداد ثلاثة فقط .

— ١٩ —

عمل في التعليم في الحلة والنجف وسوق الشيوخ والرميثة والكوفة في فترات ، واستقال من المعارف في السنة التي توفي فيها والده رحمه الله وكان آخر ما عمل في المعارف ان كان مدرساً للتاريخ والجغرافيا في ثانوية النجف مدة ثلاث سنوات تقريباً .

— ٢٠ —

حينما أصدر (جريدة الفجر الصادق) الفقرة ١٦ كان مدرساً في النجف فأنذر لهذا السبب بأنه لا يجوز أن يصدر الموظف جريدة مع أنه أصدرها باجازة فأغلقت كما تقدم .

ثم أصدر (الراعي) بعد ان اقترض من أصدقائه المقربين اليه مبلغاً من المال لهذا الغرض وأغلقت الجريدة لأنها شاركت في الحركات الاصلاحية التي تزعمها يومذاك الامام محمد الحسين كاشف الغطاء وتطور الأمر إلى نزعات سياسية أما جريدة (الفجر الصادق) فقد تناولت قضايا اصلاحية أيضاً كموضوع

(تحريم التطبير) ونقل الجنائز إلى (النجف) وقضايا اجتماعية كثيرة ، وكذلك كانت (الهاتف) حرباً على التقاليد والأوضاع المضرة وقد نال صاحبها الشيء الكثير من الاذى بسبب مواقفه هذه وقد وقع عليه الاعتداء مرة أمام بيته فسقط مضرّجاً بالدماء بسبب تلك المواقف . وحاول خصومه مرة اخرى أن يحرقوا بيته ومكتب جريدته فهزمتهم فرقة اخرى من شيوخ النجف كانت لها مع خصومه عداوة فاتخذت من تحفّزهم ضد الخليلي ذريعة للدفاع عنه ومنّت عليه بنصرتها له على ما ذكر .

— ٢١ —

ان صحف الخليلي اولى الصحف العراقية التي فتحت صفحاتها بتشجيع كبير لآثار الاديبات والشاعرات من النساء . ومن أوائل من كتبن في هذه الصحف كانت دلال صفدي (في جريدة الراعي) وكانت (هناء ربح) و (زهرة الحر) وهي عراقية لبنانية كانت يومها في النجف والسيدة (نعمت القربي) زوجة الأستاذ (جميل اسماعيل القربي) مدير الداخلية العام في سوريا سابقاً وكانت في النجف يوم ان حررت في جريدة الخليلي . وهي اليوم مع زوجها في دمشق . وغيرهن من أوائل من كتبن في صحفه .

— ٢٢ —

لقد شارك الخليلي في نظم الشعر — قريضاً وزجلاً شعبياً — ولعله مارس النظم قبل النثر .

ورأيه في الشعر الحر انه هراء ، وأنه سيموت لذلك لم يهتم بنقده اهتماماً ملحوظاً .

— ٢٣ —

ورأيه في القصة انها حكاية الواقع . ونقل الصورة الذهنية بشكل فني خاص إلى الورق وهو يعتبر توفيق الحكيم ، والدكتور سعيد عبده ، والدكتور عبد السلام العجيلي وأمثالهم في مقدمة كتاب القصة العربية .

وقد حدثني عن الواقع في قصصه فقال : ان القليل من قصصه واقعي مسجل ، والكثير منه خيالي افرغ في قالب الواقع ، فكان يتصور نفسه كما لو كان هو بطل القصة وينسج على منوال ما كان يمكن أن يقوم به كشخص صالح او غير صالح مما كان يعرف من صور الناس وأفكارهم .

— ٢٤ —

ومن تجارب الشباب بالنسبة لعواطف السيد الخليلي الخاصة ان جارة أحبته ولكنه لم يشعر بهذا الحب او لم يدر به إلا بعد فوات الاوان (وبعد أن تقدمت به السن) .

وأنه من جانبه أحب واحدة ... وقد تزوجت بعد حين ، وهناك قصة حب باسم (حينما يحب الشاعر) كتبها الخليلي ونشرها تباعاً في جريدة (الشعب) التي كانت تصدر في بغداد ويغلب على ظني وظن البعض من الأصدقاء انها قصة حقيقية وانها حكت جانباً من واقع الخليلي نفسه وان هذا الحب كان متبادلاً بين الاثنين وكانت هي أديبة من فضليات النساء ولا تزال حية موجودة على ما أظن .

— ٢٥ —

لقد كتب مقدمات لكثير من الكتب منها :

معجم أدباء الاطباء للشيخ محمد الخليلي . وديوان (جواهر وصور) للسيد عباس شبر ، وديوان (الانواء) للسيد مير علي أبو طبيخ ، وديوان (أشعة ملونة) للسيد أحمد الصافي النجفي . وكتاب (نهاية حب) للسيد عبد الله نيازي ومقدمة لديوان السيد محمد صالح بحر العلوم . ومقدمة لمجموعة الشاعر المحامي أنور شاؤول . ومقدمة لكتاب (الامام علي) لسليمان كتاني وغيرهم .

— ٢٦ —

في قصصه وفي أدبه بصورة عامة يعنى بالمأثورات الشعبية ، جاء في كتاب (القصص في الأدب العراقي الحديث) للسيد عبد القادر حسن أمين عن الخليلي قوله : « ... اذ يتخذ من حوادث البلد ورجالها موضوعاً لقصصه ... لا تهمه السياسة بقدر ما تهمه معتقدات العامة » .

— ٢٧ —

كتب الاستاذ روكس بن زائد العزيزي في مجلة العرفان — عام ١٩٦٣ — واصفاً الخليلي حين تناول كتابه الأخير (هكذا عرفتهم) بقوله :

« الأستاذ جعفر الخليلي ربعة في الرجال . تكمن وراء لطفه المهذب رجولة حازمة تنم عليها نظرات فاحصة نفّاذة . اناقة متناسقة ، تدل على ذوق رفيع ، ونكتة حاضرة بارعة يواكبها وفاء للصديق . وانصاف للخصم ، وهدوء نفسي ينم على حياة عائلية سعيدة » .

وكتب غيره عدد كبير من رجالات الأدب والاجتماع منهم على سبيل المثال : الاديب النابغة نظير زيتون ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي . وجورج صيدح ، ووديع فلسطين ، والياس فرحات .

— ٢٨ —

من رسالة للأستاذ ميخائيل نعيمة إلى صديق له يقول فيها :

« ... ان الأستاذ الخليلي حريّ بأن توضع عنه أوسع الدراسات كأديب وصحفي... »

— ٢٩ —

كتبت مجلة الثقافة التونسية (١٩٦٣) قائلة :

« ... الأستاذ الخليلي صاحب مجلة الهاتف العراقية التي خدمت الأدب العربي في وادي الرافدين سنوات طويلةو هو من كبار القصاصين في العراق ومن أدقهم في وصف الحياة الاجتماعية ومعالجة مشاكلها وتصوير واقع المجتمع العراقي بصدق وفن وبراعة » .

وكتبت عشرات المجلات والصحف الشيء الكثير عنه ،في مختلف المناسبات . وعلى الاخص الصحف العراقية .

— ٣٠ —

كتابه عن القصة يثبت نظرية مهمة تقرر بأن العراق كان مهد القصة العربية منذ أقدم القصور .

— ٣١ —

انتدبته جامعة طهران هو والمرحوم الدكتور مصطفى جواد لالقاء محاضرات

فيها وكان موضوع الخليلي « ما أخذه الشعر العربي من الفارسية وما أخذه الشعر الفارسي من العربية » ويعتبر دراسة فريدة في بابها ، طبعته الجامعة اللبنانية وقررت تدريسه .

— ٣٢ —

من كتبه غير المطبوعة كتاب (نصيب بغداد من قصة كليلة ودمنة) وكتاب باسم (صفحات من الجيل الماضي) ومجموعة قصص باسم (أيام مضت) وكتاب (نظرات في الكتب) وغير ذلك من المخطوطات ومنها الجزء الثالث والرابع من كتاب (هكذا عرفتهم) [1] .

— ٣٣ —

ولعل الوقوف على صورة تقرب من الواقع عن ترجمة الأستاذ جعفر الخليلي وأسرته لمن يريد ذلك يعتبر من الامور السهلة اليسيرة وذلك لوفرة المصادر ، وبعضها فيما يلي :

أولاً : — ما جاء عن تاريخ الاسرة في عدد من الكتب المطبوعة والمخطوطة (كالحصون المنيعة) للشيخ علي كاشف الغطاء وهو مخطوط ، وكتاب (دار السلام) للميرزا حسين النوري وكتاب (عنوان الشرف في وشي النجف) للشيخ محمد السماوي وكتاب (ماضي النجف وحاضرها) للشيخ جعفر محبوبة و (أعيان الشيعة) للسيد محسن الامين العاملي و (الثورة العراقية) للدكتور عبد الله الفياض ، (والثورة العراقية) للسيد عبد الرزاق الحسني ومجامع التراجم للسيد حسن الصدر و (الذريعة) إلى تصانيف الشيعة للشيخ اغا بزرك و (معجم المؤلفين العراقيين) لكوركيس عواد و (تاريخ الطب العراقي) لعبد الحميد

---

(١) وقد طبعا اخيراً

مكتبة الجواد بن العما
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني

تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٩١م
النجف الأشرف - العراق

العلوجي و (عطر وحبر) لعبد الحميد العلوجي وعدد من كتب التراجم المتأخرة من الاعلام والموسوعات النجفية الخاصة لا سيما (معارف الرجال) للعالم الشيخ محمد حرز الدين .

ثانياً : ــ كتب الادلة كالدليل العراقي الصادر عام ١٩٣٦ ، والدليل الصادر عام ١٩٦٢ . والمعجم العربي السوري ، وبعض الكتب التي خصت الخليلي بالذكر نذكر منها ما يلي :

(على الطائر) لمارون عبود و (فن القصة) لمحمد يوسف نجم و (دراسات أدبية) المجلد الاول ، لغالب الناهي و (تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي في القرنين التاسع عشر والعشرين) للدكتور داود سلوم ، و (القصص في الأدب العراقي الحديث) لعبد القادر حسن أمين وغير ذلك من الكتب بالاضافة إلى ما نشرته عنه المجلات والصحف وهو كثير وكثير جداً .

ثالثاً : ــ مؤلفاته نفسها وخاصة كتابه الأخير (هكذا عرفتهم) ــ بجزئيه المطبوعين ففيهما ملامح كثيرة من حياته وسيرته وردت بالمناسبة في غضون الكتاب .

رابعاً ــ الاضابير التي تحتوي على مئات من الرسائل التي تلقاها من مشاهير رجال العلم والأدب أمثال الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ، والشيخ جواد الشبيبي وميخائيل نعيمة . وأحمد الصافي النجفي ، وجورج صيدح ، والياس فرحات ، والدكتور عبد اللطيف حمزة ، والشيخ علي الشرقي ، والدكتور مصطفى جواد ، واسكندر حريق ، والدكتور رشيد معتوق ، وروكس العزيزي ، ووديع فلسطين ، وعجاج نويهض وغيرهم .

خامساً : ــ الصحف التي أصدرها .

سادساً : ــ السجلات التي نظمّها الخليلي نفسه وحفظ فيها العدد الكبير من قصاصات الصحف التي تناولته أو تناولت آثاره وكتبه بالذكر .

سابعاً : ــ ألبوم الصور والبطاقات الشخصية اللذان يحتفظ بهما السيد الخليلي وهما منظمان تنظيماً حسناً .

ثامناً : — مؤلفاته التي لم تنشر . وكذلك المسودات او أصول الاشعار او المترجمات او ما نشر منها وما لم ينشر .

تاسعاً : — جريدة الفجر الصادق الأسبوعية . وكانت تصدر في ثماني صفحات كل أسبوع — وقد صدر العدد الأول منها بيوم ٧ مارت ١٩٣٠ ، وأوقفت عن الصدور بعد صدور العدد ٣٠ المؤرخ ١٠ تشرين الاول ٩٣٠ .

وجريدة الراعي الأسبوعية وكانت تصدر في ١٢ صفحة كل أسبوع . وقد صدر العدد الأول في ١٣ تموز ١٩٣٤ وأغلقتها الحكومة بعد صدور العدد ٤٠ المؤرخ ١٩ نيسان ١٩٣٥ لأسباب سياسية .

والهاتف الأسبوعية كانت تصدر في ١٢ صفحة كل أسبوع وقد صدر العدد الأول في ٣ أيار واستمرت في الصدور أسبوعياً أربع عشرة سنة متواصلة ، وفي السنة الخامسة عشرة صدرت كجريدة يومية سياسية مدة أربع سنوات تقريباً .

والهاتف السياسي اليومي — بالحجم الكبير وقد صدر العدد الأول منه وهو العدد ٥٢٨ في السنة الخامسة عشرة من الأعداد الأدبية وذلك في ٢٧ كانون الأول ١٩٤٩ . وانتهى الهاتف السياسي اليومي في السنة الثامنة عشرة وبالعدد ١٢٧٣ المؤرخ ١٧ تشرين الأول ١٩٥٢ ثم استمر يصدر أدبياً وفي كل أسبوع مرة حتى السنة العشرين وفي هذه السنة سنة ١٩٥٤ أغلق الهاتف في ضمن ما أغلق من الصحف بموجب مرسوم حكومي ولم يصدر بعد ذلك .

— ٣٤ —

وينصرف اليوم الخليلي بكله إلى التأليف واصدار موسوعة العتبات المقدسة .

— ٣٥ —

هذا باختصار يصلح أن يكون الباب الذي يمكن ولوجه لمن يهمه أن يدرس الخليلي دراسة واسعة فهو يسهل الإحاطة بترجمته كشاعر ، وكاتب ، وقصاص ، ومؤرخ ، وصحافي .

مطابع دار الكتب
ص ب ٣٥٥٩
بيروت